الانفجار السوري الكبير

٢٠١١

(الحرية والكرامة بين مخالب المفترسين)

منير شحود

الانفجار السوري الكبير

٢٠١١

الحرية والكرامة بين مخالب المفترسين

"يا ولدي، حياتنا مليئة بالآلام والآثام، أولئك الجهَّال أرادوا الخلاص من موروث القهر بالقهر، ومن ميراث الاضطهاد بالاضطهاد، وكنت أنت الضحية"

الأسقف نسطور المرعشلي[١]

[١] ولد الأسقف نسطور في قرية مرعش شمال غرب مدينة حلب في سنة ٣٨٠ بعد الميلاد، واشتُقَّ من اسمه مذهبُ النساطرة المسيحي. وصل إلى كرسي الأسقفية في القسطنطينية سنة ٤٢٨، ومات منفياً سنة ٤٤٩.

تقديم

الأنظمة الاستبدادية: تعددت الأسباب والموت واحد

لكلّ نظام استبدادي طريقته في الموت؛ في صراعٍ داخلي، أو في مواجهة قوة خارجية، أو بوصوله إلى طريقٍ مسدود وتفكّكه بفعل تبدلات الزمن. منذ بداية القرن العشرين تسبّبت الأيديولوجيات الشمولية بالمزيد من الكوارث من جرّاء طموح قادتها وحشدهم للجماهير وراء أهداف قومية أو دينية أو مثالية، في ظروف تاريخية محدَّدة، مستغلين حاجة الجموع الجاهلة والمُجهَّلة لاسترداد كرامة مفقودة أو أمجاد ضائعة أو التعلُّق بأحلام مستحيلة.

حشدت النازية في ألمانيا وحليفتها الفاشية في إيطاليا الجماهير وراء شعارات قومية وعنصرية، واندفعت في محاولة مجنونة للسيطرة على العالم في الحرب العالمية الثانية التي انتهت بهزيمتهما الساحقة، بعد أن خسرت أوروبا عشرات الملايين من الضحايا والكثير من المدن المدمَّرة، في أفدح الكوارث الحربية عبر التاريخ.

في السبعينات، بعد وفاة مؤسسه، استنفذ نظام الجنرال فرانكو في إسبانيا طاقته العنفية، وتحوَّل تدريجياً نحو الديمقراطية من خلال استعادة المَلَكية الدستورية السابقة للحرب الأهلية[٢]. كما سقط نظام بينوشيت في تشيلي في الثمانينات تحت وطأة المظاهرات الشعبية والتحالف بين القوى اليسارية والكنيسة الكاثوليكية[٣]، وحدث مثل ذلك لمعظم دكتاتوريات أمريكا اللاتينية.

أقامت الأنظمة الشمولية في أوروبا الشرقية، على رأسها الاتحاد السوفييتي السابق، أنظمةً بوليسية يقود في كلّ منها حزبٌ واحد وزعيمٌ أوحد، وتحققت فيها تطورات اقتصادية مهمة، لكن بأثمان باهظة تمثلت بمقتل الملايين والزجّ بالآلاف في المعتقلات السرية كقربان يقتضيه الوصول إلى الجنة الأرضية الموعودة– الشيوعية. تأسس ذلك على فكرة لينين المتمثلة بإمكانية بناء الشيوعية خارج حلقة البلدان الرأسمالية المتطورة، بخلاف ما ذهبت إليه الماركسية التقليدية[٤].

استرخصت الأنظمة الشيوعية الإنسان تحت مسميات الصراع الطبقي والثورات الثقافية، وطُبِّقت فيها أساليب عمل أقرب إلى العبودية. وفي النصف الثاني من القرن العشرين، تحولت هذه الأنظمة بالتدريج إلى مجرد هياكل فارغة بعد استنفاد طاقتها التاريخية، ثم انهارت كأحجار

---

[٢] نشبت الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦- ١٩٣٩) بين الجمهوريين والقوميين إثر الانقلاب على الشرعية من قبل بعض الجنرالات ومنهم فرانكو. تدخلت الأطراف الخارجية في هذه الحرب، إذ ساعد الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه الجمهوريين، في حين دعمت ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية القوميين والانقلابيين.

[٣] لعب تحالف القوى اليسارية مع "لاهوت التحرير"، الذي يتبع الكنيسة الكاثوليكية (تحالف قوى الشعب)، دورا مهماً في دحر الدكتاتوريات في بلدان أمريكا اللاتينية. ارتبطت الكنيسة الكاثوليكية في هذه البلدان بمساعدة الفقراء بخلاف الكنيسة الأم في روما.

[٤] اعتبرت الماركسية، على وجه التقريب، المرحلةَ الشيوعية تتويجاً للرأسمالية في أقصى مراحل تطورها.

الدومينو في نهايته[٥]. ولم يحلْ امتلاك الاتحاد السوفييتي لآلاف الرؤوس النووية دون انهياره المدوّي.

لاقى نظام طالبان القروسطي في أفغانستان المصير نفسه على يد القوات الأميركية[٦] عام ٢٠٠١، وسقط نظام صدام حسين بالضربة القاضية في عام ٢٠٠٣ بعد إضعاف نظامه وإنهاك المجتمع العراقي بالعقوبات الأممية التي تلت غزوه للكويت وحرب الخليج الأولى التي استتبعته[٧].

كان للصين الشيوعية طريقها الخاص، فبعد وفاة ماو تسي تونغ عام ١٩٧٦، قاد دينغ سياو بينغ عام ١٩٧٨ تحولات اقتصادية عميقة أفضت إلى ما يسمى "اشتراكية السوق"، لكن بتخطيط مركزي[٨]. انتشلت التحولات الاقتصادية الجديدة عشرات ملايين الفلاحين من تحت خط الفقر، ونما الاقتصاد بصورة مضطردة وبنسب فاقت الـ ١٠% سنوياً. كان ذلك مخرجاً تاريخياً مناسباً للصين كمرحلةٍ انتقالية، لكن بثمن سياسي باهظ، ولو من الناحية الرمزية، إذ تم قمع المطالبين بالديمقراطية في ساحة تيانانمن بتاريخ ٤ حزيران ١٩٨٩. الآن، بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود، حمل التطور الاقتصادي والتقني الكثير من الحريات للصينيين، وتحول الحزب الشيوعي الحاكم إلى ما يشبه جهازاً إدارياً لتنظيم عملية التطور المتسارعة، ولن يطول الأمر كثيراً حتى تحلق الصين، البلد الأكبر في العالم من حيث تعداد السكان، بجناحيها الاقتصادي والديمقراطي معاً.

***

مع مجيء "الربيع العربي[٩]"، انهار نظاما الحكم في تونس ومصر بسرعة مقارنة بنظام القذافي في ليبيا، على الأرجح بسبب المستوى الأقل نسبياً لاحتكار السلطة والحدّ الأدنى من الحريات وتجارب التنوير السابقة في هذين البلدين، بخاصة ما تميَّزت به تونس في عهد الرئيس بورقيبة من إرساء الكثير من الحقوق المدنية[١٠].

---

[٥] سقط الدكتاتور الروماني تشاوشيسكو بعد انتفاضة عسكرية مفاجئة عام ١٩٨٩، وأُعدم مع زوجته بصورة دراماتيكية. كما سقط جدار برلين في العام ذاته وانفصلت دول أوروبا الشرقية تباعاً عن المركز السوفييتي، وتفكك الاتحاد السوفييتي أواخر عام ١٩٩١.

[٦] بدأ الهجوم الأمريكي على منظمة القاعدة وحماتها من حركة طالبان في ٧ تشرين أول/ أكتوبر عام ٢٠٠١، وذلك بعد هجوم القاعدة على برج التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من العام نفسه.

[٧] غزا النظام العراقي الكويت في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، ونشبت حرب الخليج الأولى في بداية عام ١٩٩١.

[٨] http://www.chinaasia-rc.org/index.php?p=32&id=414

[٩] انطلقت الاحتجاجات في تونس في ١٧ كانون أول/ ديسمبر ٢٠١٠ بسبب حادثة البوعزيزي، البائع الذي أحرق نفسه أمام مقر ولاية سيدي بوزيد، احتجاجاً على مصادرة شرطة البلدية لعربة بيع الخضار خاصته. اعتُبرت هذه الحادثة الشرارة الأولى لاندلاع أحداث "الربيع العربي"، ويالها من شرارة!

[١٠] لعلّ من أهمها المساواة الحقوقية بين النساء والرجال، بما في ذلك منع تعدد الزوجات.

تعقَّد الوضع في اليمن لأسباب عدّة، منها النزاعات القبلية والتدخلات الخارجية. ودخلت الحالة السورية في أسوأ السيناريوهات، إذ تحولت المطالبات المشروعة بالحرية والكرامة إلى صراع عدمي مسلّح عزّزه تدخل الأطراف الإقليمية والدولية التي عملت على إيقاظ السعير الطائفي من رقاده أو تصفية حساباتها على الأرض السورية، ما حجب المسألة الأساس؛ تجاوز حالة الاستبداد إلى استعادة الديمقراطية الغضّة التي عاشها السوريون في منتصف الخمسينات.

لم يكتمل الاندماج الوطني السوري بعد الاستقلال جراء الانقطاع التاريخي الذي تلا بضع سنوات فقط من ممارسة الديمقراطية[١١] كمنتج لثقافة مدينية برجوازية ضعيفة، والتي ما لبثت أن اجتاحتها موجتا المدّ القومي الناصرية (١٩٥٨) والبعثية (١٩٦٣). وتعرّض المشروع القومي العربي العاطفي، برمّته، إلى هزيمة ساحقة في حرب العام ١٩٦٧.

إنّ عدم قدرة طبقة الصناعيين[١٢] على تمدين الريف لفتح أسواق جديدة، وصراعها المرير مع الإقطاع حول إجراءات الإصلاح الزراعي، سمح للبعثيين بالنفاذ إلى السلطة في سوريا والقيام بالإصلاح الزراعي والتأميم، ولو بصورة ارتجالية، ما أكسبهم تأييد الأوساط الريفية الفلاحية التواقة للتخلص من مختلف المظالم الاجتماعية المتراكمة منذ العهد العثماني.

منذ وصوله إلى السلطة، عشَّشت في حزب البعث مختلف العصبيات المذهبية، وتسلسلت عمليات الإقصاء حتى وصلنا إلى حكم الفرد الواحد عام ١٩٧٠ ووريثه عام ٢٠٠٠، بالتوازي مع ترسيخ نظام أمني شمولي متعدد الارتباطات والركائز في المجتمع السوري.

في تلك الأثناء، تراجعت عملية التمدُّن التي كانت تجري بصورةٍ بطيئة وطبيعية منذ بدايات القرن العشرين، وانقلب اتجاه هذه العملية التاريخية لصالح تشكيل ثقافة هجينة، مدينية–ريفية، فبدا وكأنّ هاتين الثقافتين تلاقتا في منتصف الطريق وسدَّت كلّ منهما الطريق على الأخرى!

***

تميز نظام الحكم في سوريا بطبيعته الاستبدادية الشمولية منذ بداية الثمانينات على الأخصّ، إذ ضاقت حرية التعبير السياسية أو انعدمت، وتم تحطيم ما تبقّى من البنى الأهلية والمدنية، وحُظرت جميع النشاطات السياسية، فعاش الناس في كنف سلطة جمعتهم لتراقبهم وتفرّق بينهم؛ كان ثمة تعايش، ولم يكن ثمة مواطنة بحقوقٍ وواجبات، إلا على أوراق الدستور المنسيّة.

---

[١١] ١٩٥٤- ١٩٥٨، أي منذ سقوط الشيشكلي وحتى قيام الوحدة المصرية- السورية.

[١٢] كان خالد العظم وعبد الرحمن الشهبندر من أبرز ممثلي هذه الطبقة، ومن مؤيدي تطوير الريف وحلّ المشكلة الفلاحية.

قبل ذلك وبعده، كان حزب البعث مطيةً لتنفيذ سياساتٍ تمّت صياغتها في دوائر ضيقة استحوذت على السلطة وتقاسمت الثروة والنفوذ بحماية منظومة أمنية معقدة، واحتفظ هذا الحزب بمشروعية هيمنته الشكلية على المجتمع من خلال المادة الثامنة من الدستور السابق، ولم يتغير شيء عملياً بعد إلغاء هذه المادة في الدستور الجديد[١٣]!

لم تكن الموارد المادية قادرةً على تحسين ظروف العيش نوعياً؛ بالنظر لتصاعد عمليات النهب وغياب الشفافية والصحافة الحرة ورقابة المجتمع المدني المكبّل بالمخاوف، وبسبب موروث ثقيل من الفقر والجهل وارتفاع نسبتي الأميّة والولادات، ووجود كمّ هائل من الأعراف والتقاليد التي لا تساهم في تحرير طاقات الأفراد وتحقيق ذواتهم، ذلك في نمط من العلاقات يقوم على التّلقين لا على رعاية التفكير المستقل، فساهم ذلك في تعزيز الاستبداد السياسي لا في تقويضه، الاستبداد الذي حمل في أحشائه جنين استبداد إسلامي أمرّ وأدهى.

من الناحية السياسية، ومنذ انقلاب ١٩٧٠[١٤]، تمثّل النشاط المعارض للسلطة بنشاط حزب "الإخوان المسلمين" في أحياء المدن القديمة والضواحي ذات الأغلبية السنيّة، في صفوف الطبقة الوسطى أساساً، فيما نشطت الأحزاب اليسارية والقومية بصورة عابرة للمذاهب، لكن بنسبة أكبر في بيئات الأقليات الدينية والعرقية[١٥]. لم يكن أي من هذين الطرفين السياسيين قادراً على تشكيل رافعة وطنية معارضة، كما لم ينجم عن تحالفهما أحياناً[١٦] نتائج سياسية تذكر؛ بسبب ميلان الكفّة لصالح "الإخوان"، الذين استغلوا حالة الكتلة الشعبية "الخاملة"، تاريخياً، والمنقادة بثقافة دينية مفوَّتة.

أما الأحزاب اليسارية، مع أن أدبياتها كانت متجاوزة للواقع نظرياً، فلم يكن لديها برامج فعلية تختبر فيها صلاحية نظرياتها على أرض الواقع، فظهر أنّ ثمة انفصاماً بين الرؤى المكتوبة والواقع المعاش. كما أنّ الأفكار ذاتها لم تكن، في معظم الأحيان، سوى قشرة رقيقة حجبت الانتماءات القبْلية ولم تتجاوزها، ما يفسر، ولو جزئياً، تحلُّل هذه الأحزاب وانكفاء الكثير من أعضائها إلى انتماءاتهم السابقة، بخاصة بعد عام ٢٠١١.

لا نغفل أيضاً العامل الأهم الضاغط على النَّفَس السياسي، ألا وهو ساطور القمع. فمنذ بداية الثمانينات أصبحت التُّهم جاهزة، وتراوحت بين السجن والإعدام لعناصر حزب "الإخوان

---

[١٣] تم اعتماد الدستور الجديد في ٢/٢٧/ ٢٠١٢.

[١٤] ما سمي بالحركة التصحيحية.

[١٥] على سبيل المثال، وجود نسبة أكبر من اليساريين بين العلويين والمسيحيين والأكراد.

[١٦] كما في التحالف بين الإخوان وبعض الأحزاب اليسارية، وعلى رأسها الحزب الشيوعي- المكتب السياسي أوائل الثمانينات. تمت استعادة تجربة هذا التحالف في ٢٠١١ عند تشكيل "المجلس الوطني السوري"، لكن من خلال تجمع يساري جديد هو إعلان دمشق، وضمن شروط التحالف ذاتها تقريباً، ما قاد إلى فشلٍ آخر وأكثر مأسوية؛ بسبب الظروف المعقّدة التي استجدّت هذه المرة.

المسلمين"[١٧]، الذي كان اختار أيضاً استخدام السلاح كوسيلة للتغيير في النصف الثاني من السبعينات، وتهمة "وهن نفسية الأمة" لأعضاء باقي الأحزاب، ما يفضي إلى الزجّ بهم في السجون لسنوات بدون محاكمة أو بمحاكمات صورية.

***

حين حصل التوريث "الانتخابي" في عام ٢٠٠٠، كان السوريون ما يزالون شبه مخدَّرين بثلاثة عقود من الموات السياسي، يحدوهم الأمل في أن يثمر العهد الجديد عن بعض التجديد في المياه السورية الراكدة، لكنَّ التغييرات جاءت بخلاف المتوقَّع والمأمول.

في العهد الجديد، بعد عام ٢٠٠٠، تم اعتماد سياسة "اقتصاد السوق" واللبرلة الاقتصادية لصالح الفئات البرجوازية المحمية من قبل النظام والمرتبطة بفساده وسياساته. استفاد أرباب الاقتصاد السوري الجدد هؤلاء من غياب الحريات السياسية والإعلامية للدفع باتجاه انفتاحٍ اقتصادي يساعدهم في الحصول على الربح– النّهب غير المحدود، لكنّه وضع في دائرة الخطر قاعدة الاقتصاد السوري المؤلفة من الورش والأعمال الصغيرة، التي تمتَّعت لسنوات عديدة ببعض إجراءات الحماية الحكومية في مواجهة السلع الأجنبية الأكثر تطوراً والأرخص ثمناً، وسيكون ذلك من بين أسباب اندلاع الاحتجاجات عام ٢٠١١ في الأحياء الفقيرة والمهمَّشة. ولم تعمل السياسات الحكومية على تحسين ظروف العمل المتخلِّفة؛ لتتمكّن الصناعة المحلية والورش الصغيرة من الاندماج بالدورة الاقتصادية العالمية من خلال تحسين مواصفات السلع.

في هذا السياق، تم عقد الاتفاقيات الاقتصادية المجحفة مع الخارج، بخاصة مع تركيا[١٨]، وارتفعت نسبة البطالة إلى درجة لم تستطع السياسات الحكومية استيعاب أكثر من خُمس الوافدين الجدد إلى سوق العمل سنوياً[١٩]. لا نغفل بالطبع موجة الجفاف التي تعرضت لها الجزيرة السورية بين عامي ٢٠٠٨ و ٢٠١٠، المخزن الغذائي لسوريا، والتي أدّت إلى إفقار ونزوح آلاف الأسر. بالنتيجة، تمَّت إعادة توزيع السلطة والثروة في أوساط النُّخب الاقتصادية العليا، وقلّت فرص الهجرة، التي كانت، وما زالت، سبيلاً مهماً لكسب العيش بالنسبة لمئات الآلاف من السوريين.

في هذه الأثناء، استمر النظام بإغلاق كافة المنافذ في وجه أية إصلاحات أو مطالبات سياسية، وواصل اختراع التوصيفات الأيديولوجية لاستمراره في الحكم، مثل ادّعاء "المقاومة

---

١٧ القرار ٤٩ لعام ١٩٨٠، القاضي بإعدام أعضاء حزب الإخوان المسلمين.

١٨ اتفاقية التجارة الحرة مع تركيا عام ٢٠٠٤، والتي دخلت حيز التطبيق في عام ٢٠٠٧. انظر حول الأسباب الاقتصادية للثورة السورية ما ورد في كتاب عزمي بشارة "سوريا ودرب الآلام نحو الحرية"، ص، ٢٩٠- ٢٩٨.

١٩ قُدِّر عدد الوافدين إلى سوق العمل سنوياً في العقد الأول من القرن ٢١ بـ ٢٥٠ ألفاً، بينما بلغت القدرة على التوظيف بحدود الـ ٥٠ ألفاً (إحصاءات شبه رسمية).

والممانعة"[٢٠]، في مفارقة مؤلمة انطلت على البعض، فيما كان جنود العدو يتثاءبون على أرض جولاننا الغالية من فرط الانتظار، وفي الوقت الذي تشير فيه كل التقديرات العقلانية إلى عدم إمكانية الفوز في أية حرب، في المدى المنظور على الأقل.

هكذا، على امتداد عدة عقود، كانت سوريا مثل بحيرة راكدةٍ وراء سدٍّ محكم، وقد حجب السكون الخادع كمّاً هائلا من التفاعلات والتخمُّرات التي كانت تحدث في أعماق البحيرة وتهدِّد بانفجارها، ما لم تُتَّخذ خطواتٌ سريعة لتنفيس الاحتقان في محيطٍ يعجُّ بالتطرُّف الإسلامي الذي يجهِّز سواطيره الفكرية والمادية للحلول مكان الاستبداد السياسي، مستغلاً المظالم التي راكمها القمع خلال العقود الماضية، ومن أجل إلحاق هزيمة حضارية بالشعب السوري وآماله في التحرُّر من كلّ استبداد.

لكن، هل يمكن لنظامٍ مستبدٍّ أن يكون شريكاً في حلّ المشكلة التي كان له باع طويل في مفاقمتها واستفحالها، أم أنه سيتابع العبث في المستنقع السوري؟ اختار النظام الحلَّ الثاني بالطبع في محاولته تأبيد حكمه. ولجملةٍ من الأسباب[٢١]، على رأسها تغلغل النظام عميقاً في الواقع السوري واستغلاله لتنوّعه وتناقضاته، صار من الصعب رحيل النظام من دون حصول انقسام اجتماعي مرشَّح للتصادم بعنف عند توافر ظروف التغيير ووعيها.

مع اندلاع انتفاضات "الربيع العربي"، حاول النظام السوري مقاومة هذا التيار الجارف قبل أن يصل، والإيحاء باختلاف الحالة السورية[٢٢]، في محاولة للَيّ عنق التاريخ وتفادي استحقاق التغيير بعد انقضاء أكثر من عشر سنوات على الوعود بإجراء إصلاحات سياسية كانت ضرورية لتنفيس الاحتقان في أكثر من محطة[٢٣]، والذي سيتسبب باندلاع الاحتجاجات في آذار/ مارس عام ٢٠١١.

---

[٢٠] تعني كلمة "ممانعة" سياسياً بقاء حالة "اللاحرب واللاسلم" التي تناسب النظام وأعوانه من أجل الاستمرار في الاستحواذ على السلطة والثروة بهدوء، لكن من دون القطع مع فكرة الحرب وتحرير الأرض بالقوة، كضربٍ من إلهاء الناس وإبعادهم عن التفكير بمصالحهم الملموسة. وتعني كلمة "مقاومة" عملياً الدفع بالمنظمات الحليفة، كحزب الله وبقايا التنظيمات الفلسطينية، لمناوشة العدو الإسرائيلي بين الفينة والأخرى بغية تبرير الشعارات المرفوعة.

[٢١] من العوامل الأخرى، وحسب التسلسل الزمني: ١. الدعم الخارجي من قبل حلفاء النظام، بخاصة إيران وروسيا الاتحادية، و ٢. عدم جدية أعداؤه الخارجيين بالتخلص منه، و ٣. اعتراض قوى التطرُّف الإسلامية خط المطالب المشروعة للشعب السوري.

[٢٢] استبعد الرئيس بشار الأسد في مقابلة مع صحيفة وول ستريت جورنال الأميركية في 31 كانون الثاني/ يناير 2011 تكرار سيناريو تونس ومصر في بلاده، وبرر ذلك بقوله إن سوريا في وضع أفضل من مصر؛ لأنها لا تقيم علاقات مع إسرائيل. كما استبعد الأسد تبني إصلاحات سريعة وجذرية، بحجة ضرورة تحسين التعليم قبل الانفتاح السياسي (كذا!)
http://www.presidentassad.net/index.php?option=com_content&view=article&id=1094:31-2011&catid=9&Itemid=472

[٢٣] كان أبرز هذه المحطات ما سمي بربيع دمشق (٢٠٠٠- ٢٠٠١).

لم تلبث رياح التغيير التي هبَّت على المنطقة أن هزَّت الركود السوري بشدّة، فظهرت للعالم سلطة مطلقة وشعب مستلب. وفور اندلاع الاحتجاجات، اشتغلت ماكينة النظام الإعلامية لتتحدّث عن المؤامرة على سوريا، وضرب "المقاومة والممانعة"، وإقامة الإمارات الإسلامية[٢٤].

كان القاسم المشترك بين كلّ انتفاضات "الربيع العربي" هو وجود الأرضية التي يمكن أن تستغلها التيارات السياسية الإسلامية المتستِّرة بالدين للعودة إلى أوهامها الماضوية والتدخل في خصوصيات الجماعات والأفراد وطمس تنوُّع أنماط الحياة، الذي تتميَّز به سوريا.

لم يكن النظام غائباً عن هذه اللعبة منذ البداية في محاولته للنجاة والاختباء وراء متاريس الإرهاب، الذي تفاقم خطره لاحقاً واجتذب القوى الكبرى لمحاربته. كما ساهمت في ذلك المعارضة الشعبوية المرتبطة بمصالح إقليمية ودولية[٢٥]، والتي تسلّقت على سلَّم مطالب السوريين المشروعة، ما جعلها مشاركةً في الجريمة الكبرى بحق الشعب السوري، أرواحاً وممتلكات، ومساهمةً في إقصاء الممثلين الحقيقيين لمصالح الشعب[٢٦].

استغلت جماعات الإسلام السياسي[٢٧] النقمة الشعبية على ممارسات النظام وحالة الفوضى في المناطق التي تحررت من سيطرته للترويج لمشاريعها، التي تستند جميعها إلى فكرة إنشاء دولة الخلافة الإسلامية، لكنّها نجحت، فقط، في خلط الأوراق، فبرّرت للنظام مقولة الحرب ضد الإرهاب، وأبعدت مطالب الحرية والتغيير التي قام من أجلها السوريون إلى خلفية المشهد الدامي.

***

مرَّت الانتفاضة/ الثورة السورية بثلاث مراحل على وجه التقريب:

١. **المرحلة الأولى**، التي غلب عليها التظاهر السلمي، واستمرت حتى بداية خريف ٢٠١١. رُفعت في هذه المرحلة الشعارات الوطنية، ولو بصورة ضبابية نوعاً ما، وامتلكت كل المبررات التاريخية والأخلاقية لتجاوز حالة الاستبداد. وفيها أيضاً تحولت الانتفاضة المطالبة بإصلاحات سياسية، تدرجاً، إلى ثورة شاملة لإسقاط النظام.

---

٢٤ سيتم طرح الشعار الأخير ابتداءً من عام ٢٠١٢ بهذه الصيغة أو بصيغة "الخلافة الإسلامية" من قبل جماعات الإسلام الجهادي التي اجتاحت سوريا، بما فيها القاعدة، وبتواطؤ وتبرير من معارضين سوريين، ونتيجة لتقاطع الكثير من المصالح الإقليمية والدولية.

٢٥ ربما يمكن القول بأن المعارضة التي تسلّقت على الانتفاضة الشعبية في سوريا هي من أسوأ المعارضات التي عرفها التاريخ!

٢٦ عملت هذه المعارضة على إقصاء الآخرين سياسياً، والاستحواذ على خدمة مصالح الدول الأجنبية، على أمل مساعدتها في الوصول إلى سدّة الحكم، مثلما أقصى النظام كل الأصوات الوطنية أو الفاعلة على الأرض بمختلف وسائل القمع.

٢٧ سنستخدم مصطلح الإسلام السياسي في مختلف تجلياته التي تتراوح بين شكله العنفي الجهادي السافر للوصول إلى السلطة، والشكل "الناعم" الذي يستغل الديمقراطية للوصول إلى السلطة، من دون أن يؤمن بها أسلوباً للعمل السياسي في إطار التعددية، وفي الحالتين، يريد الإسلام السياسي استغلال الدين للتشبث بالسلطة وممارسة الإقصاء.

٢. **المرحلة الثانية**، من خريف ٢٠١١ وحتى منتصف ٢٠١٢، حيث اختلطت فيها العسكرة بالمظاهرات السلمية. بدأ المسلحون و"الجيش الحر" بحماية المظاهرات السلمية، علاوة على عمليات استهداف الجيش والقوى الأمنية واللجان الشعبية- الشبيحة، وترافق ذلك مع ارتفاع النغمة الطائفية المتوافقة مع قنوات الدعم الخارجية، وبروز ملامح الحرب الأهلية المقنَّعة بالثورة.

٣. **المرحلة الثالثة**، منذ أواسط عام ٢٠١٢، وفيها علا صوت العسكرة على ما عداه من الأصوات المدنية، واقترن بالتوجه الطائفي والاعتماد على الخارج بصورة رئيسة. كما تسارع تسرُّب المقاتلين الأجانب عبر الحدود، بالتوازي مع دخول "حزب الله" على خط المعارك إلى جانب النظام[٢٨]، فحضر الصراع الإقليمي إلى الساحة السورية بصورةٍ سافرة، وبصبغةٍ سنية- شيعية، كغطاء لمصالح طرفي الصراع؛ الطرف الإيراني وحلفائه مقابل الطرف السعودي القطري التركي، فيما تمثلت الخلافات على المستوى الدولي أساساً بافتراق وجهتي النظر الأمريكية والروسية حول الموضوع السوري كما في قضايا أخرى، على رأسها المسألة الأوكرانية.

لا يصحُّ تطبيق المفاهيم ولا المصطلحات نفسها على هذه المراحل الثلاث، مثلما لا يجوز الفصل بينها تماماً. وما زال من المبكر الحديث عن التطورات الدراماتيكية التي ما تنفكّ تتلاحق فصولاً، والتي خَفَت فيها صوت الثورة لصالح الدعوات الجهادية المضادة[٢٩]، واتّضحت أكثر الحرب الإقليمية والدولية على أرض سوريا، وعلى حساب دماء أبنائها.

ليس هذا العمل تأريخاً للتفاصيل الإخبارية التي شهدتها سوريا في السنوات الأخيرة، وإن جاء الكثير منها في السياق، إنما عرضٌ للإرهاصات التي اختمرت قبل "الانفجار السوري"، وذكريات الأحداث والمواقف التي شارك فيها الكاتب وعاشها على أرض الواقع، ورؤيته الفكرية والسياسية في مختلف مراحل تطور الحدث السوري، بخاصة في السنتين الأولى والثانية، بما في ذلك الكثير من مشاعر الخوف والبهجة والإخفاقات والآمال.

---

[٢٨] منها، على سبيل المثال لا الحصر، التفجيرات التي حصلت قرب مراكز أمنية وحزبية بدمشق، وراح ضحيتها الكثير من الأبرياء. تبنت جبهة النصرة تفجيرين إرهابيين حصل الأول في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١ والثاني في ١٢ أيار/ مايو ٢٠١٢.

[٢٩] نقصد بالثورة المضادة كل فعل أو جهة استغلت اسم "الثورة" لتمرير مشاريع لا علاقة لها بما قام المنتفضون السوريون من أجله على وجه العموم؛ أي تجاوز حالة الاستبداد إلى مجالٍ سياسي أرحب لم تكن ملامحه قد اتّضحت بعد، ذلك أن فكرة الحرية والكرامة التي طغت في البدايات، كانت قد امتلكت مشروعيتها من عدة عقود تم فيها امتهان الكرامات وقمع الحريات بصورة ممنهجة. لكن مجرى التاريخ قد يخادع أحياناً ويغير اتجاهه، ليعاود اندفاعه من جديد، فقد تجد الحاجة الماسة للتغيير مخارج لها غير اعتيادية، بما فيها تلك الأكثر غرابة ودموية.

إرهاصات وتصدُّعات

يوم الجمعة ١٨ آذار/ مارس ٢٠١١

كنت في زيارةٍ لقريتي في ضواحي مدينة الدريكيش، جلسنا نصف مغمضي العيون اتِّقاءً لأشعّة شمس الظهيرة الساطعة، وهبّت نسمات ربيعية منعشة، فاحتكَّت أغصان شجرة اللوز المورقة برفقٍ. لم يلفت ذلك انتباه أحد، إذ احتدم النقاش واضطربت المشاعر حول أحداث "الربيع العربي" بعد سنواتٍ عديدة من الركود.

غالى البعض في النتائج التي يمكن أن يقود إليها هذا "الربيع"، فيما شكّك البعض الآخر في حدوث أي تغيير حقيقي في المنطقة، بخاصة في سوريا. لم يكن النقاش سوياً، بل أقرب للقتال بوساطة الكلمات؛ تطاير الزبد من أفواه البعض، وتجرّأ آخرون على نطق ما ابتلعوه من كلماتٍ في حواراتٍ سابقة، فمن أين للسوريين ثقافة الحوار أو الجرأة على الكلام بعد عدة عقود من التصحُّر السياسي الممزوج بالرُّعب؟

أحد الأشخاص المتوحِّدين[٣٠]، الذي أحبُّ استشارته في مثل هذه الظروف، أعرب عن رأيه بهدوءٍ واقتضاب: "ستسيل دماءٌ كثيرة، لأنهم لن يتركوا السلطة إلاّ بالقوة، وسيقاتلون حتى النهاية." لم يكن حتى أكثرنا تشاؤماً يعتقد أنّ الأمور ستأخذ مثل هذا المنحى التدميري، أو أن يحلّ شعار "الأسد أو نحرق البلد" مكان شعار "الأسد للأبد"، أو أن يتقاطر الإرهابيون والطائفيون إلى سوريا، في أكبر تظاهرة بربرية في العصر الحديث!

وعلى حين فجأة، تناقلت وكالات الأنباء أصداء التظاهرات التي انطلقت في مدينة درعا! ها قد وصلت موجة "الربيع العربي" إلينا إذن، وشرع المستنقع السياسي السوري بالتّصدّع أيضاً. إنّه التغيير الذي انتظرته وحلمت به منذ عقود، وكنتُ على أتمِ استعداد للانخراط في مجرى الأحداث التي ستعصف ببلدي، في محاولة لعمل شيء ما بغية الحدِّ من التداعيات السلبية التي سترافق تلك التطورات التاريخية المعقّدة وغير العكوسة!

---

[٣٠] المصاب بمرض التوحُّد Autism؛ طيف من الأعراض السلوكية تجمع بينها العزلة، علاوة على مشاكل تتعلق بالتواصل والمهارات الاجتماعية.

دفعت الاحتجاجات التي نشبت في المحيط الإقليمي السوريينَ لاجتراح مغامرة الحرية المغمّسة بالدم، ذلك على خلفية كمّ الأفواه على امتداد عقود في نظام الحزب الواحد والقائد الأوحد، وما نجم عنه من ظلمٍ وغبنٍ واستتقاع سياسي، وها هي الشرارة قد قدحت.

من جهة، عبّرت عن مشاعري هذه بالابتهاج وفيضٍ من الحركة، ومن جهة أخرى، آلمتني تلك البداية التي سقط فيها ضحايا، كمؤشرٍ على المنحى الخطير الذي ستتّخذه الأحداث. وفي كلّ الأحوال، مثّلت تلك اللحظة انعطافةً في تاريخ سوريا الحديث.

ارتبط بدء التظاهرات في درعا بالاحتجاج على اعتقال أطفالٍ كانوا قد كتبوا على جدران مدرستهم شعاراتٍ مناهضة للنظام[٣١]، لكن ذلك لم يكن سوى "القشة التي قصمت ظهر البعير"، ويشبه إرجاع سبب الاحتلال الفرنسي للجزائر في القرن التاسع عشر إلى ضرب "الداي" الجزائري السفيرَ الفرنسي بكشاشة الذباب[٣٢]!

قبل ذلك بشهر قامت أول مظاهرة عفوية في منطقة الحريقة التجارية بوسط دمشق، ردّاً على اعتداء الشرطة على أحد المواطنين، ورفع فيها شعار "الشعب السوري ما بينذل!"[٣٣] كما أقيمت بعض مسائيات التضامن مع أحداث "الربيع العربي"[٣٤]، وتظاهر ناشطون في دمشق القديمة[٣٥]، كما اعتصم بعض المثقفين والسياسيين أمام مبنى وزارة الداخلية[٣٦] من أجل إطلاق سراح المعتقلين.

***

صار يوم الجمعة موعداً لبدء التظاهرات انطلاقاً من الجوامع ومحيطها، في استغلالٍ للمكان الوحيد الذي كان بوسع الناس التجمُّع فيه، والذي لم تتجرأ أيّة سلطة على حظره في هذا الشرق؛ فالدين هو جناح السلطة الثاني الذي تطير به للإمساك برقبة المجتمع، تحتمي به ويحتمي بها، يمهّد السبيل لحكمها ويقتات على موائدها. مع ذلك، لكلّ توازن هفوات اختلاله، ليُستعاد من حين لآخر.

---

[٣١] في ٢٠١١/٢/٢٦.

[٣٢] ضرب الداي الجزائري حسين السفيرَ الفرنسي بكشاشة الذباب في أثناء مشادة كلامية بينهما. اعتبرت فرنسا تلك الإهانة حجة لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠، وبالطبع كان أمر الاحتلال مقرراً سلفاً كسياسة استعمارية.

[٣٣] ٢٠١١/٢/١٧.

[٣٤] في ٣ شباط/ فبراير نظم اعتصام ليلي بالشموع للتضامن مع الثورة المصرية، وآخر في حي باب توما. وفي ٢٢ و ٢٣ شباط تم تنظيم اعتصام أمام السفارة الليبية للتضامن مع الثورة في هذا البلد.

[٣٥] ٢٠١١/٣/١٥.

[٣٦] ٢٠١١/٣/١٦.

خلال عدة أسابيع، تحوّل شعار "الله.. سوريا.. حرية وبس" إلى شعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، وانتشرت المظاهرات في محافظاتٍ وبلداتٍ عدة، مستثنيةً مركزي عاصمتي الشمال والجنوب، حلبَ ودمشق. لامست المطالب، التي حملها وجهاء درعا في لقائهم مع الرئيس بشار الأسد في الحادي والعشرين من الشهر ذاته، الهم السياسي فقط، وكان جلها مطالب خدمية، علاوة على المطالبة بمعاقبة المسؤولين عن الأحداث الأخيرة[٣٧]، لكنّ مطالب أهالي دوما تضمّنت عناوين سياسية أكثر وضوحاً[٣٨].

***

عدت إلى منزلي في مدينة اللاذقية، يحدوني أملٌ كبير في بزوغ شمس الحرية. راقبت التغيّرات التي صار بالإمكان ملاحظتها وتتبُّعها على الوجوه كانعكاسٍ لحالاتٍ انفعالية متباينة بدأت تعصف بالنفوس أيضاً، مثلما يحدث في أثناء التحولات التاريخية الكبيرة؛ فإذا كان مجرد تغيير بسيط في شكل ومظهر شخص ما يدخل السعادة أو التعاسة إلى قلبه، فكيف لا يفرح مَن يستنشق هواء الحرية والعدالة، ويحلم أن يصبح شريكاً في وطن كان مجرد سجن كبير بالنسبة

---

[٣٧] تضمنت مطالب أهل درعا على وجه التقريب:

١. الاعتذار من الشهداء وذويهم، حيث أبرزت وسائل الإعلام المحلية وبعض المنتفعين، الإهانة التي وجهت إليهم (الشهداء وذويهم) وإلى أبناء درعا واعتبارهم مندسين ومخربين، ولم يشهد تاريخ محافظة درعا سوى طليعة الوطنيين في القطر رغم ما لحق بها من حيف وطمس لدورها الوطني.
٢. محاسبة من أطلق الرصاص الحي على المتظاهرين، أو من أمر بإطلاق الرصاص، ومحاسبة من كان سبباً في قتل الشباب أو جرحهم أو خنقهم بكثافة الغازات المسيلة للدموع، ومن كان السبب في طمس مطالب الشباب بمحاربة الفساد والتسلط وتحسين الواقع المعيشي .
٣. عدم ملاحقة المصابين أو ذويهم .
٤. عدم اعتقال أي شخص خرج في المظاهرات السلمية يومي الجمعة والسبت حتى تحقيق المطالب.
٥. الإفراج الفوري عن أي شخص تم اعتقاله إثر التظاهرات.
٦. الإفراج عن المعتقلين السياسيين قديماً وحديثاً.
٧. الإفراج عن طلاب الجامعة الذين تم اعتقالهم منذ فترة قريبة.
٨. إلغاء قانون الطوارئ المقيد للحريات العامة.
٩. إلغاء الموافقات الأمنية التي تقيد حركة البيع والشراء للأراضي والشقق السكنية والنشاط الاقتصادي العادي مهما كان.
١٠. تخفيض الضرائب والرسوم التي أثقلت كاهل المواطن.
١١. تخفيض أسعار المحروقات والأغذية.
١٢. اتخاذ الإجراءات المشددة لمكافحة الفساد الإداري والمالي وهدر الأموال العامة في مؤسسات الدولة، من أعلى مستوى حتى أدناه بما فيها سلكا القضاء والشرطة.
١٣. إعادة المدرسات المنقبات إلى التدريس في مدارسهن واحترام الحرية الشخصية، مثلما تعلم السافرات في المدارس، ولا يعترض عليهن أحد في إطار الحرية الشخصية.
١٤. السماح بعودة المهجرين المطلوبين إلى سورية.
١٥. إلغاء القانون رقم ٦٠ لعام ١٩٧٩ وتعديلاته بالقانون رقم ٢٦ لعام ٢٠٠٠ المطبق في مدن مراكز المحافظات وينزع ملكية المالك بهدف التمليك للغير، وهو قانون جائر لا يقبل به أحد سوى المنظرين من خلف الطاولات، فمن يريد إنشاء مشاريع إسكان فعليه أن يشتري الأرض اللازمة بالسعر الرائج مثل أي مواطن.
١٦. إعادة النظر في أسعار الأراضي التي يطبق عليها التوزيع الإجباري مؤخراً والجائرة بحق المواطنين.
١٧. نقل كراج البولمان لمحافظة درعا من كراج السومرية إلى المكان المقرر في المدخل الجنوبي لدمشق.
١٨. معالجة محلات سوق الشهداء التابعة لمؤسسة الخط الحديدي الحجازي.
١٩. تثبيت العاملين المؤقتين في دوائر الشؤون الاجتماعية
٢٠. http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=78555#ixzz3IVcHRFxB

[٣٨] أهم هذه المطالب: ١- رفع حالة الطوارئ عن البلاد، ٢- حرية الأحزاب، ٣ -الإفراج عن معتقلي الرأي والمعتقلين السياسيين، ٤- محاسبة القتلة في الأحداث التي شهدتها مدينة دوما مؤخراً.

له؟ وكيف لا يخاف من التغيير من اعتاد العيش في العتمة، واضطر لمواجهة النور على حين فجأة.

في ذلك الحين، كان قد مضى حوالي عام على فصلي من جامعة القلمون الخاصة بكتاب سري من مكتب الأمن القومي[٣٩]. كنتُ قد انتقلت للتّدريس في هذه الجامعة بعد أن تم صرفي من وظيفتي في كلية الطب بجامعة تشرين في اللاذقية عام ٢٠٠٦[٤٠]، في ختام مرحلة شاقة من المخاوف والاستدعاءات "الأمنية"، التي لم تتوقف يوماً ككابوس لا شفاء منه وقدر لا فكاك من سطوته.

ومع أن المقالات التي كتبتها في على النت، نُشر القليل منها في الصحف، والتعبير عن رأيي بصورة واضحة في أكثر من مناسبة وموقف، كانت السبب الأساس لفصلي من عملي في الجامعة، العمل الذي أحببته وكرَّست له جلّ جهدي ووقتي، فإنَّ التوقيع على إعلان بيروت دمشق في ١٢ أيار/ مايو ٢٠٠٦ كان السبب المباشر[i] لهذا الفصل، وذلك من بين ١٧ موظفاً حكومياً وقّعوا على هذا الإعلان أو تضامنوا مع الموقعين، وكنت من بين الموقعين[٤١].

بين التّرهيب والتّرغيب

في خريف عام ٢٠٠٣، وفي أثناء استدعائي إلى فرع أمن الدولة في مدينة اللاذقية، قال الضابط المحقِّق[٤٢] ساخراً:

– كم عددكم في مدينة اللاذقية، خمسون معارضاً؟ بوسعي اعتقالكم في نصف ساعة!

– لا شكّ أنّ بوسعكم القيام بذلك، فأماكن إقامتنا معروفة لديكم، لكن ما الفائدة من ذلك في نهاية المطاف؟

– أنتم تشكلون أصواتاً خارجة عن السرب، ولا أمل في أن تحققوا شيئاً.. نحن نخاف فقط من الاضطرابات الأهلية التي يمكن أن تحدث في المجتمع.

---

[٣٩] القرار ٩٢٣/٥/أ ق، تاريخ ٢٠١٠/٧/٧ الموقع من قبل رئيس الأمن القومي اللواء هشام اختيار.

[٤٠] قرار رئيس مجلس الوزراء ناجي العطري رقم " 2746" بتاريخ ١٤-٦-٢٠٠٦.

[٤١] http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=10066&article=369169&feature=#.VN3OlCySKSo

[٤٢] النقيب غ. العـ.

– وهل قمع الرأي الآخر والأصوات الوطنية يمكن أن يساعدكم في ذلك؟ أم أنه سيلغي أي أملٍ في التعبير عن الرأي، ويعزز من حدوث الاحتقان الاجتماعي الذي تخافون منه؟

– الأمر تحت السيطرة دكتور.

– ......

– من تدافع عنهم هم أناس متخلِّفون ولن يفهموك، ولا يمكن التعامل معهم بالديمقراطية. أنا من مدينة الباب شمال حلب، وستحدث مظاهرة لو ذهبت امرأة إلى هناك غير محجّبة أو ترتدي فستاناً قصيراً.

– ....

– عموماً، لقد أجرينا دراسةً عنك لعدة أشهر؛ يبدو أنك تتمتع بسمعة طيبة وغير معروف عنك أي انخراطٍ في حالة فساد[٤٣] ولا أية ارتباطات خارجية أو حزبية. نحن نمدّ أيدينا للتعاون معك.. لكن، قل لي (تحول مزاج المحقق إلى ضربٍ من المُزاح)، أليس لديك نقطة ضعف في حياتك؟ ألا تحبّ النساء؟

– أحبّهنّ بالطبع. قلت مبتسماً، لكن أخشى أن لا يكون الأمر بالطريقة التي تفكِّر بها!

صمت الضابط قليلاً، ويبدو أنه تجاوز ملاحظتي القاسية، ثم أردف:

– هل تقبل دعوتي للعشاء في أحد المطاعم المحترمة؟

– آسف، لا أذهب إلى هذه الأماكن لأسبابي الخاصة، منها أنّ دخلي المتواضع لا يسمح بارتيادها، كما أنّه من غير الممكن الوصول إلى مثل هذه العلاقة بيننا.

– ما المانع دكتور إن كنتُ أدعوك وأمدُّ لك يد الصداقة؟

– أولاً، نحن نعمل في مؤسستين لا تقاطع مباشراً في عملهما، وثانياً، وهو الأهم، لا يمكن أن أقيم معك علاقة شخصية حتى لو كنت أرغب في صداقتك، فكونك ضابط مخابرات تنتمي إلى أجهزة تضع نفسها فوق القانون، ولها تلك السمعة التي تعرفها، ويتعامل الآخرون معها من خلال الخوف والنفاق، فإنّ "تعاوني" معكم يجعل مني تابعاً لا متعاوناً، ويطيح بسمعتي واحترامي لذاتي، ولا شيء يحول دون صداقتنا، بالطبع، حين نصبح في دولة تتمتّع فيها المؤسسات باستقلاليتها تحت سقف القانون.

---

[٤٣] هذا نوع من المجاملة السمجة إن صح التعبير؛ فالأجهزة الأمنية هي حارسة الفساد ومديرته، وهي من يفسد ويدين بالفساد في الوقت ذاته، إذ يكفي الخوف اللاعقلاني للناس من سلطتها حتى يغتني مسؤولوها بعد تحويل الخوف إلى نقود في سوق الصيرفة السورية العجيبة! تمسك الأجهزة الأمنية بملفات الجميع حتى تتمكّن من إخضاعهم واحداً تلو الآخر متى تطلّب الأمر ذلك. ووفقاً لرأي الدكتور طيب تيزيني حول السياسة غير المعلنة للأجهزة الأمنية، فإن الدولة الأمنية تعمل على "إفساد من لم يُفسد بعد، بحيث يصبح الجميع ملوثين وتحت الطلب."

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?t=0&aid=296079#sthash.iRhrqaof.dpuf

– برأيي، أنّ أي إنسان يريد لرغباته أن تتحقَّق ولكن بثمن مناسب [٤٤].

فهمت قصده، وأجبته بطريقة دبلوماسية، كاستجابة لتعامله المهذَّب في المهمّة المكلَّف بها:

– لكلّ نظرية استثناءاتها على ما يبدو، ألم تصادفوا مَن لا يريد أن يبيع نفسه بأي ثمن؟

– نعرف أنّ ثمنك غالٍ يا دكتور ونحن جاهزون لدفعه، وسيكون بوسعك تحقيق كل ما تصبو إليه، و"أمن الدولة[٤٥]" كلُّه على استعداد تام لدعمك في الجامعة وفي أي مكان.

تنهَّد المحقق بعد تقديم عروضه، والتفت نحوي منتشياً: "أمن الدولة كلُّه وراءك، لا تتردّد في طلب المساعدة عند التعرُّض لأية مشكلة"، وقدم إليَّ بطاقةً تحمل اسمه وهاتفه الخليوي.

لم أكن قد اقتنيت هاتفاً من هذا النوع بعدُ، الأمر الذي أثار استغراب المحقق!

انتهى حديثنا عند هذه النقطة، خرجت غير مصدِّق أنّ الأمور جرت على هذا النحو، فثمة بعض الوقت لأرتاح من ضغوط أشهرٍ عدّة عشتها بترقّبٍ وخوف، وبوسعي، ولو مؤقتاً، العيش مع المقربين منّي كإنسان شبه طبيعي قبل أن يعاودني القلق في الأيام الآتية، مجرّد فسحة ضيقة بين تلك السحب المكفهرّة في سمائي، ولا ريح تكنسها بعيداً، فإلى أين المفرّ؟ لقد انكشفتُ، ولم يعد التواري ممكناً.

من طريقة استقبالي واستدعائي كان من الواضح أنّ ثمة محاولة لاستيعابي كما فعلوا مع آخرين، ومن خلال المزج بين الترهيب والترغيب. في غضون عدة أشهر، اتصل الضابط أكثر من مرة لتهنئتي في مناسبات وأعياد، ولم أتصل به البتة. بعد أن فشلوا في اصطيادي بوساطة "الجزرة الدسمة"، سيكون لـ "العصا الغليظة" الكلمة الفصل في المرحلة القادمة.

مسوِّقو سياسات النظام

وضع الاتصال الذي طُلب منّي بموجبه الحضور إلى فرع أمن الدولة في اللاذقية حداً لانتظار مضنٍ، ووددت مواجهة ما يخيفني مهما كانت النتائج، حتى لو وصل الأمر إلى حدّ الاعتقال، وذلك كوسيلةٍ للتخلص من الرعب الذي شلَّني؛ كنت كطفل ينتظر عقاباً من أبٍ قاسٍ ليتخلص من انتظارٍ قلق!

---

[٤٤] قدّم الضابط عروضاً مغرية، منها ما يتعلق بمساعدتي في الوصول إلى المناصب الجامعية، وإنشاء معهد للدراسات برئاستي وبمرتَّبٍ يبلغ ٢٠٠٠٠ ليرة سورية شهرياً (ضعف مرتّبي الشهري في تلك الأثناء)، علاوة على تزويدي بأخبار قابلة للبيع لوكالات الأنباء.

[٤٥] المخابرات العامة.

قبل أربعة أشهر من استدعائي، كنت قد تجادلت بحدّة مع أحد الإعلاميين اللبنانيين المجنَّدين لتسويق سياسات النظام، وقد جاؤوا به في صيف عام ٢٠٠٣ لـ "يُحاضِر" في جامعة تشرين وغيرها، بعد أن صار الأمريكي المدجج بالسلاح على حدودنا الشرقية[٤٦]؛ لربما كانوا يريدون اختبار نخبهم والتأكُّد من طاعتها وخوفها. ومع أنّ هذه الحادثة كانت السبب الرئيس لاستدعائي، فإنّ المحقِّق لم يُشر إليها البتّة، لا بل أنّه، وفي معرض استدراجي للتعاون معهم، أشاد بي، وقال أنّهم يحترمون شجاعتي في التعبير عن رأيي!

لم يكن ما تفوَّه به (ن. ق.) محاضرةً بالطبع، بل ضرباً من "اللغولوجيا[٤٧]" الإنشائية التي تحتقر وتسفِّه ما تبقّى من الكرامة السورية، إذ يؤتى بمثل هؤلاء المأجورين لاستغلال طلاقة ألسنتهم في تأليه رموز السلطة وتمجيدهم، فوجدت نفسي مضطراً لمواجهة عنجهيته، حفاظاً على كرامتي على الأقل، بيد أنّ الرجل، بالنسبة لهم، ليس كأيٍّ كان!

قلت في التعليق على "المحاضرة" أنّ ما يتفوّه به هذا الإعلامي هو تلك "الثقافة" الممجوجة التي سادت عندنا لعقود وصدّرناها إلى لبنان، فعادت إلينا عن طريق أمثاله كبضاعة أعيد إنتاجها، محاولاً بهذه الطريقة الساخرة التخفيف من وقع انتقاداتي، ولم ينفعني ذلك في شيء!

كان ردُّه، مدعّماً بردود جوقةٍ من البعثيين الطامحين لتقلُّد المناصب الجامعية، يتلخص بجملة واحدة: "لا يجوز أن يوجد مثل هذا الدكتور في جامعات حافظ الأسد![٤٨]"، بما حمله ذلك من تحريضٍ واضحٍ على إلغائي.

أخيراً، خرجت من القاعة حتى لا أضطر لمواجهة الهجوم المنفلت عليّ من أبواقٍ امتهنت التعبير عن رأيها بهذه الطريقة، ربما بسبب حرمانها من حرية التعبير الحقيقية، وأيضاً من أجل التخفيف من ردّ فعلي على الاستفزاز، الذي ما انفكّ يتصاعد في القاعة، فوعدت "المحاضر" بالردّ عليه في مقالٍ، وفعلت[ii].

ما إن صرت في البهو حتّى أدركت مدى صعوبة موقفي. لعنت الزميل الذي حثَّني على مرافقته إلى ذلك المكان، وقد تحوّلت الشجاعة التي أبديتها في الداخل إلى قشعريرة اجتاحتني، وما كان حلماً مزعجاً عشته لسنوات تحوّل إلى كابوس لن ينتهي قبل أن يترك أثراً لا يُمحى على حياتي وحياة أسرتي.

---

[٤٦] في العراق.

[٤٧] علم اللغو، مصطلح من عندياتي، ولا قيمة اصطلاحية له خارج هذا السياق الساخر.

[٤٨] التعبير الفاقع عن العبودية والانتهازية التي يعيشها هؤلاء طوعاً أو نفاقاً، وإخلاصهم لمالكي المزرعة التي صارتها سوريا!

خرجت من باب الجامعة في غبش الغسق، مشيت تحت رذاذ المطر المنهمر على إسفلت الشارع، شعرت بحاجةٍ إلى الطيران، واستبدلته بالممكن؛ الركض. ركضت وركضت، اختلطت قطرات المطر بحبيبات العرق على جبهتي، انتقيت طريقاً متعرجةً للوصول إلى البيت، مخافة أن يكون أحدهم في إثري. تمنيت حينئذٍ ألاّ أكون قد تزوَّجت، فكيف أواجه زوجتي وأخفي عنها ما حصل، وهي حامل في شهرها الثامن؟ رغم قناعتي أنها ستقف بجانبي ولن تتركني وحيداً.

صارت سحنتي بمثل سحنة الموت، انتشر الخدر في ساقيّ فيما كنت أتسلَّق درج البناء إلى الطابق السادس، وتنفّست بعمق عدة مرات قبل أن أضغط على مفتاح الجرس الكهربائي.

لم تمضِ بضعة أيام حتى عاجلت زوجتي الولادة، ففهمت كم عانت في داخلها من دون أن تُظهر لي شيئاً. في ذلك الحين، انتابني شعور غامض بالتحرُّر من أمرٍ أثقلني، ولم أعد "عبداً مخصياً" في مزرعة الاستبداد؛ صرتُ رجلاً بالمعنى الاجتماعي للكلمة، ولا يهمّني ما سيحصل لاحقاً!

حين ذهبت إلى عملي في اليوم التالي، كان الخبر قد انتشر في الجامعة. حاولت التظاهر باللامبالاة، متمسكاً بقوة الحرية في داخلي، فالتراجع يعني الإهانة، وهذا لن يحصل أبداً بعد أن استعدتُ بعض كرامتي.

***

لم تكن الأجهزة الأمنية غائبة عن الاجتماع بالطبع، فقد احتلّ ممثلوها المقاعد الأمامية في أثناء "المحاضرة" المشؤومة، التي انتهت عملياً فور خروجي، ولم يبقَ سوى أولئك الذين أحاطوا بالمحاضر لمواساته، ووجدوها مناسبة للتذلُّل وإبداء الولاء، مستنكرين "إهانتي" للضيف، ومقترحين أشدّ العقوبات بحقّي.

اجتمع عناصر الأمن مع قيادة فرع الحزب الحاكم في الجامعة مساء اليوم نفسه ليتشاوروا في أمري، كما استلموا نسخاً من أشرطة التسجيل المتعلقة بمجريات المحاضرة، ومضوا بغنيمتهم غير المنتظرة ليضعوها في صباح اليوم التالي فوق مكاتب رؤسائهم.

كان أمين فرع الحزب في تلك الفترة من أولئك الذين امتلكوا بعض الشهامة الفطرية، وقد فرضته قوى من خارج الجامعة، وبالتالي فإنّ بوسعه، على الأقل، أن يحتفظ بماء وجهه، وينأى بنفسه عن جوقة المواقف المسعورة، فأسكت الانتهازيين الذين تشبّثوا بمقاعدهم من حوله:

– كفى! الأمر في عهدة "الأمن"، والأدلّة موجودة في التسجيلات.

ارتاح هؤلاء الوصوليون بعد أن اطمأنّوا إلى أنّ الأمور تسير في الاتجاه المطلوب، وصار بوسعهم الاسترخاء وقتاً أطول في مكتب أمين الفرع؛ ليفرغوا ما في نفوسهم من تزلُّف ودونية، قبل أن يخرجوا من مكتب أمين الفرع و"أذيالهم بين أرجلهم."

***

كم ندمت على حضوري تلك المهزلة، من دون أن أندم على موقفي حين اقتضى الأمر إبداء الرأي بوضوح. ومرّت الليالي الطويلة التي داهمني فيها الأرق بانتظار سماع مكالمة هاتفية أو طرقات زوار الفجر على الباب. في تلك الفترة، بدأت أتخلى عن جبني وخوفي على مراحل، كضرب من شجاعة الضرورة، فقد طفح الكيل، وصار الصبر هواناً.

قبل ذلك بأشهر كنت قد نشرت مقالاً مطولاً عن التعليم العالي ومشاكله في جريدة تشرين السورية[٤٩]، أوضحت فيه بعضاً من معيقات تطوير التدريس والمناهج في الجامعات الحكومية، منها هيمنة حزب البعث، علاوة على ما كابدته من مظالم بعد عشر سنوات من محاولة التكيُّف الصعبة مع ظروف العمل، والتي احتملت فيها تسلُّط الفاسدين والمتحكِّمين من خلال ممارسة التقيّة، إلى أن "انفجرتُ" كما سينفجر الكثير من المظلومون في سوريا لاحقاً.

الفصل الثاني

ألاعيب الاستبداد[٥٠]

[٤٩] "التعليم الجامعي في سوريا.. آمال وآلام". نُشر المقال في مواقع عدة، منها هذا الموقع، بعد نشره لأول مرة في جريدة تشرين السورية. .http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=15106#sthash.ALa1ENSO.dpuf

[٥٠] "العوام هم قوَّة المستبد وقُوتُهُ، بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم فيثنون على رفعته؛ ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف في أموالهم، يقولون كريماً؛ وإذا قتل منهم ولم يمثِّل، يعتبرونه رحيماً؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة."

تعمل أنظمة الاستبداد على التلاعب بعواطف الجماهير[٥١] وحشدها وراء شعاراتٍ جوفاء، قوميةً أو وطنية أو دينية، بعيداً عن مصالحها الملموسة، والدفع بها في مساراتٍ تُبعد الأنظار عن جوهر الاستغلال والفساد المرتبطين بالاستبداد على نحو وثيق، فتتصادم مصالحها بصورةٍ مضبوطة تحت سقف الخوف المرتبط بغريزة البقاء، وهو "سقف الوطن" أو "مصالح الأمة"، تبعاً للإعلام الدعائي.

تتكشف أوهام الاستبداد وأكاذيبه في أثناء التحولات التاريخية المفاجئة التي تعقب وضعاً مستقراً بالإكراه أو بحكم بالعادة، فتنفجر التناقضات الاجتماعية على اختلافها، وتحصل مختلف أشكال الصراعات الأهلية التي لا تضبطها أية قوانين، فتُمارس الوحشية وتُقتسم المخاوف، في الوقت الذي تتراجع فيه الجماهير إلى بناها الاجتماعية القبْلية، ملاذها الوحيد في مثل هذه الظروف.

منذ بداية الحدث السوري، أغلق النظام السوري باب الحلول السياسية ذات الجدوى[٥٢]، وقرَّر استعمال فائض القوة الهائل ضد المنتفضين، فضلاً عن استخدام دعاية إعلامية مكثّفة لإبراز قوى التطرُّف التي عزّزها القمع، والتي صارت تتعزّز أكثر كلما أُوغل النظام في انتهاج سياسة الحلّ الأمني.

ساعد النظام في ذلك غياب معارضة فاعلة بعد أن تمّ سحقها خلال عقود، وبالتالي عدم وجود قيادة وطنية فاعلة لتشكِّل غطاءً سياسياً لمجريات عملية التغيير، فلعبت بالثورة الأهواء والدول والفضائيات وشذَّاذ الآفاق. لاحقاً، عمل التدخُّل الخارجي، المتمثل بالجهات المسيسة للدين، مثل بعض أنظمة الخليج وإيران وما يرتبط بها من أحزاب وجمعيات دعوية وأهلية، على إذكاء نار الصراع وإضفاء الصبغة المذهبية عليه.

مساء ٢٤ آذار/ مارس ٢٠١١، عقدت مستشارة الرئيس بثينة شعبان مؤتمراً صحفياً[٥٣] وعدت فيه، استناداً لاجتماعٍ عقدته القيادة القطرية لحزب البعث، بإجراء حزمةٍ من الإصلاحات على المستويين الخدمي والسياسي، وأشارت إلى وجود مؤامرة طائفية، ونفت أن تكون عناصر

من كتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤- ١٩٠٢)، أحد رواد النهضة العربية ومفكريها في القرن التاسع عشر.

[٥١] الجماهير هي المعادل البشري للقطيع في عالم الحيوان؛ لا جماهير من دون مستبدّين ولا مستبدّين من دون جماهير تخضع لهم، كرهاً أو طوعاً.

[٥٢] أولها تحديد صلاحية الأجهزة الأمنية وإعادة هيكلتها في جهاز أمن وطني.

[٥٣] www.elaph.com/Web/news/**2011**/3/642080.html

من حزب الله قد شاركت في قمع التظاهرات في درعا، حسب ما نقلته بعض وسائل الإعلام، نقلاً عن ناشطين.

كان حديث بعض وسائل الإعلام حول مشاركة إيران أو حزب الله منذ الأيام الأولى ضرباً من الحماقة، ويهدف لاستدراج ردود أفعال إقليمية، مثله أيضاً حديث ممثلي النظام عن إقامة إمارات إسلامية في سوريا؛ كلاهما كانا يكذبان وقتئذٍ، لكنّهما يتمنيان حصول ما يتحدثان عنه أكثر ممّا يخافانه. في نهاية المطاف، جاء الجهاديون إلى سوريا بمباركة من معظم "أنصار الثورة"، ودخلت قوات حزب الله لتقاتل إلى جانب النظام!

في مساء اليوم التالي، الجمعة ٢٥ آذار/ مارس ٢٠١١، تمّت إثارة المخاوف بطريقة مُمنهجة في أحياء مدينة اللاذقية ذات الانتماءات الطائفية المتباينة، كأنّ ثمة تأكيداً على ما أثارته مستشارة الرئيس قبل يوم واحد!

قُبيل غروب شمس ذلك اليوم، قدتُ سيارتي لأُقلَّ صديقاً إلى محطة انطلاق البولمانات. في حي "قنينص" المجاور، تفاجأنا بمجموعة من الشباب يتقدّمون إلى حدود حيّنا. كان بحوزتهم هراوات خشبية وفي عيونهم خوف ودهشة. توقفت في منتصف الشارع مذهولاً، استدرتُ وقدتُ سيارتي عبر طريقٍ آخر. كانت الشوارع شبه خالية، وثمة دخان كثيف ينبعث من الدواليب المطاطية التي أضرم المتظاهرون النار فيها في حيّ "السكنتوري".

في طريق عودتي إلى البيت رأيت بعض المسلحين الموالين للنظام بجانب مساكنهم العسكرية، وكانت نفس نظرات الخوف والدهشة على وجوههم! هل ستتحول الأحداث بهذه السرعة إلى حرب أهلية؟ ما الذي حدث حتى تضطرب الحياة بهذه الصورة؟ كيف لأُناسٍ تعايشوا منذ عقود أن يصلوا إلى هذه الحال من الريبة والخوف خلال أيام قليلة؟ ومن هو "المايسترو" الذي فعل ذلك على وجه السرعة؟

ركنتُ سيارتي قرب البناء الذي أقطن فيه، وذهبت أستطلع الأمر في حيّين متبايني الانتماء الطائفي. سأكذب إن قلت بأنّي لم أكن خائفاً، إنّما لم أسمح للخوف أن يقف حائلاً دون استطلاعي لهذه الظاهرة الجديدة والغريبة، التي بدت، بالنسبة لي، خارج إطار المعقول أو الممكن. فهمت من الذين استطاعوا الكلام بأنّ ثمة سيارة تجوب الأحياء لهذا الغرض، ويقوم من فيها بشتم مقدسات السكان وتخويفهم. كما تتالت الإشاعات "الارتدادية" عن وجود مندسين ومسلحين يتسلّلون إلى داخل الأحياء الموالية بهدف ترويع الناس، ولم يكن ذلك صحيحاً، إلا بوصفه أمراً مدبَّراً[٥٤].

---

[٥٤] في هذا الصدد، جرى القبض على بعض الصبية، ثم أطلق سراحهم في مسرحيات غير متقنة الإخراج، وكان هؤلاء يطلبون فور القبض عليهم تسليمم إلى أجهزة الأمن!

مِن الواضح أن الأمر يتعلق بنشر إشاعات مقصودة لاستكشاف مزاج الناس ودبّ الذعر في نفوسهم، كما حدث في أواسط تسعينات القرن العشرين، حين سرت إشاعة حول حدوث زلزال في ليلة معينة، فنام جميع الناس في الحدائق والشوارع! لكنّ الإشاعة هذه المرة تتعلق بأشد القضايا فتنةً! وسيتعقّد المشهد أكثر مع تدخّل بعض رجال الدين المهووسين لمغازلة الشارع طائفياً[٥٥].

حمص في الأسابيع الأولى للانتفاضة

لعلّ صورة الأحداث في مدينة حمص تلقي الضوء على الأسلوب الذي تم اتباعه في "معالجة" المشكلة، وبالطريقة ذاتها كما في اللاذقية. وسيبقى ما حصل في هذه الفترة موضوع تحليلات واستقراءات ما لم يتم نشر أرشيف الأجهزة الأمنية، أو الحصول على شهادات موثقة لأفراد منها شاركوا في أحداث تلك المرحلة.

كنتُ قد طلبت من أحد معارفي في حمص أن ينقل صورة الأحداث في تلك الفترة بأمانة وموضوعية قدر الإمكان، وجاء في رسائله:

"يوم الجمعة، ٢٥ آذار/ مارس ٢٠١١، بعد تظاهرات قليلة العدد في الجمعة السابقة، قُوبلت بالقمع، خرجت تظاهرات من عدة جوامع ونجحت في الوصول إلى ساحة الساعة، ثم انضم إليها العديد من الشبان والشابات من مختلف أحياء حمص. كانت الشعارات راقيةً ووطنية، وكان صوت إسقاط النظام خافتاً. قام بعض المراهقين بأعمال تخريبية، وحصل اشتباك بين البدو والشيعة في قرية الوعر أسفر عن جرح ستة أشخاص من الطرفين[٥٦]. بدأت مسرحية المندسين، الذين يعبرون أحياء الأقليات ويتعرّضون للضرب من قبل "اللجان الشعبية"، وهم يتوسَّلون تسليمهم للأمن[٥٧].

"اعتدت اللجان الشعبية على كثير من العابرين غير المندسين، وحدث إطلاق نار تخويفي من بيوت رجال الأمن وسكان حيّنا ذي الطابع الأقلّوي، كما استمر الحديث عن

---

[٥٥] خطبة الجمعة للشيخ القرضاوي في ٢٠١١/٣/٢٥. https://www.youtube.com/watch?v=u8FfSd6Zh9E

[٥٦] في اليوم التالي ٢٠١١/٣/٢٦ قُتل العامل عادل فندي في نادي صف ضباط حمص من قبل المتظاهرين، وبلا مبرّر. أغفل الراوي هذه الحادثة المبكرة.

[٥٧] تماماً كما حدث في اللاذقية (الكاتب).

المندسين الذين ينوون مهاجمة هذه الأحياء، وسرت إشاعات مرعبة في المدينة طوال الأسبوع، ثم توقّفت بعد مسيرات التأييد[٥٨]!

"في يومي الجمعة ١ و ٨ نيسان/ أبريل، بعد إشارات الخطاب[٥٩]، لم أنزل إلى الشارع لأرى بنفسي، لكنّي تأكدت، من عدة مصادر، بأنّ جوامع الأحياء الغنية والمتوسطة لم يخرج منها أحد، فيما اندلعت التظاهرات في أحياء الخالدية وعشيرة وبابا عمرو، وهي أحياء فقيرة ومهملة. لم يمنع رجال الأمن بعض المتظاهرين من التخريب، بل منعوهم، بحزم، من الخروج خارج أحيائهم. فجأةً، ظهرت العصابات المسلحة وأطلقت النار على متظاهرين سلميين في حي الأرمن وعلى رجال الأمن. لم يوقفهم أحد[٦٠]، وأظنكم رأيتم إحدى هذه السيارات على التلفاز[٦١]. في هذا اليوم قتلت اللجان الشعبية بالخطأ ثلاثة ديريين[٦٢] كانوا في سيارة تنقل الخضار، وسقط قتلى وجرحى من المتظاهرين ورجال الأمن. كما قُتلت صبية في الخالدية على شرفة منزلها من قبل الأمن؛ لأنها كانت تصور إطلاق النار على المتظاهرين الذين كان بعضهم يخرِّب(؟). تم اعتقال العشرات، وساد التوتر في الأحياء الفقيرة المختلطة طائفياً، وسط تخريبٍ وإطلاق نار."

"يوم الثلاثاء ١٢ نيسان، تمت الدعوة للتظاهر، ولم يستجب أحد. الإشاعات الطائفية تملأ المدينة، ورجال الأمن يساهمون في نشرها. سكان المدينة اختبؤوا في بيوتهم منذ الثالثة عصراً."

"يوم الجمعة ١٥ نيسان، قامت مظاهرات سلمية حاشدة في كل الأحياء بدون أن تتعرض للقمع في البداية، لكنهم منعوا المتظاهرين من الوصول إلى ساحة الساعة وفرقوهم بعنف، من دون إطلاق نار. سقط أحد رجال الأمن شهيداً، وفي عزاء هذا الشاب العلوي، جاء رجل أمن وبدأ بشتم السُنَّة، فأسكته أخو الشهيد وردّ على شتيمته، محملاً "الأمن" المسؤولية. ارتياح عام من تراجع العنف، واختفاء العصابات والمندسين (كلهم اختفوا سويةً، سبحان الله!)."

"السبت ١٦ نيسان، مظاهرة مسائية في باب السباع تحاول التحول لاعتصام، فتقمع بشدة ويسقط ٧ شهداء والكثير من الجرحى والمعتقلين. بعد قمع المظاهرة مباشرة، يستنفر حيّنا (عكرمة) بسبب انتشار إشاعة بأن سنّة حي "باب السباع" سيهاجمونهم، فيخرج كل الشباب إلى الشوارع، وتوزع أجهزة الأمن السلاح على أغلب أبنية الحي. تبدأ العصابات المسلحة، وليس أهل

---

[٥٨] رغم ما يتمتع به النظام من قدرات، فقد كان هذا الشكل من الاحتجاج جديداً عليه، ولا شك أنه كان في قمة ارتباكه وخوفه في تلك الأيام، فكيف سيستعمل فائض قوته ضد شعبٍ أعزل إن لم يظهر حملة السلاح؟

[٥٩] يقصد الخطاب الأول للرئيس في ٣١ آذار/ مارس ٢٠١١.

[٦٠] حدث مثل ذلك في اللاذقية أيضاً (الكاتب).

[٦١] في ذلك إشارة إلى فيديو تم فيه عرض إحدى السيارات التي تطلق النار بطريقة عشوائية في أحد شوارع مدينة حمص.

[٦٢] من مدينة دير الزور.

باب السباع، بمهاجمة هذه الأحياء بسيارات منفردة تطلق النار عشوائياً، وتنصب إحداها كمينا للعميد عبدو خضر تلاوي وولديه وابن شقيقه وتقتله مع عائلته وتمثل بجثته"[٦٣]. أحد سائقي هذه السيارات يلتجئ إلى الإطفائية بسيارته المرشوشة بالرصاص ويطلب تسليمه للأمن وحمايته من اللجان الشعبية، وهذا ما حصل. الحصيلة ٨ من الشهداء العلويين يحظون بالتغطية الإعلامية والأوسمة في اليوم التالي، و٧ شهداء في مظاهرة باب السباع لا يذكرون أبداً في الإعلام الرسمي!"

"الأحد ١٧ نيسان، تشييع شهداء باب السباع يتحول إلى مظاهرة سلمية عارمة تقدر بعشرات الآلاف. المشايخ، الذين كانوا مع التهدئة، يتقدمون المظاهرات ويمنعون المتظاهرين من أي عملية تخريب، بما فيها مبنى الحزب. مسيحيو حيّ الحميدية يرشون المشيعين بالأرز، وينزل بعضهم إلى التشييع. يلتقي الجميع عند الساعة الجديدة ويبدؤون اعتصامهم السلمي، الذي لم يخرج منه أي شعار طائفي. رجال ونساء وأطفال من جميع الطوائف رغم الطابع السني الواضح، وانضم آخرون إلى الاعتصام من كل أرجاء المحافظة. عشرات الآلاف من المتظاهرين المنظمين والسلميين لم يكسروا حجراً في رصيف، ولم يمزقوا حتى صورة للرئيس."

"حوالي الساعة الثانية من صباح يوم الاثنين ١٨ نيسان، وكان قد بقي حوالي ألفي شخص في الساحة. قُرأ بيان وزارة الداخلية[٦٤] على المتظاهرين، المتضمن ضرورة إخلاء الساحة، ثم تلا ذلك إطلاق النار ما أدى إلى قتل وجرح العشرات. لم تستقبل المستشفيات الجرحى، وسيارات الإسعاف تسلمهم لفروع الأمن. الجوامع تدعو للانضمام إلى الاعتصام لمساعدة المعتصمين وتقديم الدم والأدوية، ويدعو بعضها للجهاد. كما أطلق بعض أهالي حيّنا النار والزغاريد احتفالاً بالنصر!"

"الاثنين ١٨ نيسان، المدينة مكلومة وحزينة، الأبنية المحيطة بالساعة عليها آثار كثيفة لطلقات نارية. أغلب جثث الشهداء محتجزة، ومُنع الناس من تشييع الشهيدين اللذين سَلِمت جثّتاهما من الاختطاف، إذ تم قمع المشيّعين وتفريقهم بعنفٍ شديد، ولست متأكداً إن كانا قد دُفنا أم لا. الشوارع فارغة تماماً، وزعران حيّنا أصبحوا سادة الحي، وربما البلاد!"

تُقدِّم هذه الرسائل بعض التفاصيل المتعلقة بما حدث في الأسابيع الأولى في مدينة حمص والمنحى الذي اتخذته الأحداث فيها، وهي تتقاطع بلا شك مع ما ورد في وسائل الإعلام بخطوطه العريضة. حصل السيناريو نفسه في مدينة اللاذقية المختلطة طائفياً أيضاً، لكنّ مسار

---

[٦٣] في الواقع، لا يوجد إثبات حول الجهة التي وقفت وراء هذه الجريمة حتى الآن.

[٦٤] اتهم البيان "مجموعات سلفية" بقيادة "تمرد مسلح" والعمل على إقامة "إمارات سلفية".

الأحداث انقطع فيها لاحقاً؛ بسبب السيطرة الأمنية. لم يحدث ذلك في مدينة حمص، ربما بسبب السلاح الذي تدفَّق عبر الحدود مع لبنان.

رسائل ذات دلالة

تابعتُ اندلاع انتفاضات "الربيع العربي" وكتبت عنها عدة مقالات[٦٥]، لكنَّ بدء الأحداث في سوريا ذاتها هزّ أعماقي؛ فالحدث في بيتك لا يترك نفس الأثر كما لو كان في بيت جارك. تباينت المواقف منذ اللحظة الأولى؛ بعض المثقفين انخرط في حركة الشارع مباشرةً أو من خلال الإعراب عن التأييد والتضامن، فيما وقف آخرون ضدّ التظاهرات وشكّكوا في محتواها السلمي، وفضَّل فريق ثالث الانتظار والوقوف على الحياد إلى أن يزول حاجز الخوف نهائياً أو يتضح مسار الأحداث.

رداً على كتاباتي الحماسية وصلتني في ١٩ نيسان/ ابريل ٢٠١١ رسالة[٦٦] من امرأة سورية جاء فيها:

"أستاذ منير، تحية طيبة، أتابع أخبارك وما تكتب على صفحتك، واسمح لي بالقول أنّ أغلبه يعجبني وليس كلّه. هذه التسريبات[٦٧] التي تحدثتم عنها أنت والدكتور برهان[٦٨] قد تكون من أساليب النظام التي يجب أن نتوقعها، مثلما قد توجد عناصر سلفية مندسّة بالفعل. أنا لا أنفي بالمطلق فكرة المؤامرة التي تتحفنا بها الفضائيات السورية؛ وأنت تعرف أنه لابد أن يكون هناك أعداء للنظام، وليس لسوريا فقط، همُّهم إسقاطه بأية طريقة ممكنة، وهذه الأوقات هي المثلى لتحقيق غرضهم، وأظن أنّك، والدكتور برهان، تستبعدان هذه الاحتمالات، لكن لماذا لا نفكِّر فيها؟"

"هل تظن أنّ ما نكتبه على صفحات التواصل الاجتماعي من الاستغاثات مثل: "سوريا تستغيث.. سوريا تحترق!"[٦٩] له أية قيمة عند الرأي العام العالمي؟ وهل أنت مقتنع أنّ أحداً في الخارج، شخص أو مجموعات أو دول أو حتى رأي عام عالمي، يهتم فعلاً لأرواحنا ولحياة

---

[٦٥] www.ahewar.org/m.asp?i=120

[٦٦] وصلت مثل هذه الرسائل على بريدي الخاص في موقع التواصل الاجتماعي- الفيسبوك.

[٦٧] المقصود هنا ما كان ينقله إعلام النظام عن وجود مسلّحين مندسين بين صفوف المتظاهرين في أثناء المظاهرات الأولى بدرعا.

[٦٨] الدكتور برهان غليون، الذي سيرأس ""المجلس الوطني" السوري" لاحقاً.

[٦٩] إشارة إلى عنوان مقالٍ كنت قد كتبته عند اندلاع تظاهرات درعا بعنوان: "الدم السوري يسيل وسوريا تستغيث". www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=252187

شبابنا؟ ألا تعلم أن كلّ الأطراف الخارجية لها مطامع في بلدنا، وهم، بصورة ما، مثل أولئك الذين نثور عليهم الآن في الداخل، أو حتى أسوأ!"

"... ألا تتفق معي أنّ الحلّ الوحيد حالياً هو التهدئة والانتظار؟ وإن لم يكن هذا رأيك، فبالله عليك اخبرني ما هي التطورات التي يمكن أن تحدث من زيادة الاعتصامات وزيادة عدد الشهداء؟ واسمح لي أيضاً أن أقول رأيي فيما يكتبه الدكتور برهان؛ أظن أنه تطرَّف كثيراً في التحريض، لقد أرسلت له الكثير من الرسائل، وقرأت رأياً مشابهاً لرأيي في كثير مما يكتبه أو يصرح به على شاشات الفضائيّات، لكنه لم يستجب. في الحقيقة، بدأت أعتبره محرِّضاً وحسب، وبدأ يفقد مصداقيته عندي. لم يكن هذا رأيه في بداية المظاهرات، وقد ذهب بعيداً باتجاه المزيد من التحريض!"

"برأيي، من في الخارج، مهما كانوا وطنيين، فهم ليسوا بيننا، وهذا يكفي كي لا يكون لرأيهم نفس أهمية رأي السوريين في الداخل، وأنّ أيّ شخص يقوم بالتحريض من الخارج عليه أن يأتي إلى سوريا ويتظاهر بنفسه، فيكون له مصداقية أكبر في الدفاع عن شبابنا!"

".. وأضيف طلباً آخر من فضلك، علينا في هذه المرحلة ألاّ نستفزّ الطرف الآخر بإطلاق الشتائم أو الصفات الإجرامية عليه، لأنّه، بكل بساطة، سوف يبرهن لنا أنه على استعداد للردِّ باستخدام مزيدٍ من العنف، وعلينا إيجاد الطريقة التي توصلنا لحقِّنا بأقلِّ الخسائر."

***

أعتقد أن هذه الرسالة حملت في طياتها بعض المخاطر والمخاوف التي استشعرها عقل امرأة بعيداً عن كلِّ الرغبات، وكشفت عن العاطفة الجياشة التي أخذتنا، وعدم قدرتنا، كمعارضة، على استخدام أدوات العقل والحكمة لمواجهة نظام يخطط وينفذ في الخفاء، ويستدرج خصمه إلى الحفرة التي يريدها.

لكن، كيف لي أن أقف على الحياد وقد انتظرت هذه اللحظة طوال حياتي، ودفعت ثمن خياراتي أكثر من مرّة، أنا الذي طحنني الاستبداد وعصف بحياتي مثل كثير من السوريين؟ مع ذلك، ربما أدخَلَنا الظلمُ في حالةٍ من انعدام التركيز بالفعل، وكنّا نحتاج لبعض الوقت حتى نستدرك ونفكّر بعقلٍ بارد، وحين وصل بعضنا إلى هذه الحالة كان الخراب قد ذهب بعيداً، ولفظنا الصراع الدامي على هامش الأحداث.

جاء في جوابي على رسالة هذه المرأة:

"قرأت رسالتك بانتباه في محاولة للاستفادة منها، لأنّ حدس المرأة يصدق في كثير من الأحيان. أقدِّر خوفك وتعقُّلك كامرأة من طبيعتها المحافظة على الحياة، فيما نرتكب نحن- الرجال- الحماقات في لحظات طيشنا وصراعاتنا."

"عمّمتُ ما نشره الأستاذ برهان غليون من منطلق أن ذلك قد يمنع قتلَ شخص آخر، وأشاركك ملاحظاتك ونقدك لبعض الذين يعيشون في الخارج، ويتجاوزون الكثير من الحدود، ولو بحسن نية، إذ تأخذهم حرية التعبير بعيداً، فيسيئون إلى القضية التي يدافعون عنها! للأسف، لا بدّ من تقديم التضحيات وواجبنا الحدّ منها، لكنّ ما العمل إن كان ثمة مَن لم يتوقفوا يوماً عن التنكيل بكل رأيٍ حر وحظر مختلف أشكال التعبير؟ ومع أنّ كلامك يشعرني ببعض الخجل، فالنوايا الطيبة لا تجدي نفعاً في مثل هذه الظروف، ولا يمكن لأحد إيقاف الطوفان إن حدث، وكان لا بدّ من التنبؤ بحدوثه والحيلولة دونه من خلال القيام بإجراءات سياسية حكيمة. في كل الأحوال، يسعدني أن نتشاور، وأتمنى ألاّ تبخلي عليّ بملاحظاتك، مودتي."

***

مثلما وصلت الكثير من الرسائل التي عبّر أصحابها عن التضامن والحذر، وصلت رسائل أخرى مليئةً بأقذع الشتائم وأخطر التهديدات من قبل موالين للنظام[٧٠]، كما وصلت رسائلَ ذات طابع استفزازي، وتطرح وجهة نظر أنصار النظام وطاقمه الأمني، ومنها هذه الرسالة (٢٢ نيسان/ أبريل ٢٠١١):

"السيد المعارض العبقري، أين أنت من المعارضة وما هو برنامجك؟ وكونك عبقري بالفلسفة (؟) حتماً، فأنت تعتبر نفسك وطنياً أكثر من الباقين، وأنا أقترح عليك أن تكون الناطق باسمهم (؟) كي يكون لك موقع مرموق، وذلك لفهلويتك ووطنيتك الفائضة التي صنعت نهراً يصل إلى البحر. يمكن اسمك ينوّر لثورتكم البائسة الطريق، ويمكن أن تجدوا حلاً لكلّ مشكلة حسب الأوامر التي تأتيكم من الخارج، فمبروك عليك أنت الوطني الذي يمشي الآن مع القتلة، ويكشر عن أنيابه تجاه بلده.[٧١]"

تتضمن هذه الرسالة معظم النقاط التي يتعامل بها النظام وأجهزته الأمنية مع أي تحرُّك معارض:

- عدم وجود برنامج لدى المعارضة؛
- لا وطنية غير تلك التي نحدّد مقاسها نحن؛
- الربط بين من يعارض ووجود طموحات شخصية لديه؛
- الربط بين المعارضة والعمالة للخارج؛
- الربط بين المعارضة والخيانة الوطنية.

[٧٠] من لا يقبلون أي رأي آخر ومستعدون لإلغاء صاحبه.
[٧١] جاءت هذه الرسالة من شخص يدعى س. ك. م. تم تعديل النص في محاولة لتصحيح الأخطاء والارتباكات. إشارات الاستفهام بين قوسين من عندي. وللأسف لم أحتفظ بروابط هذه الرسائل، بل كنت قد احتفظت ببعضها منسوخةً.

• أنْ تعارض يعني أن تكون خائناً أو قاتلاً، ما يبرر التعامل معك بالطريقة ذاتها؛

في ربيع ٢٠١٣، بعد مضي سنتين على هذه الرسالة، سمعت اسم هذا الشخص بالصدفة حين دخلت بصورة شبه سريّة إلى نادي النقابات العمالية في اللاذقية، حيث انعقدت إحدى جلسات "الحوار الوطني" بين السلطة وشخصيات أهلية ومعارضة. أردت الاطلاع على ما يجري داخل هذه الجلسات عن كثب، من دون أن أسيء لمصداقيتي من خلال المشاركة فيها بصورة رسمية، وكنت قد تلقيت دعوةً من أحد الأصدقاء المشاركين في جلسة الحوار هذه. لم أعتقد يوماً بجدوى أيّ حوار تحت هيمنة سلطةٍ قامت على الإقصاء أو الاحتواء وليس على الشراكة، ولم يستجدّ ما يقنعها على الحوار أو التفاوض.

تفاجأت بوجود صاحب هذه الرسالة في الاجتماع، والذي كان يخوّن ويسفّه كل من يتكلم بعقلٍ من الحضور. وفتحت عينيّ على اتساعهما حين عرفت مِمَّن دعاني، وهو عضو سابق في حزب العمل الشيوعي، أنّ هذا الشخص هو عضو في لجنةٍ لصياغة مبادرة سلمية تم تقديمها إلى اجتماع الحوار الوطني هذا [٧٢].

الفصل الثالث

من ذاكرة الحدث

الدم السوري في الشوارع

لم يعترِ الشك أي سوري بخصوص رخص دمه، وإمكانية أن يبدأ أول تحرُّك له للتعبير عن رأيه بإصرار السلطة المستبدة على قمعه بمختلف الوسائل، في الوقت الذي تتشدَّق فيه هذه

[٧٢] ضمت اللجنة المهندس ف. ج. (من قياديي حزب العمل الشيوعي) والدكتور م. ع. (عضو سابق في الحزب) والمدعو س. ك. م، هذه المعلومات ذكرها على مسامعي الدكتور م. ع.

السلطة ليل نهار بجرائم الاحتلال الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني، الاحتلال الذي يصارع شعباً آخر صراعاً وجودياً على أرضه!

طوال عقود عدة، دفع الشعب السوري من حريته ولقمة عيشه ثمن المتاجرة بالشعارات والأكاذيب التي تخفي المزيد من الاستغلال والظلم، ومن أجل ذلك، وظّف النظام الأمني ناطقين باسمه، في الداخل والخارج، ليروِّجوا لسياساته وينفخون في وطنيته المزعومة، في الوقت الذي قمع فيه أيَّ صوت سوري معارض في منتهى القسوة. أراد النظام موالين لا يتعاطون إلا سياساته، ويخضعون، بضغط الخوف، لمختلف التدخّلات الأمنية في شؤونهم، لا يتطرّقون إلى قضايا الفساد أو، بالأحرى، لأسبابها العميقة، ويعيشون تحت سقف ممارسة غرائزهم.

لم تكن السلطة القضائية لتتجرّأ على رفض ما تأمرها به الأجهزة الأمنية في التضييق على كل من تسوّل له نفسه الاحتجاج بالتعبير عن رأيٍ مخالف، فكانت، في أحيانٍ كثيرة، واجهة لإرادات هذه الأجهزة في التنكيل بالمعارضين والزجّ بهم في السجون أو قطع أرزاقهم كما في عصر العبودية! كانت سلطة الظلّ الأمنية تتجاوز أي قانون، أو تسنُّ بنودها الخاصة في كلِّ قانون[٧٣].

***

لم يهدئ الخطاب الأول للرئيس في ٣١ آذار/ مارس، ولا مساعي النظام لتشكيل حكومة جديدة في منتصف شهر نيسان/ أبريل، ولا إلغاء حالة الطوارئ التي استمرت ٤٨ عاماً[٧٤] واستبدالها بقانون تنظيم التظاهر، لم يهدئ ذلك كله من غضب الشارع؛ ربما لإدراكه أن النظام يتلاعب بالنصوص دون أن يُطبق منها شيئاً. كان وقت الأفعال الملموسة وليس للتحايل والوعود.

منذ أواخر شهر نيسان تم زجّ الجيش في الأحداث، ولو بصورة محدودة وانتقائية،[٧٥] ما زاد من عدد الضحايا، وكانت ذريعة النظام في ذلك وجود عناصر مسلحة بين المتظاهرين[٧٦]. ما

٧٣ تقضي المادة ١٣٧ من قانون العاملين الموحد لعام ٢٠٠٤ بأنه يحق لرئيس مجلس الوزراء فصل أي موظف حكومي دون ذكر الأسباب؛ الأسباب هنا أمنية بالطبع، ورئس مجلس الوزراء هو من ينفذ توجيهات مكتب الأمن القومي بلا اعتراض. حين تم فصلي من جامعة تشرين باللاذقية عام ٢٠٠٦، أرسل وزير التعليم العالي كتاباً (رقم ٩٤٥/ د تاريخ ١٦ حزيران ٢٠٠٦) إلى الجامعة يستفسر فيه عن سبب فصلي، رغم أنه يحضر اجتماعات مجلس الوزراء!

٧٤ أُلغيت حالة الطوارئ في ٢١ نيسان/ أبريل ٢٠١١ واستبدلت بقانون جديد للتظاهر.

٧٥ اعتمد النظام على انتقاء مجموعات أو أفراد لمواجهة الاحتجاجات خشية حدوث الانشقاقات وبسببها، ولم تتحرك وحدات الجيش بصورة منظمة، ما حال تدريجياً دون قيام هذا الجيش بأية أفعال منسقة وأصاب إرادته بالشلل، فضلا عن الأسباب الأخرى وأهمها البنية العقائدية والارتباط بالسلطة من خلال الأجهزة الأمنية، إذ تحتوي كل قطعة عسكرية على ما يسمى "ضابط أمن" يعمل كسلطة موازية. وبالتالي لم يكن بوسع الجيش القيام بمسؤولياته الوطنية عند الضرورة إلا من خلال مفهوم السلطة التي تفصِّل مفهوم الوطنية على مقاسها، بحيث لا يتجاوز مصلحتها في التأبيد والتوريث، علاوة عن انتشار الفساد وعدم إمكانية تأمين الحدّ الأدنى من الموارد لجيش كبير ومترهِّل وغير محترف.

٧٦ مثلت الأعمال المسلحة في المرحلة الأولى للثورة مقدماتٍ أنذرت بتحوُّل المظاهرات السلمية العارمة إلى صراعٍ مسلّح. وجرت بعض الهجمات ضد الجيش والعناصر الأمنية، ومنها الهجوم على باص يقل عسكريين على الطريق الدولية في مدينة بانياس، والهجوم

كان يجب أن يفعله الجيش هو حماية التظاهرات، كما حدث في مصر، وبالتالي قطع الطريق على المسلحين ومثيري الشغب وعزلهم، لكنْ هيهات أن يكون الجيش العقائدي الذي تهيمن عليه الأجهزة الأمنية قادراً على ذلك، وسيكون الجيش ذاته من بين ضحايا المقتلة السورية أيضاً.

كان لا بد من الخضوع لإرادة المنتفضين والاستجابة لمطالبهم المشروعة من أجل أن تستمر عجلة الحياة، وحتى لا تتدحرج كرة الثلج وتكبر، إذ لن يفضي القمع إلاّ إلى تفاقم المشكلة وتعقيد الحلّ. وكان الثائرون سيقتنعون بالإصلاح الذي يبدأ بتحجيم السلطة المطلقة للأجهزة الأمنية، التي سلبت حرية الجميع وتغوَّلت عليهم، على أن تكون تلك الإجراءات حقيقية وتُفضي إلى تغيير تدريجي وملموس في بنية السلطة ذاتها. لقد عجز النظام عن فهم الأسباب العميقة لما حصل، وفشل في التقاط اللحظة التاريخية للتغيير بأقل الخسائر، ذلك بسبب أنانيته وفرط القوة التي اختزنها لمثل هذه الأوقات، فاتحاً بذلك المجال لكافة أشكال التدخّل الخارجي في الجسد السوري الحساس.

حين عشت وطنيتي السورية على الأرض

لم أطق متابعة الأحداث من خلال شاشة التلفاز أو الحاسوب، ولم أستطع إقناع نفسي بأنّ ما يحدث على الأرض هي ثورة شباب وحسب، وأنّ علاقة جيلنا بها لا تعدو كونها مجرد إحساس بتحقُّق الحلم الذي عانينا كثيراً من أجله، فقرّرت الانخراط في مظاهرات الشارع؛ لأعيش الحلم بكافّة حواسي ومشاعري، ولأكون صوتاً في جوقةٍ تنشد للحرية في شوارع مدينة من المدن السورية، إنّه إغراء عظيم لمن قضى عمره في الخوف والتنكيل من نظام الفرد الواحد والحزب الواحد والأجهزة الأمنية المتعددة[٧٧].

بنشوة عامرة، انتعلت حذائي الرياضي، استقلَّيت سيارة أجرة إلى ساحة "الشيخ ضاهر" في اللاذقية، في جمعةٍ سُمِّيت "جمعة الصمود"[٧٨]. توقَّف السائق على حين فجأة قبل الوصول إلى الساحة بعد أن شاهد تشكيلات متنوعة من عناصر الأمن والجيش، واعتذر عن المضيّ قُدُماً.

ترجَّلت من السيارة، واتجهت إلى مدخل شارع القوتلي. كانت المظاهرة قد بلغت نهاية الشارع عند ساحة "أوغاريت"، فهرعت للالتحاق بها. في بداية الشارع وقف رجال بأيديهم مختلف

على مراكز أمنية في درعا وجسر الشغور وغيرها. ولم يُعرف حتى الآن إن كانت مجرّد ردود أفعال أم استفاقة عنفية "إخوانية" مؤجلة.

[٧٧] ولدتُ عام ١٩٥٨، العام الذي شهد نهاية مرحلة ديمقراطية قصيرة (١٩٥٤-١٩٥٨) قامت في نهايتها الوحدة بين سوريا ومصر، كبداية ملتبسة لاستبداد طويل.

[٧٨] ٨ نيسان/ أبريل ٢٠١١.

أنواع الهراوات، منها ما انتزع من مكان ما على عجل، كان منظر هؤلاء مرعباً والشارع مقفراً، وشعرت بخوف من أن ينهالوا عليَّ بالضرب في أية لحظة، لكنّي غذّيت الخطى إلى الأمام، كمن يركض وراء حلمٍ غامض!

في منتصف الشارع وقف عناصر من شرطة الشَّغب في أنساقٍ متسلِّحين بعتادهم الكامل؛ شباب في مقتبل العمر وعلى وجوههم براءة الأطفال، لم أشعر بالخوف عند مروري قربهم، بل انتابني إحساس أبوي تجاههم.

حين بلغتُ المظاهرة، مشيت في محاذاتها، التقطت الصور بخوف في البداية، ثم تجرَّأت ونزلت من الرصيف إلى أرض الشارع، كمن ينزل من عالمٍ إلى آخر، وتغلغلت بين الحشد خطوةً فخطوة، يصمّني ضجيج دقات قلبي المتسارعة. في البداية، ردّدت شعاراتهم في نفسي، ثم ردَّدتها بصوتٍ سمعته وحدي، إلى أن اختلط صوتي بأصوات الآخرين، فاجتاحتني قشعريرة لذيذة، وانتشيت بتلك العلاقة التي تربطني بأبناء بلدي.

لم أعتقد أنّ الأمور منظمةٌ إلى هذا الحدّ؛ كان الإيقاع منسجماً والهتافات تتبدَّل من حينٍ إلى آخر، يتخلَّلها الشعار الرئيسي: "الشعب يريد إسقاط النظام"، وترتجُّ الحناجر بقوة عند ترديده!

رأيت أشخاصاً ينتمون إلى كلِّ ألوان الطيف الاجتماعي في المدينة، بأغلبية سنية، وتراوحت الشعارات بين إسقاط النظام والتضامن مع مدينة درعا والحضِّ على عدم التفرقة الدينية والطائفية ووحدة الشعب السوري، كردٍّ على محاولات إثارة الفتنة في مدينة ذات تنوع اجتماعي مبهج، ما يجعل الحياة فيها حلوةً رغم كل شيء.

تقدَّمت المظاهرة حوالي عشرين امرأة وفتاة، رفعت إحداهن لافتة كتب عليها "شبابنا خط أحمر". وحين حاذت المظاهرة منزل أحد أعضاء "مجلس الشعب"، الذي لا علاقة فيه للمضاف بالمضاف إليه، نعته المتظاهرون بالجبان، ومن إحدى الشرفات فتح شاب كيس أرزّ ونثر حباته على الحشد كمن يبذر أرضاً بكراً!

عصر ذلك اليوم، تحوّلت المظاهرة إلى اعتصامٍ في إحدى الساحات[٧٩]. شكّل المشاركون حلقة كبيرة توسطتها عدة نساء محجَّبات، علاوة على امرأتين غير محجَّبتين. استمر ترديد الشعارات، وتجلت مظاهر رائعة من التضامن الاجتماعي، إذ دار أحدهم على المعتصمين لجمع المال في قبعة، وبعد ذلك بدقائق كان الطعام والحلوى يوزَّع بسخاء على المعتصمين.

بكل فخر واعتزاز، كمن قام بأمر جلل، ركبت سيارة أجرة كانت تنتظر قرب مكان الاعتصام من أجل العودة إلى البيت. بدا واضحاً من أسئلة السائق أنّه من عناصر الأمن أو من مخبريهم، إذ بادرني بالحديث قائلاً: "أنّ عدد هؤلاء المتظاهرين قليلٌ (قدّرت العدد وقتها بما

[٧٩] تعرف هذه الساحة بساحة العلبي.

يتراوح بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ آلاف متظاهر ومتظاهرة)، وإن القنوات التلفزيونية مغرضة، وضرب مثال عليها قناة "العربية" ونعتها بـ "العبرية". كان السائق يحاول إقناعي بوجهة نظره فيما كنت قادماً من مكان الحدث! إنّها عقلية دعائية جرَّت وراءها أتباعاً تزيَّف وعيُهم في لحظة خوف أو ارتباط مصالح، فاندفعوا في مقاومة التغيير بلا هوادة.

كم كنت مبتهجاً وقتها لأتحدّى السائق، ومن ورائه، بهذه الطريقة "الانتحارية"؛ قدّمت له اسمي وصفتي، وترجُلت من السيارة، متّجهاً بزهوٍ إلى البيت. أردت التحليق بسعادتي وليكن ما يكون!

قبيل منتصف تلك الليلة، فيما كنت أستعيد مشاعري بهدوء، سمعت أصوات طلقات نارٍ غزيرة قرب مكان الاعتصام. فهمت بأنّ الهدوء الحذر الذي عايشته في المكان كان أمراً عارضاً وحسب. في اليوم التالي، تعرضت سيارتي للتخريب والرشّ بالدهان، علاوة على الكتابات الاستفزازية، لقد بدأت المواجهة غير المتكافئة!

في تلك الأثناء، أثبت السوريون أنهم لن يقبلوا رشاوى النظام بهدف الالتفاف على مطالب المتظاهرين السياسية، فقد رفض الأكراد في الشارع بكبرياء رشاوى الجنسية[٨٠] التي باشر النظام بمنحها للذين كانوا قد حُرموا منها، وعبّروا عن وحدة مطالبهم مع كل أطياف الشعب السوري. ولم يُجدِ النظام نفعاً وعدُه بإنشاء محطة فضائية دينية[٨١]، والسماح بعودة المعلِّمات المنقّبات اللواتي تمّ فصلهنّ من التعليم[٨٢]، رغم أن شيوخ النظام هلّلوا لهذه المكرمات!

وليس للأقليات من رشاوى سوى الإمعان في تخويفها من الخطر الإسلامي؛ لتبقى صامتةً في وقتٍ لا يجدي فيه الصمت نفعاً. لاحقاً، سيتجلّى هذا الخطر بشدة؛ بسبب انسداد آفاق الحلول، وغزو الجهاديين أرض سوريا من كل الأصقاع، واتخاذ الصراع بين مصالح الدول الإقليمية مظهر حرب سنيَّة– شيعية.

أجاد النظام اللَّعب بالأوراق الخارجية بجدارة، ثم انتقل عند اندلاع التظاهرات إلى اللَّعب على التناقضات الأهلية بصورةٍ مكشوفة، فهو يعرف نقطة ضعف مواليه ومعارضيه على حد سواء[٨٣]. كان الواقع السوري على مفترقٍ خطير؛ إما وحدة أبنائه وتضامنهم للتخلص من الاستبداد أو الانتقال إلى مرحلةٍ سافرة من الانقسام الاجتماعي العمودي الحادّ. كانت معظم

[٨٠] أعلن الرئيس بشار الأسد في يوم الخميس ٧ نيسان/ أبريل عن تنفيذ قرار منح الجنسية لآلاف من المواطنين الأكراد السوريين بعد حرمانهم منها لعقود.

[٨١] تم إطلاق قناة "نور الشام" الفضائية كمحطة ناطقة باسم المؤسسة الدينية الرسمية في ٣١ تموز/ يوليو ٢٠١١.

[٨٢] صدر قرار عام ٢٠١٠ بإحالة المعلمات المنقبات إلى وظائف أخرى.

[٨٣] في مجتمعات غير ناضجة، تؤدي الإشاعات دوراً رئيساً في التحشيد والتخويف، ومن خلالها يمكن إثارة ردود الأفعال وتوجيهها.

المؤشرات تقول بحدوث الاحتمال الثاني، نظراً لعدم توافر قيادة وطنية مؤهلة لعملية التغيير، فتُركت الساحة مفتوحةً لمختلف التدخلات الخارجية.

تجلّى الموقف اللاأخلاقي لأنصار النظام[٨٤]، الذين تقصّدوا تخويف الموالين العاديين[٨٥]، من اللحظة التي ركّزوا فيها على أصوات نشاز وشعارات على الهامش[٨٦]، وصمّوا آذانهم عن سماع شعارات وطنية لا لبس فيها، مثل "الشعب السوري واحد"، الذي بحّت به أصوات المتظاهرين على امتداد أشهرٍ عدة! كما تجلّى انخداعهم بالوطنية المزعومة عندما استبدلوا شعار "الله.. سوريا.. حرية وبس" بشعار "الله.. سوريا.. بشار وبس!"

الثلاثاء ١٩ نيسان/ أبريل ٢٠١١

تصاعدت الاحتجاجات، وطالبت بإسقاط النظام. حاولت السلطات بشتى السُبل منع تحوُّل المظاهرات إلى اعتصاماتٍ في الساحات، بعد أن منعت وسائل الإعلام من تغطية الأحداث، وعبّأت كل إمكانيات إعلامها الدعائي، بما فيه الحديث عن المندسين والعملاء والتمرد السلفي المسلح، كما جاء في بيان وزارة الداخلية في الليلة التي سبقت اعتصام الساحة في حمص، وقُبيل قمعه بقسوة بالغة[٨٧].

شعرت باكتئاب شديد لأنّ ثمة نظاماً مغلقاً لا صوت فيه للعقلاء، وأن بعض تجليات العنف الطائفي بدأت بالظهور في وسائل الإعلام، وليس ثمة إمكانية للسيطرة على الشارع؛ بسبب غياب قيادةٍ سياسية للانتفاضة/الثورة على المستوى السوري، ما سيجعل كلّ الاحتمالات السيئة متاحةً. لم يكن بوسع النظام النجاة إلاّ إذا استطاع تغيير طبيعة الحدث وجرِّ الآخرين إلى ملعبه، وسيقدم له التطرُّف الإسلامي وداعموه هذه الرغبة على طبقٍ من ذهب.

---

[٨٤] مَن يرتبطون بالنظام عضوياً من خلال المصلحة والمصير.

[٨٥] مَن يوالونه انطلاقاً من اعتقادهم بأنه نظام دولة، أو نظام "ممانعة ومقاومة".

[٨٦] من مثل شعار: "المسيحي ع بيروت والعلوي ع التابوت." بالنسبة لي لم أسمع هذا الشعار في المرات التي شاركت في المظاهرات أو راقبتها، لكنّ مصادر موثوقة أكدتها في بعض المناطق؛ فقد حَدّثني أحد الأصدقاء من بلدة بداما بريف إدلب عن قيام أطفال بترديد هذه الشعارات أمام مدرسة البلدة، وتم طردهم من قبل إدارة المدرسة. كانت المدرسة تحتوي حينها على أكثر من ٢٠ مدرّسة علوية ومسيحية.

[٨٧] حدث ذلك فجر يوم الاثنين ١٨ نيسان، كما ذُكر سابقاً، بعد قراءة بيان وزارة الداخلية حول إخلاء الساحة وامتناع معظم المعتصمين عن تنفيذ ما ورد في البيان.

نظرتُ في عيون طفلتيَّ، وفكّرت بمستقبل أطفال سوريا، فيما كنت محاصراً بين جدران منزلي منذ حوالي السنة؛ بعد أن قطع عني النظام موارد العيش جميعها ومنعني من السفر، كضربٍ من القتل البطيء. لقد دارت عجلة التاريخ ولا سبيل لإيقافها، مع أن كثيرين كانوا على استعداد للتلاعب بمسارها.

٢٠ نيسان/ أبريل ٢٠١١

حدثت بعض أعمال العنف في بانياس[٨٨]، وأُهين معتقلون في ساحة قرية البيضا[٨٩]. كما بدأت فوضى الإعلام بالانتشار وتأجيج الفتن، وخشيت أن تغطي أوساط المعارضة، ضعيفة الخبرة، على أعمال العنف، فيخسر "إعلام الثورة" مصداقيته. كما اعترتني مخاوف كبيرة من منزلقاتٍ محتملةٍ قد تقود إلى حربٍ أهليةٍ شاملة، فكتبت من فرط حميتي بياناً باسمي شخصيّاً بعنوان: "إلى أبناء وبنات الشعب السوري العظيم[٩٠]"، ولم يجدِ ذلك نفعاً بالطبع! كما وقع مثقفون سوريون على بيان يؤكد على المضي في انتفاضة الشعب، باعتبارها ثورة ضد الاستبداد، والمحافظة على المنحى السلمي للانتفاضة، وتطوير فعالياتها للوصول إلى تحقيق الهدف بأقل الخسائر[٩١].

---

[٨٨] قُتلت مجموعة من المتظاهرين الشاب محمد جنود من ريف بانياس بتاريخ ٢٠١١/٤/١١ بطريقة بشعة ، واستغلت ذلك قناة "الدنيا" الفضائية شر استغلال لتخويف الكثيرين. http://youtu.be/wFHcKm5f41A ، كما هاجمت مجموعة مسلحة جامع أبي بكر الصديق عند الفجر وأطلقت النار على المصلين عند خروجهم من الجامع.

[٨٩] قامت عناصر مسلحة بقيادة الضابط في الأمن السياسي أ. ع. باعتقال شبان وإهانتهم في ساحة القرية المذكورة.
http://www.alrassedonline.com/2011/04/blog-post_8414.html
http://www.alarabiya.net/articles/2011/04/15/145494.html

[٩٠] هذا نص البيان:
"وصلت انتفاضة الشعب السوري المطالب بحريته إلى مفترقٍ حرج، وكان النظام الاستبدادي يستجدي منذ البداية أمرين؛ الطائفية والعنف، ليحوّل مسار الحركة الاحتجاجية في هذين الاتجاهين، ما يبرّر له القمع الدموي الذي بدأه، وشقّ صفوف المجتمع السوري بتخويف مكوّناته بعضها من بعض."
"وما حدث في الأيام الأخيرة أن جاء ما كان النظام يبحث عنه، ولو بصورة جزئية وملتبسة، فأعلنت وزارة الداخلية وقف الاحتجاجات بكافة أشكالها، وهذا ما يؤشر إلى أن النظام فتح عيناً على الحل الأمني وأغلق عينه الأخرى على الحل السياسي، ضارباً عرض الحائط بمطالب الشعب المحقّة في العيش في وطن حرّ كريم تسوده العدالة والقانون وتكافؤ الفرص."
"إنني أهيب بالثوّار المحافظة على شعاراتهم الوطنية التي تم رفعها في كل أنحاء سوريا، ورفض أي شكل من الدعوات المذهبية والعنفية، وذلك لقطع الطريق على الحمقى من كلِّ الأطراف، الذين يحاولون وضع الماضي أمام المستقبل، ويساهمون بالتالي في وأد حركة الشعب السوري لاستعادة حريته ورفع المظالم التي سبّبها له نظام استبدادي لعب على كل التناقضات الداخلية والخارجية."
"وأتوجه بشكل خاص إلى الآلاف من طلابي وطالباتي في أنحاء سورية كلِّها، الذين شاركوني مسيرة العلم والثقة بلا حدود، قبل أن يحرمني النظام الأمني من فرصة التواصل مع شباب سوريا الذين يصنعون المعجزات، وأُهيب بهم أن يعوا خطورة منزلقي الطائفية والعنف على مستقبل الثورة السورية، وحرمان السوريين من الأمل بمستقبل يليق بهم، وكلي ثقة بأنّنا سنجتاز هذه المرحلة بأقل الخسائر، وذلك بفضل وعينا وتلاحمنا."
opl-now.org/?p=3956

[٩١] www.odabasham.net/show.php?sid=44290

٢٥ نيسان/ أبريل ٢٠١١

يبدو أنّ النظام اتَّخذ قراره بمواجهة الانتفاضة، مدعياً أنها مجرّد حركة سلفية وحسب، ومهّد لذلك في إعلامه بعرض جثثٍ تمّ التمثيل بها من قبل المسلّحين. لا شك بأنّ ثمة سلفيين وغيرهم ضمن الحراك، لكنّ ذلك لا يبررّ اعتبار الحراك كله حركةً سلفية مسلحة والتعامل معه على هذا الأساس. ربما يحاول النظام تطبيق الحلّ الذي اعتمده ضد تمرد حزب الإخوان المسلمين في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات على واقعٍ مختلف.

دفعني الخوف من الاعتقال هذا اليوم إلى التواري بعد أن وقّعت على بيانٍ ضد الكذب الإعلامي للنظام والقمع[٩٢]، ثم قررت العودة إلى البيت خوفاً على أسرتي من تمادي بعض الجيران في الأذى. أغلقت هاتفي الخليوي، فصلت الهاتف الأرضي، وتابعت الأخبار لحظة بلحظة من خلال شاشة التلفاز.

٢٦ نيسان/ أبريل ٢٠١١

ازدادت حدّة التّنكيل بأسرتنا، وصار المراهقون من أبناء الجيران يرددون شعار "الله.. سوريا.. بشار وبس" في وجوهنا، وتتجدّد كل يوم الكتابات المستفزة على سيارتنا، إلى جانب التخريب المتعمّد. كما حفروا على مقدمة السيارة عبارة "أنا معارض[٩٣]". في هذا الصباح، كان زجاج السيارة مرشوشاً بالدهان الأسود، فلم أستطع الخروج. ثمة تحريض واضح لشبان في مقتبل العمر على إيذائي.

سرت إشاعات في المناطق الموالية تتضمن تهديدات ضد جميع المعارضين، وبأنّه ستتم تصفيتهم بعد انتصار النظام. كما وجدتُ ورقة ملصقةً على السيارة مكتوب عليها كلمة واحدة بالخط العريض: "خلصت"! شعرتُ بالارتباك والخوف على أسرتي في هذه الأجواء التي تنذر بالخطر الشديد، إذ بدا بعض المؤيدين للنظام وكأنّ مسّاً قد أصابهم!

٥ أيار/ مايو ٢٠١١

سوريا في مهبِّ القمع والثورة و.. الحرية!

---

[٩٢] www.aljazeera.net/.../2E0A7991-F7F7-4348

[٩٣] مازال هذا الحفر موجوداً على مقدمة السيارة حتى الآن ولم أزله قصداً، كضرب من المقاومة السلبية، ولكوني أفتخر بمعارضتي وأعتبرها واجباً أخلاقياً، فيما حاول من فعل ذلك أن يخيفني ويحرض عليّ.

بعد حوالي شهرين على انتفاضة لم نشهد لها مثيلا منذ مرحلة الانتداب[٩٤]، صار بالإمكان استنتاج ما يلي:

أولاً. حدّد النظام خياره في القضاء على الحركة الاحتجاجية والتظاهرات بوساطة الحلّ الأمني، الذي ينسجم وطبيعة ممارساته تجاه معارضيه منذ أن تأسّس.

ثانياً. استمرت الحركة الاحتجاجية في الشارع، وإن تفاوتت من مدينة إلى أخرى، تبعاً لدرجة تجاوز حاجز الخوف وممارسة الشجاعة الجماعية، كما حافظت الشعارات والهتافات على وطنيتها وسلميَّتها بدرجةٍ معقولة. في ذات الوقت، ما زال الخوف مسيطراً على شرائح واسعة من الشعب، ذلك بسبب الخوف من القمع أو الخوف من الشارع نفسه.

ثالثاً. من أجل القضاء على الانتفاضة، تمَّ استخدام "خلطة" من الجيش والأمن والشرطة واللجان الشعبية أو الشبيحة[٩٥]، وسيكون الجيش ضحيتها الأولى؛ بسبب فشله في الوقوف على الحياد وحماية الشعب في مثل هذه التحولات السياسية العميقة.

رابعاً. إنّ أخطر الأوراق التي لعبها النظام هي الورقة الطائفية، وذلك منذ أن أشارت نائبة الرئيس إلى ذلك في مؤتمرها الصحفي في ٢٤ آذار/ مارس ٢٠١١. نجحت حملة التخويف في انكفاء أبناء الأقليات، والذين كان نزولهم إلى الشارع مرتبكاً وحذراً. كما لم تكن معظم الفئات الميسورة من الأغلبية الطائفية معنيةً بما يحدث على وجه التقريب. ولئنْ كان لاستخدام الورقة الطائفية وقع الصاعقة في البداية، بخاصة في المناطق المختلطة، فقد تراجع أثرها دون أن يختفي؛ بسبب تنامي التوجهات الإسلامية المتطرفة في الشارع، وتدخل بعض الدعاة[٩٦] المنخرطين في الصراع السني– الشيعي القائم منذ ١٤٠٠ سنة!

خامساً. ثمة قناعة شبه مؤكدة باستحالة إصلاح النظام من الداخل، وأن لا صوت للعقلاء فيه، وأنّه يفضِّل التعايش مع نقيضه السلفي، الذي يستحضره كفزّاعة كلما هبّت عليه رياح الانتقادات من بلدان الغرب أو احتجّ الشعب على فساده واستبداده.

---

[٩٤] المقصود هو تلك الاحتجاجات التي كانت تندلع أحياناً ضد المستعمر الفرنسي (١٩٢٠- ١٩٤٦)، وأهمها اضراب ١٩٣٦ الستيني الشهير، والذي دعت إليه "الكتلة الوطنية."

[٩٥] الشبيحة، في الأصل، هم مجموعة من حراس أفراد من العائلة الحاكمة وأعضاء شبكات التهريب المرتبطة بهم في اللاذقية، المدينة التي عانت الكثير من تجاوزاتهم في عقدي الثمانينات والتسعينات، وربما اشتقت التسمية من سيارات المرسيدس- الشبح التي كانوا يستخدمونها. لكن الاسم الذي صار يطلق على الشبيحة بعد الثورة لا علاقة له بهؤلاء تقريباً، إذ شمل المتطوعين في اللجان الشعبية وبعض خريجي السجون من الجنائيين الذين أطلق سراحهم في مراسيم العفو الرئاسية المتتالية منذ بداية الانتفاضة، علاوة على قوى محلية للدفاع الذاتي. ثم تعمَّم هذا المصطلح ليشمل كل موالٍ للنظام، في خلط مقصود وكضربٍ من الشتيمة. انضوت تلك المجموعات لاحقاً تحت مسمّى واحد هو "جيش الدفاع الوطني"، وارتكبت الكثير من الأعمال غير المسؤولة والجرمية، علاوة على أعمال النهب والتعفيش في المناطق التي تمكّن الجيش من السيطرة عليها.

[٩٦] الشيخ العرور على سبيل المثال لا الحصر. كانت المشكلة، وستبقى إلى أمدٍ غير معروف، في تقبُّل هذا الصنف من الدعاة والدجالين من قبل عامة جاهلة ومجهَّلة!

سادساً. بخلاف ما يدعيه النظام حول وجود المؤامرات الخارجية، فإنه ما يزال يتمتّع بطوق أمانٍ عربي ودول لم يتوافر لغيره من أنظمة الاستبداد، ولم تكن التحرُّكات الخارجية ضدّه سوى نوع من رفع العتب، فيما توجَّهت تصريحات أحد النافذين في النظام إلى طمأنة أمريكا وإسرائيل![97]

سابعاً. يحاورُ النظام أشخاصاً لا يمثلون في الغالب سوى أنفسهم، فضلاً عن أنّ مطالبهم بعيدةٌ كل البعد عما يريده من تجرّأ على النزول إلى الشارع ليطالب بالحرية، بما يتضمنه ذلك من تغيير سياسيّ أساساً. وبهذا الخصوص، يحتاج أي حوار مباشر بين الطرفين، السلطة وممثلي الشارع، إلى إعادة التوازن على الأرض، أي وقف القمع واستمرار التظاهر السلمي وتنظيمه.

ثامناً. ظهرت ملامح ممارسات فاشية سافرة في الأوساط المؤيدة للنظام، إذ صار التنكيل والتحرش والأذى يطال المعارضين بدءاً من عتبات بيوتهم حتى الشارع ومواقع التواصل الاجتماعية والمكالمات الهاتفية.

تاسعاً. قد ينجح النظام في قمعه لفترة محدَّدة، لكنّه لن يستعيد أبداً شرعيته عند أغلبية الشعب السوري بعد أن فقد هيبته وأغطيته الأيديولوجية. إنّ استمرار الاحتجاجات وتطورها مرهونٌ بمدى قدرة المتظاهرين على تطوير أساليب جديدة، وصولاً إلى مرحلة من العصيان المدني إلى هذه الدرجة أو تلك.

الجمعة ٦ أيار/ مايو ٢٠١١

سُميت هذه الجمعة بجمعة التحدي، وكان العدد الأكبر من الضحايا من نصيب مدينة حمص. في مظاهرة بحيّ الميدان بدمشق اعتقل صديقي[98] بعد ضربه، وأُفرج عنه بعد أسبوع من اعتقاله. كانت معنوياته عالية، وقال لي، على الهاتف، بأنّه التقى شباباً "ينعشون الروح"، واعتبر اعتقاله "حجّة مباركة!"

في هذه الأثناء، محت المشاعر الجياشة وأجواء التضامن الكثير من الفروق بين الإسلاميين والليبراليين والعلمانيين، لكن ذلك لم يدمْ طويلاً، حيث ستحمل العسكرة والأسلمة معها

---

[97] منها تصريح رجل الأعمال المقرَّب من السلطة رامي مخلوف لصحيفة نيويورك تايمز الأميركية عن أنّ استقرار إسرائيل مرتبط باستقرار سوريا.
all4syria.info/Archive/8263?wpmp_tp=3

[98] ستتكرر كلمة "صديقي" كثيراً في هذا النص والمقصود بها شخصياً الأستاذ رياض سيف، وعلى العموم، تمثل وجهة النظر السياسة التي فشلت في القيام بدور وطني في أحوج الظروف التاريخية إليها.

بذور التفتيت والانقسام والإقصاء. المرحلة مفتوحة على كافة الاحتمالات السيئة، ولا حلّ في الأفق غير الحلّ الأمني المدمِّر.

من جهة أخرى، استمرّت الإزعاجات والتهديدات، وتوقّف معظم جيراننا عن إلقاء التحية؛ خوفاً من قبل البعض أو حقداً من قبل البعض الآخر. أصبحنا لا نغادر المنزل إلا عند الضرورة، نعيش في قلق شديد وننتظر انتهاء العام الدراسي للسفر إلى الدريكيش، إلى حيث سبقتنا تسريبات تفيد باعتقالي، ربما لاختبار ردّ فعل الناس. إنّ إضافة معتقل آخر إلى آلاف المعتقلين لن يغير في الأمر شيئاً، وربما هو أفضل من الوقوع بين أيدي الرعاع من الموالين. ومع أنّ التجوّل في شوارع المناطق الثائرة كان يعدّ خطراً، فقد شعرت فيها بضربٍ غريب من الأمان، على الأرجح انطلاقاً من تضامنٍ لا سابق له مع الثائرين.

الجمعة ٢٠ أيار/ مايو ٢٠١١

سُمّيت هذه الجمعة بجمعة الحرية أو أزادي باللغة الكردية، كإشارةٍ إلى التضامن العربي– الكردي. تجوَّلت في شوارع اللاذقية برفقة صديقين. كانت متاريس الجيش منتشرة في نقاط أساسية من المدينة، كما دارت سيارات الأمن واللجان الشعبية في شوارع المدينة لمنع أي تجمعٍ أو تظاهر. لم يظهر الخوف على وجوه الناس، لا بل يبدو أنّهم يشعرون بالطمأنينة في أحيائهم وبين أهلهم. النساء كنّ يراقبن الحركة في الشوارع من الشرفات العالية، وينذرن المتظاهرين بالتفرُّق عند قدوم سيارات الأمن. وكان الخوف والارتباك باديين بوضوح على ملامح من يحاولون قمع التظاهرات.

ظاهرة جديدة تتمثّل بالتكبيرات في منتصف الليل من على شرفات المنازل والأسطح، كضربٍ من التحدي[٩٩]، وقد أثارت حفيظة رجال الأمن لصعوبة قمعها، مثلما أثارت حنق أنصار النظام في الأحياء المجاورة، الذين لم يفهموا منها سوى نداءات للجهاد والحرب، مع أنها لم تكن سوى صرخاتٍ عجز معظم السوريون عن استبدالها بأشكالٍ أخرى من التعبير السياسي! كما أثار التحريض الذي مارسه بعض الدعاة[١٠٠] مشاعر سلبية تاريخية عند البعض، وذكرياتٍ لمراحل ساد فيها الاضطهاد الديني، وعزَّز الانطباع بتزايد التوجهات الدينية المُجانبة للوطنية في صفوف

---

[٩٩] كان في ذلك تقليداً لما حدث في أثناء الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩.

[١٠٠] وصل التحريض الديني في العقود السابقة إلى درجات غير مقبولة، واتخذ أشكالاً مختلفة مثل استعادة الصراع المذهبي السني- الشيعي من خلال عشرات الفضائيات التي احتلت مساحة هامة من الإعلام، إلى جانب القنوات التجارية التي تستغل الدين وقنوات الفن الرخيصة، ما يعبر عن ثقافة مأزومة على كافة الصُّعد. بيد أن التحريض الديني هو الأخطر؛ لما يحمله من ثقافة إلغاء الآخر، فضلاً عن ضمور الجانب الروحي والإنساني في مثل هذا الخطاب أو انعدامه!

الثائرين، الأمر الذي لا يخدم، على وجه التوكيد، ثورة شعبية تهدف إلى التغيير الوطني الديمقراطي.

وعند قيام بعض المتظاهرين بأفعال متطرفة، ويجري تضخيمها مرّات، كنتُ أنال نصيبي من الأذى؛ باعتباري "مندساً" ومشاركاً في التظاهرات، وينظر إليّ بعض جيراني بحقد، كأنني المسؤول عن "الأزمة"، أو أنني القائد الذي لم يتحمّل مسؤولياته وينقذ بلده في اللحظات العصيبة!

الخميس ٢٦ أيار/ مايو ٢٠١١

يجري التحضير لانعقاد لقاء تشاوري في الداخل، في الوقت الذي لم يحرز النظام نجاحاً ملحوظاً في قمع التظاهرات، برغم عملية خلط الأوراق بهدف تبرير الحلّ الأمني. البارحة دخلت في نقاشٍ حادّ مع عدد من الأشخاص في قريتي، ويبدو أن البعض بدأ يتعلّم التفكير، فيما يتّخذ المتضررون من النظام مواقف شديدة الوضوح فيما يتعلق بالتضامن مع الثائرين، دون أن يكون بوسعهم فعل أي شيء ملموس. ثمة من يضمرون مشاعر خوفٍ مشحونة بعدائية شديدة. كما اختلطت عند البعض الآخر مفاهيم الوطن والطائفة والنظام. على وجه العموم، من المبكر استشفاف ملامح التطورات القادمة، والتي ستتوقّف على المسار الذي ستتخذه الأحداث أو الكيفية التي ستنتهي بها.

ربما أمكن التمييز بين وطنيتين؛ وطنية غامضة وعاطفية تؤمن بسورية الجغرافية كوطن نهائي، ووطنية ممسوخة على مقاس السلطة الضيق، والتي تضع كل من يعارضها في عداد "الخونة والمتآمرين!"، فيما يتجاوز معظم الإسلاميين مفهوم الوطنية ذاته. الأمر المؤثر هو تواصل بعض طلابي وطالباتي في اللحظات الصعبة ليخبروني عن اعتقال أحدهم أو استشهاد آخر أو المشاركة في نشاط ما أو لاستشارتي فيما ينوون فعله. كم ترضيني تلك الثقة، إنها تجعلني غير قادرٍ على احتباس دموعي.

٢ حزيران/ يونيو ٢٠١١

شعرنا بأمان افتقدناه لعدة أشهر حين عدنا إلى الريف. أعوام عشرة قضيتها في بناء منزلنا هذا ولم يكتمل، وقد نقلنا إليه بعض الحاجات البسيطة من بيتنا في اللاذقية، بما يكفي للعيش فيه صيفاً.

كم هو ملهم هذا المكان الساحر؛ تضرب قطرات المطر الأعشابَ الطويلة، التي تنحني وتهتزّ تحت ثقلها، ثم تبكيها دمعةً دمعةً، تهرع الفراشات إلى مكان ما لتحتمي فيه من وابل المطر، تتمايل شقائق النعمان الحمراء وحيدة بعد أن فارقتها أخواتها الزرقاء لسبب مجهول، وتضفي رائحة العشب المبتل مزيداً من الإحساس إلى المشهد المميَّز. في الجوار، تكتسي أشجار الزيتون بأزهارها الصفراء الناعمة لتضيف لوناً آخر إلى خضرتها الدائمة، فيما تتعالى زقزقةُ العصافير المنهمكة في إطعام صغارها داخل الأعشاش، ومن بعيد يتعالى نهيق الحمير وهي تنادي بعضها بعضاً، آملةً بلمّ الشّمل وتبديد الملل. حاولت ترتيب بعض الأفكار، بعيداً عن التوتر والصّخب والجدال، فيما كنت أتملى تلك الفرجة الغربية المفتوحة على البحر، التي طالما ألهبت مشاعري منذ الطفولة.

٦ حزيران/ يونيو ٢٠١١

تحدّثت الأخبار عن هجوم مسلح تعرضت له قوى النظام المختلفة في مدينة جسر الشغور، وذهب ضحيته العشرات[١٠١]، ذلك بعد عدة أيام من المظاهرات ومحاولات قمعها. أعلن المقدم المنشق حسين هرموش[١٠٢] مسؤوليته عن الهجوم على المراكز الأمنية في هذه المدينة، لكن المشاركة في هذه المعارك المبكرة لم تكن تقتصر على العناصر المنشقّة عن الجيش.

حدثني أحد الأصدقاء من منطقة الجسر عن العلاقات المعقدة لمفارز الأمن مع المهربين في تلك المنطقة، ومنها تقاسم غنائم التهريب، وابتزاز المهربين من قبل هذه العناصر، والتنافس بين عوائل المنطقة، والتحاق الكثير من المهربين بخط "الثورة"! كما تحدث بغرابة عن عدم نجدة النظام لعناصره المحاصرين لأكثر من ٢٤ ساعة. كما وردت مثل هذه الأقوال ممَن نجا من هذه المذبحة، التي تلقّى فيها النظام أكبر خسائره في تلك الفترة المبكرة، ومثّلت أخطر إشارة لما ستؤول إليه الأحداث لاحقاً.

وقال الصديق بأنّ المسلّحين شجعوا الأهالي في المناطق الحدودية المحاذية للهجرة إلى تركيا، بحجّة أنها فترة مؤقتة يعودون بعدها إلى بيوتهم بعد سقوط النظام، مثلما حدث أيضاً في مناطق سورية أخرى[١٠٣]. يذكّر ذلك بما فعلته الجيوش العربية بعد قيام دولة "إسرائيل" عام ١٩٤٨، حين طلبوا من الفلسطينيين النزوح مؤقتاً حتى يتم تحرير بلدهم– فلسطين– ومن ثم

---

١٠١ www.bbc.com/arabic/middleeast/**2011**/06/110606_syria_**death**s.shtml

١٠٢ من أوائل الضباط المنشقين، وسيرأس لاحقاً "لواء الضباط الأحرار".

١٠٣ روى بعض المواطنين الذين خرجوا من جوبر للكاتب أن جبهة النصرة طلبت منهم النزوح عن ديارهم لفترة محددة ريثما يتم إسقاط النظام!

يعودون إلى بيوتهم.. مازال الفلسطينيون في الشتات حتى الآن، وما زالت مفاتيح بيوتهم الصدئة تذكِّرهم بذاك الأمل!

١٤ حزيران/ يونيو ٢٠١١

أعداد المتظاهرين والمظاهرات أيام الجُمَع في تزايد مستمر، علاوة على التظاهرات الليلية في باقي أيام الأسبوع. كما تواصل آلة النظام الإعلامية الحديث عن العصابات المسلحة، مع العلم أنّ الأمر كان يتعلق بالمنشقين عن الجيش وبعض المجموعات المسلحة، التي لا يمكن أن تحجب الطابع السلمي للاحتجاجات وضرورة الاستجابة لمطالب المتظاهرين سياسياً.

آفاق الحراك الشعبي في شهره الرابع

بعد أربعة أشهر من الاحتجاجات التي عمّت معظم المدن والبلدات السورية، ازداد زخم المظاهرات وتواترها، ولم تعد تقتصر على أيام الجُمَع. كما لا يزال الفرق شاسعاً بين ما يحدث على الأرض وما يفهمه النظام منه، أو ما يحاول أن يصوّره، في الوقت الذي تجاوزت فيه الأمور تلبية بعض المطالب الخدمية إلى ضرورة إعادة ترتيب البيت السياسي السوري برمته، ومعالجة المسائل الحقوقية والسياسية، التي لا يمكن أن تحصل إلا بالتوازي مع التغيير المتدرج لبنية النظام.

قدّم خطاب الرئيس الثالث[١٠٤] وعوداً بإجراء إصلاحاتٍ سياسية، لكنّه لم يحدد طبيعتها ومحتواها، فبدت فوقيّةً وبلا آلياتٍ ملموسة لتطبيقها على أرض الواقع، فيما اتّسعت فجوة الثقة بين النظام ومعارضيه.

المسكوت عنه في هذه الخطابات والمؤتمرات الصحفية هو غياب الحديث عن سيطرة الأجهزة الأمنية على مؤسسات الدولة والأفراد وتدخلها في أدقّ التفاصيل، جوهر المشكلة في سوريا، فضلاً عن تجاوز هذه الأجهزة لاختصاصاتها والتركيز على حماية النظام[١٠٥]. من دون الحديث في هذا الموضوع صراحةً، يبدو الخوض في المشاكل الوطنية الأخرى أمراً بلا معنى، إذ

---

١٠٤ في ٢٠ حزيران ٢٠١١. حازت الخطابات الأولى لرأس النظام على اهتمام العالم كله، على أمل أن تحصل فيها بعض المفاجآت الجدية، التي تفتح نافذة على حلّ سياسي، لكن عبثاً! لا بل أن المفارقة تمثلت في تلك الانفجارات العاطفية وتصنُّع اللامبالاة للإيحاء بالثقة. كان ذلك أمراً غير مفهوم أو غير طبيعي قياساً لفداحة الحدث وخطورته!

١٠٥ منذ بداية الثمانينات اقتحمت الأجهزة الأمنية المجال السياسي بقوة، وصارت المخابرات العسكرية هي اليد الطولى في الرقابة على المجتمع. تبادلت هذه الأجهزة أدوار السيطرة أكثر من مرة، إلى أن صارت المخابرات الجوية القوة المركزية في القمع بعد اندلاع الأحداث.

لا يمكن استبدال مطلب الحرية، بخاصة التحرر من القبضة الأمنية ووضعها تحت سلطة القانون، بمطالب ثانويةً مثل تخفيض الأسعار أو الحصول على بعض الخدمات!

لم يكن ثمة شيء ملموس ليتم تقديمه كاستجابة لمطالب المنتفضين، خاصة بالسرعة والإيقاع المطلوبين في مثل هذه الظروف. كما لم يكن أيّ من خطابات رأس النظام على مستوى ما حدث في سوريا من قتلٍ واعتقال وتهجير، ولم تزل حالة الإنكار والتجاهل هي السائدة، في محاولة للقول بأنّ الأمور تحت السيطرة، فيما يتلاشى الأمل، تدرّجاً، ليترك الساحة مفتوحة لمزيد من العبث، ويُدخل سوريا في دهاليز المتاهة القادمة.

ترافقت التظاهرات المعارضة للنظام بحشود المسيرات التي ينظّمها مؤيدوه تحت حمايته، شكّل ذلك بدايةً لانقسامٍ اجتماعي ما انفكّ يتصاعد، وسيمرّ بعض الوقت قبل أن يجد المعارضون والموالون أنفسهم عاجزين عن أي فعل أو تأثير، ويتحولون إلى ضحايا صراعٍ عدمي مرير.

لو بدأت مشاريع الإصلاح المزعومة بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين السلميين، بما فيهم معتقلو التظاهرات الأخيرة، ومحاكمة من أطلق النار على المتظاهرين والجيش والسماح بالتظاهر السلمي للمعارضين مثل المؤيدين وحمايتهم من "العصابات المسلحة التي تطلق النار على المتظاهرين والأمن"، لو حدث ذلك لكان منطلقاً يمكن البناء عليه[١٠٦]، ما يفضي لعزل المتطرفين من الجانبين. بخلاف ما سبق لم يكن ثمة حلٌّ يلوح في الأفق، بانتظار توافق دولي لا يبدو أنه سيحصل قريباً؛ بسبب التناقضات العميقة في مواقف الدول المعنيّة ومصالحها.

في هذه الأثناء عُقِد اللقاء التشاوري[١٠٧] للحوار الوطني في دمشق، بحضور نائب رئيس الجمهورية فاروق الشرع، وقاطعه معظم المعارضين في الداخل. خرج اللقاء بتوصياتٍ[١٠٨] غير ملزمة لم يُطبَّق منها شيء، واستمرت الأحداث بالتقدُّم، بثباتٍ، صوب الهاوية!

٢٧ حزيران/ يونيو ٢٠١١

عُقد **مؤتمر سميراميس**[١٠٩] في وسط دمشق بمشاركة نحو ٢٠٠ شخصية من المعارضين المستقلين في الداخل، تحت عنوان "سوريا للجميع في ظل دولة ديمقراطية مدنية"، وواجه المؤتمر هجوماً عنيفاً من المعارضة الخارجية وجماعة مؤتمر أنطاليا[١١٠].

---

[١٠٦] كان الأمر يتطلب شبه معجزة ليقوم النظام بذلك.

[١٠٧] في ١٠-١١ تموز/ يوليو ٢٠١١. www.al-akhbar.com/**node**/16352.

[١٠٨] منها وقف القتل وسحب الجيش والأمن من الشوارع وإطلاق سراح المعتقلين السلميين جميعهم والسماح بالتظاهر السلمي ومحاسبة القتلة، وذلك كدليل حسن نية للبدء بحوار جدي.

كان ثمة ضوءٍ أخضر خجول من السلطة لانعقاد هذا المؤتمر، وتعلَّق المجتمعون بكلمة الرئيس حول أنّ كلّ شيء قابل للبحث فيما يتعلق بالإصلاح، فكانوا يأملون أن يصلحوا النظام مثلما حاول النظام إصلاح المعارضة من خلالهم! ومع أنّهم أكّدوا على معظم مطالب الشارع نظرياً، معترفين بمحوريتها، فقد كان بعضهم يبحث عن دورٍ من خلال إمساك العصا من منتصفها.

٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١١

تأسست هيئة التنسيق الوطنية[iii] في سوريا، وسبقتها بأسبوع حركة "معاً" من أجل سورية حرة وديمقراطية"[iv] بمساهمة مثقفين ومعارضين معظمهم من أبناء الساحل. اعتذرت عن الدعوة للانضمام إلى هذه الحركة، إذ لم أشأ الانتساب إلى تجمُّع ينتمي معظم المنضوين في إطاره إلى المنطقة الساحلية، حتى لا يُفهم الموضوع بصورة خاطئة، أو يستغله أصحاب المشاريع الطائفية من متسلّقي الثورة، الذين كانوا قد بدؤوا ببثّ سمومهم من خلال وسائل الإعلام.

١٣ تموز/ يوليو ٢٠١١

مظاهرة المثقفين بدمشق

سافرت صباحاً إلى دمشق للمشاركة في مظاهرةٍ دعا إليها مثقفون وفنّانون في حيّ الميدان[١١١]. انطلقنا مساءً، صديقي وزوجته وأنا، ووصلنا إلى جوار جامع الحسن متأخرين ٥ دقائق عن موعد المظاهرة في تمام الساعة السادسة.

بدأت الاعتقالات لعدد من الفنانين منذ اللحظات الأولى، ومع ذلك، تقدمت المظاهرة ورُفعت الشعارات. واصل عناصر الأمن التقاط الناشطين وضربهم، وبذلنا جهدنا لتخليص أحد الناشطين الجرحى بلا جدوى، وحصانتنا النسبية هي كبر أعمارنا.

اقترب مني أحد العناصر وهو يهزُّ عصا غليظة في وجهي: "لستم وحدكم مثقفين، أنا أيضاً مثقَّف، وأريد الحريّة!"، وعلى إحدى الشرفات كانت مجموعة من النسوة والفتيات الصغيرات يرددن شعاراتنا بسعادة.

---

[١٠٩] http://www.dp-news.com/pages/video-detail.aspx?vid=198276 . أكد البيان الصادر عن المؤتمر على أنّ المؤتمِرين هم جزء من الحراك الشعبي، كما رفض البيان التدخل الخارجي، وبحث في سبل الانتقال إلى دولة ديمقراطية مدنية، وإنهاء الحل الأمني.

[١١٠] من أوائل مؤتمرات المعارضة السورية. عُقد يوم الأربعاء في الأول من حزيران/ يونيو ٢٠١١، وطالب بتنحي الرئيس وحلول نائبه فاروق الشرع مكانه، ريثما يتم إجراء انتخابات تشريعية. حضره الإخوان المسلمون كمراقبين، وفي اليوم التالي، طاروا إلى بروكسل لعقد مؤتمر آخر، ذلك في سباق للاستحواذ على غنيمة التمثيل المنتظرة!

[١١١] http://www.hamasatdamad.com/vb/showthread.php?t=28957&page=59

تمّ تفريق المظاهرة بقوة حين تجاوزت الشعارات حدوداً معيّنة. لا شك بأن ثمة مشكلة كبيرة في طريقة تنظيم التظاهرات، ولم يُحسب حسابٌ كافٍ لأهمية الحدّ من الاستفزاز، ضماناً لاستمرار المظاهرة أطول مدةٍ ممكنة.

أما المشاعر التي تنتاب الفرد في مظاهرة، بعد عقود على الصمت والخوف، فلا يمكن وصفها ببساطة؛ إنها مزيج من كل المشاعر وقد تكثّفت إلى حدّ الانبهار، كطبخة لذيذة اختلطت فيها الطعوم، فلا تعود تميّز أياً منها. الخوف في المظاهرة مختلف عن مثيله في الظروف العادية، إذ يتوزع على الجميع فلا يبقى منه غير ارتعاشة عابرة!

في طريق عودتنا إلى مكان ركون سيارة صديقي في أحد أزقة حي الميدان، التقينا بعض التجار من معارفه. سلَّم الرجال الثلاثة علينا، وعبّروا، باستخفاف وسخرية مبطَّنة، عن رفضهم لما نقوم به، ولاموا زميلهم الصناعي- صديقي- على مشاركته في المظاهرة، فردّ عليهم بأنّه يدافع عن حريته وكرامته. شعرت حينها بأنَّ مفهوم الحرية والكرامة بدا سقيماً وبائساً كطفلٍ مشرَّد!

كان اثنان من التجار يرتدون بناطيل قصيرة في حارة شعبية لا تستطيع أية امرأة فيها الخروج من دون حجاب أو نقاب. ولفت انتباهي الطريقة المبتذلة التي تحدّث بها هؤلاء، الذين ينتمون إلى تيار عريض من التجار المعتادين على النأي بأنفسهم عن السياسة ومهادنة أية سلطة، على مبدأ: "اللي يتزوج أمي أقول له عمي!" أو "ما دخلنا!"

في مساء اليوم التالي للمظاهرة تم استدعاء صديقي إلى فرع أمن الدولة في جادة الخطيب بدمشق. رافقناه، زوجته وأنا، إلى مكان قريب من الفرع، وانتظرناه في إحدى الكافيتريات. بعد حوالي الساعتين، عاد وأخبرنا بأنّهم طلبوا منه عدم إجراء مقابلات مع السفراء الأجانب في منزله أو مكتبه. وبدوره، كما قال لنا، برّر ما يقوم به من منطلق كونه عضواً سابقاً في مجلس الشعب.. واستمرت اللقاءات بدون إزعاجات جدية.

١٥ تموز / يوليو ٢٠١١

في هذا اليوم كانت جمعة "أسرى الحرية"، ونزل مئات الآلاف من المتظاهرين في مدن وبلدات عدة. كانت الأعداد غفيرةً على نحو خاص في مدينتي حماه ودير الزور، وسقط المزيد من الضحايا. كما نُشر شريط مصور قام فيه متطرفون بذبح بعض الأشخاص في حماه ورميهم في نهر العاصي[١١٢]، ما أثار موجةً من الاستنكار واليأس، مخافة أن يشوه العنف الأرعن

[١١٢] http://i.aksalser.com/vic.flv

مجريات الانتفاضة الشعبية ويقدم المبررات لمزيد من القمع. لا شك أن ثمة عناصر متطرفة وطائفية بدأت في نخر الجسد السلمي للتظاهرات، والعمل على تخويف وتهديد من يعتبروهم أعوان النظام، أفراداً وعائلات، كضرب من التطهير المذهبي، خاصة بالنسبة للعلويين[١١٣]، ما أدى إلى هجرة وتهجير هؤلاء من المناطق الساخنة.

في نهاية شهر تموز ٢٠١١ تم اجتياح مدينة حماه من قبل الجيش، وسبق ذلك إقالة وزير الدفاع[١١٤]لرفضه، كما قيل، استخدام الجيش في قمع التظاهرات.

٢٠ تموز/ يوليو ٢٠١١

جنون الحلّ الأمني

تدحرجت كرة الثلج من درعا لتعمَّ مدناً وبلداتٍ كثيرة، وردّ النظام بطريقة عكست عدم خبرته في التعامل مع التحرُّكات الشعبية، مقارنةً بخبرته الطويلة والعميقة في التعامل مع الأفراد والأحزاب والتنظيمات.

بدأت المظاهرات في المدن الصغيرة والضواحي، حيث البؤس أكبر والسلطة الشمولية أقل حضوراً، فيما ساهم الركود السياسي المديد في تخوُّف البعض من التغيير، فضلاً عن المشاركة في صنعه. وبرغم كل محاولات تحويل مسار الثورة الشعبية إلى العنف والطائفية، كانت الأمور ما تزال ضمن الحدّ الطبيعي الذي يمكن أن يشوب أية انتفاضة من هذا النوع، وذلك من حيث استخدام الوسائل المتوافرة للدفاع عن النفس في بعض الحالات، أو ظهور بعض التوجهات الطائفية بسبب الاستفزازات المتكررة أو بدونها.

اضطر الثائرون للتراجع إلى الأحياء الشعبية التي تشكل ملاذاً آمناً نسبياً في وجه آلة قمع لا ترحم، ما حدّ من التحاق الكثير من أبناء الطبقة الوسطى والمثقفين[١١٥] بالمظاهرات، لتبقى الشعلة متأججة بفضل أبناء الطبقات الشعبية، الذين ليس لديهم الكثير ليخسروه، لكن من السهولة بمكان السيطرة عليهم بالعاطفة أو الحاجة.

ساهم عزل المدن والبلدات والأحياء في حصر النشاطات الثورية في أماكن ضيقة، ما أثار عند الثائرين شعوراً بالغيظ والحنق أحياناً، فكانت طريقة مطالبتهم الآخرين بالمشاركة في

---

[١١٣] استندتُ في ذلك إلى مقابلات مع عشرات الأشخاص الذين لا علاقة لهم بأجهزة السلطة الأمنية والعسكرية كالمدرسين والمهنيين، وللحق فإنهم وجدوا في جيرانهم المساعدة في تأمين خروجهم من الأماكن الساخنة في أغلب الحالات.

[١١٤] العماد علي حبيب.

[١١٥] كما حدث في مدينتي حماه ودير الزور، حيث نزل مئات الآلاف إلى الشوارع (٢٢ تموز/ يوليو، ٢٠١١).

الثورة من أسباب ابتعاد هؤلاء عنها! كما علت الدعوات التي تُلقي باللّوم على المدن الهادئة مثل حلب[١١٦]، متهمة أياها بمساندة النظام، وأنه لن يُسمح للصامتين بالمشاركة في جني ثمار الثورة، ما أثار نوعاً من التوجّس والريبة من مثل هذه السياسات الصبيانية!

في الوقت ذاته، التجأ المتظاهرون إلى قيم تراثية وإيمانية تساعدهم على الصمودً في هذه المواجهة غير المتكافئة، مثل قيم الشهادة والتضامن في الملمّات. هنا صارت الظروف ملائمة لبعض رجال الدين المهووسين ليحشدوا الجهاديين من كافة أنحاء العالم، وبدأ تغلغل القوى المتأسلمة في المشهد الفوضوي لتحويل المطالب الوطنية المستحقة إلى مجرد أوهام ماضوية عقيمة، ولو إلى حين.

***

ترافق تطبيق الحلّ الأمني بالتركيز الإعلامي على بؤر التطرُّف، ومحاولة اختزال المشكلة بصراعٍ مع "المجموعات الإرهابية المسلحة"، التي، بناء على ذلك، يمكن تبرير التعامل معها باستخدام الأسلحة المناسبة. ساعد النظام في ذلك لجوء بعض المتظاهرين إلى السلاح بحجّة حماية المظاهرات، وبدوافع إسلامية واضحة، لتتحول الثورة، تدرجاً، إلى مجموعات مسلحة يقودها أمراء حرب لا يخضعون إلاّ لمموِّليهم، فيما تواجه نظاماً يمتلك مؤسسات الدولة وبقايا شرعية داخلية وخارجية، ما يمكِّنه من حشد قوى لا بأس بها ضدّ معارضيه. وهكذا تسارعت خطوات الحل الأمني في سباق مع الزمن، على أمل السيطرة على الاحتجاجات، في موازاة تزايد الضغوط العربية والأجنبية.

أفضى زجّ الجيش في قمع التظاهرات، ولو بصورةٍ انتقائيةٍ وحذرة، إلى مخاطر كبيرة على وظيفته وتماسكه، فكثرت الانشقاقات في صفوفه من دون أن تتحول إلى انشقاقات "كتلية" ذات مغزى عسكري مهم. كما ساهم استخدام القوى غير النظامية على خلط الأوراق، باعتبار أنّ مرجعياتها وقياداتها يشوبها الغموض، وبالتالي يمكن التنصل رسمياً من ممارساتها أو التزام الصمت حولها. وشيئاً فشيئاً، صار من شبه المستحيل تراجع النظام أو معارضيه بعد أن تشابكت الخيوط الإقليمية في الواقع السوري الهش.

***

كان استمرار الثورة السورية حتى تحقيق أهدافها في التغيير الديمقراطي مرهوناً بعدم الوقوع في المحظورات الثلاثة: العنف والطائفية واستدعاء التدخل الأجنبي خارج إطار المنظومة

---

[١١٦] تعرضت مدينة حلب لاحقاً لأكبر كارثة بعد أن هاجمها "الثوار" صيف ٢٠١٢ من أنحاء الريف الحلبي، ومن ثم تدمير الكثير من أحيائها وسرقة وتخريب منشآتها الصناعية. كان ثمة شبه إجماع من أهل مدينة حلب، الذين التقيتهم على الأقل، على رفض ما حصل تحت أية ذريعة. قدرت مساهمة مدينة حلب بثلث الناتج الصناعي الوطني في عام ٢٠١٠.
http://www.aksalser.com/?page=view_news&id=b95924bc8144a225d880892b16ede1c8

الدولية، لكنّ مجريات الأحداث على الأرض ابتعدت تدريجياً عن تحقيق هذا "الحلم" أو وضعته على الرّف! فالعنف والطائفية هما سلاحا النظام وقوى الإسلام السياسي لتأجيل استحقاق التغيير في الاتجاه الوطني الديمقراطي، بعيداً عن أي استبداد، كما أنّ التدخل الخارجي على الطريقة الليبية، من دون ضمانات دولية لحلّ سياسي، كان سيعقد الوضع أكثر[١١٧].

من جهة أخرى، لم تدفع الظروف الاستثنائية في سوريا المعارضةَ للإسراع في التوحّد والتحلّي بالروح الوطنية– السورية[١١٨]، ريثما تتشكل قوى سياسية جديدة. على العكس، كان الادعاء بتمثيل الثورة سبيل هؤلاء ليكونوا أتباعاً للقوى الإقليمية والدولية، فشكّلت أوراماً معارضة عوضاً عن جسمٍ حيّ معارض. انسحب ذلك أيضاً على مجموعات المسلحين، فضاعت مصالح السوريين وأرواحهم وأرزاقهم في لجّة تضارب هذه المصالح أو تلك، كما تراجعت أهداف الثورة في الحرية والكرامة، واقتصرت، لاحقاً، على مطلب إسقاط الرئيس.

مستعجلين سقوط النظام، قلَّل بعض المعارضين من خطر المجموعات الإرهابية، متذرعين بخطر بقاء النظام ذاته، وهو حقٌّ يراد به باطل؛ فمع أنّ بقاء النظام فترةً أطول لن يفضي إلا لمزيدٍ من التأزم، فإنه لا يجوز الاستخفاف بفداحة المخاطر التي قد تتعرض لها سوريا بعد كلِّ هذا العنف والقمع، بما في ذلك الفوضى المفتوحة، ولا يعفي المعارضة من واجباتها في تقديم البديل السوري الوطني[١١٩]. نشير هنا إلى أنّ تحذيرات عديدة جاءت من مراكز أبحاث عالمية بهذا الصدد، ومفادها أن المعارضة السورية تركز على إسقاط النظام ولا تهتم، بدرجة كافية، بمخاطر المرحلة الانتقالية[١٢٠].

في هذه المعمعة، حاول النشطاء السلميين تدشين تلك التحولات التي قد تفضي إلى عملية التغيير المنشودة، برغم كل التعقيدات والمشاكل التي راكمها النظام الاستبدادي خلال عقود، وعبّروا عن مزيدٍ من النُبل الوطني في أحيانٍ كثيرة. لكنّ استمرار القمع دفع بالقوى الأكثر جهلاً وتطرفاً لاحتلال واجهة الأحداث بقوة السلاح. في ذات الوقت، أعلنت الدول الغربية أن

---

[١١٧] بسبب التنوع السوري المذهبي والقومي وبدء ظهور الانقسامات العمودية في المجتمع، اقتنعت الأطراف الدولية المراقبة بأن لا حلَّ عسكرياً للوضع، وكان بيان جنيف ١ صيف ٢٠١٢ ثمرة هذه القناعة.

[١١٨] اقترح الصديق المفكر جاد الكريم الجباعي استخدام مصطلح "السوري" عوضاً عن "الوطني" في الإشارة إلى ما يجمع السوريين؛ بسبب التباس فكرة الوطنية في هذه المرحلة.

[١١٩] http://www.crisisgroup.org/ar/Regions%20Countries/Middle%20East%20-%20North%20Africa/Egypt%20Syria%20Lebanon/Syria/146-anything-but-politics-the-state-of-syria-s-political-opposition.aspx

[١٢٠] www.**crisisgroup**.org/ar.aspx مجموعة الأزمات الدولية؛ مؤسسة مستقلة غير ربحية تحاول مقاربة الأوضاع الدولية بصورة موضوعية.

النظام قد فقد شرعيته، ودعت رئيسه إلى التنحي، بعد أن طالبته بإجراء إصلاحات سياسية على امتداد ستة أشهر.

أواخر تموز/ يوليو ٢٠١١

الانتقال إلى دمشق

كنا متوجِّسين من العودة إلى منزلنا في اللاذقية بعد أن غادرناه في أواخر شهر أيار/ مايو ٢٠١١؛ بسبب الأجواء العدائية والأذى من الموالين للنظام. خلال الفترة بين شهري أيار وتموز، اتصل صديقي مرات عدة ليقنعني بالانتقال والعيش في دمشق بغية العمل معاً من أجل المرحلة القادمة. كنا قد استضفنا صديقي وزوجته في اللاذقية بعد اندلاع الأحداث في تونس، واتفقنا حينها على متابعة التشاور والتواصل في حال امتدت الاحتجاجات إلى سوريا.

تعارفت وصديقي لأول مرة في عام ٢٠٠٦ على الطريق الدولية بين دمشق وحمص، قرب بلدة دير عطية، وكان قد طلب مني، هاتفياً، موافاته للتعارف، وكنت حينها أدرِّس في جامعة القلمون الخاصة بعد فصلي من جامعة تشرين باللاذقية[١٢١]. منذئذٍ، حصلت بيننا لقاءات عديدة، واستشارني مراراً في أثناء التحضير لاجتماعات "المجلس الوطني" لإعلان دمشق أواخر العام ٢٠٠٦[١٢٢].

أغدق صديقي، على زوجتي وعليَّ، الكثير من الوعود، أهمها تأمين عمل لكلينا، لكن، تبيَّن أنّ هذه الوعود، مع افتراض حسن النيّة، لم تكن سوى بقايا محاولات إعادة اعتبار ذاتية لرجل أنهكه السجن وترك في نفسه اضطرابات عميقة من الصعب تجاوزها[١٢٣]. ما لنا وهذه الأمور الثانوية، فقد كان الهدف الأساس لمجيئنا هو المساهمة في تشكيل تجمع سياسي معارض

---

١٢١ بهذه المناسبة، وبعد فصلي من جامعة تشرين في شهر حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٦، هاتفني المحامي الأستاذ حسن عبد العظيم[١٢١] من إعلان دمشق وطلب مني إعداد بعض الوثائق من أجل رفع دعوى أمام القضاء الإداري بدمشق للطعن في لا دستورية الفصل، وأعلن عن استعداده وتطوعه، مع عدد آخر من المحامين، للدفاع عن المفصولين مجاناً أمام المحكمة. كما زارني وفد من إعلان دمشق مؤلف من ٦ شخصيات، وحمل أعضاء الوفد معهم هدية هي طقم طناجر ستانلس ستيل. استضفناهم على مائدة الغداء، وأصرت زوجتي على أن تطبخ لهم بصورة مميزة، لكن بطناجر أخرى! في حديث مع صديقي بعد سنوات، ذكر لي عرضاً أن هذا الوفد كان قد كُلِّف بنقل مبالغ مالية إلى المفصولين الـ ١٧! فهل كان تبديل المبلغ المالي بالطناجر لفتةً ذكية من الوفد حتى أتقبل الهدية، أم كان ثمة أمر آخر خمَّنته بعد أن نظر صديقي إلى زوجته بصورة معبِّرة؟

١٢٢ إحدى الترتيبات التي كان يُعدُّ لها وراء الكواليس في التحضير لانطلاقة المجلس الوطني لإعلان دمشق، أو رغبة صديقي على الأقل، هي أن تكون السيدة د. فداء حوراني (ابنة الزعيم السوري المعروف أكرم الحوراني) رئيسة للإعلان وأن أكون نائباً لها، لكني عبرت لصديقي عن عدم رغبتي بالعمل السياسي في تلك الفترة، فقد أردت ترميم حياتي بعد فصلي من العمل وتعرضي لحالة صحية. في النهاية، صارت السيدة فداء رئيسةً للإعلان و د. عبد العزيز الخير نائباً لها بعد رفض "علوي" آخر من بعدي هو عباس عباس (رحمه الله) لهذا المنصب. كان من المتفق عليه أن رئيس الإعلان يجب أن يكون "سنياً" بينما يكون نائبه "علوياً"، وبهذا الصدد لمحت مرة بين أوراق صديقي ورقة كتبت عليها أسماء الأعضاء المقترحين للمجلس الوطني لإعلان دمشق، ومقابل كل اسم دُوِّنت الطائفة التي ينتمي إليها!

١٢٣ حتى أنّ أحد الذين ساعدهم صديقي في إنشاء مركز للترجمة رفض طلبه لمساعدتنا في العمل، ولاحظت أنه يكابر في تصديق ذلك، لأنه كان محبطاً بالفعل بسبب ما كان قد قدّمه لمعارضين سابقين من أجل الانطلاق في أصعب الظروف.

ليواكب التطورات المتسارعة، باعتباره ضرورةً ملحة يجب بذل الغالي والرخيص في سبيلها. حصل لاحقاً أن تحوّل صديقي للترويج لاتجاه سياسي إقصائي مدعوم من دول إقليمية بعينها من أجل قطع الطريق على الجهود الهادفة للبحث عن توافقات وطنية داخلية، ومن ثم الحوار والتفاعل مع جميع الأطراف خدمةً للمصلحة السورية، ما أفضى، في نهاية المطاف، إلى مزيدٍ من الارتهان والإخفاق في عمل المعارضة السورية، ووصولها إلى طريق مسدود.

انتقلنا في بداية شهر آب إلى مدينة دمشق، وعشنا في منزل ابنة صديقي الشاغر في ساحة الميسات بالمزرعة لمدة عشرة أيام، كضربٍ من الاختبار على التكيُّف. كان الجو حاراً ولم نعتد العيش في أجواءٍ مكيّفة، فشعرنا بمزيد من الاكتئاب والغربة. ثم عرض علينا الصديق الانتقال إلى منزله بضاحية قدسيا لتسهيل تواصلنا، فاشترطنا توقيع عقد اكتراء نظامي. أخيراً، سكنا في الشقة الأرضية[١٢٤]من المنزل المؤلف من طابقين.

كان صديقي مضيافاً، يعيش نمط حياة يتناسب مع حالته المادية وأسلوبه عيشه الليبرالي، ومن أولئك الذين جنوا المال من خلال تطبيق أنظمة العمل الحديثة في الثمانينات. من جهتنا، علمتنا الحياة الحذر فيما يتعلق بالتعاملات المادية غير المتكافئة إن أردنا الاستقلال في مواقفنا، فلكم أفسد المال علاقات واشترى ذمماً! كانت وظيفة زوجتي، علاوة على عملنا المشترك في الترجمة، هي مصدر العيش، ولم تكن الوعود بتأمين العمل سوى وسيلة لجذبنا إلى دمشق ووضعنا تحت الأمر الواقع، كأتباع سياسيين لا حلفاء، كما اتّضح لاحقاً.

مع ذلك، كان لنا موعد يومي مع أصدقائنا على مائدة الإفطار الرمضانية، حيث استعدنا نمط حياتنا السابق بتناول الأطعمة الطازجة. كما واظبنا على تقليدٍ جمعنا صباح كل يوم جمعة، ألا وهو تناول طبق الفول، الذي كانت زوجتي تتفنَّن في طرائق تحضيره، علاوة على مواعيد شرب الشاي اليومية في المساء. كما أضاف وجود ابنتينا الحيوية والابتسامة على الأجواء المكفهرة بسبب تداعيات الأحداث اليومية الأليمة، وقد جمعتهما مع صديقي وزوجته علاقات ودية، وقدّمتا رسومهما وكلماتهما الحلوة إليهما، مثلما اعتادتا على فعل ذلك معنا.

من الناحية الاجتماعية، شعرنا بالانزعاج من الطريقة التي يتعامل بها بعض الأصدقاء المقرَّبين من صديقي، فحاولنا النأي بأنفسنا قدر الإمكان عن مثل هذه العلاقات التي لا تتناسب ونمط حياتنا، والتركيز على المهمة الوطنية الجليلة التي تنتظرنا، التي من أجلها يجب تحمل

[١٢٤] إنها الشقة نفسها التي عقد فيها اجتماع ''المجلس الوطني'' لإعلان دمشق بداية عام ٢٠٠٧، وكان الأستاذ هيثم المالح قد عاش فيها لمدة شهر مع زوجته، كمتخفٍّ، قبل خروجهما من سوريا! في الواقع كانت هذه الشقة قد صممت لتلاءم الاجتماعات، وهي من بين ما قدمه صديقي للمعارضة منذ ربيع دمشق عام ٢٠٠٠.

كافة الظروف والمخاطر؛ أي المساهمة في إنشاء كيان سياسي جديد كبديل محتمل للنظام، مهمةٌ عظيمة من المفترض أن تخضع لها كل العلاقات الشخصية والاعتبارات!

الفصل الرابع

زياراتنا لأماكن التظاهر

بدأ شهر رمضان في ٣١ تموز/ يوليو ٢٠١١، ترددنا خلال أمسياته إلى أماكن التظاهرات التي كانت تُقام في ضواحي دمشق الثائرة، سواء كوفود معارضة أو كأفراد، حيث تمّ تقديمنا إلى الجمهور بطريقة لبقة. بدورنا، تحدثنا إلى المتظاهرين، معبرين عن التضامن معهم ومقدّرين شجاعتهم وتضحياتهم.

كان مستوى التوتر بين حشود المظاهرين يتناسب طرداً مع شدة القمع والحصار وانسداد الأفق. في ذات الوقت، ازداد التواصل بين المدن والبلدات السورية التي تحتضن التظاهرات أو بينها والعالم الخارجي. مع ذلك، تفاقمت المخاطر، فالحلّ الأمني وعدم إدراك ضرورة التغيير السياسي الجذري زادا من الاحتقان وأخذا الأمور تدريجياً باتجاه التطرُّف، ومع أنّي لم ألحظ في تلك الفترة مظاهر واضحة تشير إلى التسلّح[١٢٥]، فإن درجة الاستثارة بين الشباب أوحت بتغيير وشيك في هذا الاتجاه، رغم الخطاب الرسمي للثورة، الذي كان ما يزال يصرُّ على السلمية.

***

في أثناء زيارتنا إلى حي القدم بدمشق، ضمن وفدٍ معارض، اهتاج بعض الشباب على حين فجأة حين قدَّم أحد الشيوخ الدكتور عارف دليلة ليرتجل كلمةً في الحشد، مشيراً إلى انتماء الأستاذ عارف إلى الطائفة العلوية! عندئذٍ، هاجم بعض المراهقين المنصّة بقوة ومنعوه من إلقاء كلمته، بعد أن تمت مقاطعتها أكثر من مرة. تم حلَّ الإشكال بالحديث عن العلويين الأحرار

---

[١٢٥] ذات مرة، في أمسية تأبين أحد الشهداء في بلدةٍ بريف دمشق، لاحظتُ أنّ الشاب الذي يحاورنا قد وضع مسدساً على جنبه، فحذَّره صديقي من استعماله قائلاً: "أنّ هذا السلاح يمكن أن يقتلك مثلما يمكن أن يقتل الآخرين!" اعتذر الشاب، مع أن ابتسامته كانت تسخر منّا بلا مداورة. بعد عدة أشهر، تبدّلت اللوحة بصورة دراماتيكية، سواء فيما يتعلق بمعظم المتظاهرين أو بالنسبة لمواقف الكثير من المعارضين.

عوضاً عن الطائفة العلوية! كان ذلك مؤشراً على تصاعد المشاعر الطائفية إزاء العلويين وليس فقط ضدّ النظام، مثلما كان مؤشراً على صعوبة ضبط الشارع، وإمكانية أخذ عواطفه في اتجاهاتٍ متباينة.

في تلك الأمسية اعتذرت عن إلقاء كلمة حتى لا يتكرر معي ما حصل للأستاذ عارف دليلة، فيما تحدّث بعض الضيوف بخطاباتٍ أقرب إلى الدعاية لحملة انتخابية، وكضربٍ من الشعبوية التي سيعتمدها الكثير من المعارضين، آملين تحقيق بعض المكاسب السياسية على حساب هؤلاء البسطاء، الذين كانوا من الفقر والبؤس بحيث أنهم لن يخسروا الشيء الكثير، وقد قرّروا المضي حتى النهاية، ومهما حصل!

على شرفات المنازل المحيطة بالساحة، راقبت النساء المتَّشحات بالسواد المشهدَ الذكوري المضطرب بتكاسل، دون أن تبدو على ملامحهنَّ مشاعر محدّدة؛ ربما شعرن بالخوف على المقرَّبين، أو أنهنَّ أملن في أن تنعكس التطورات المرتقبة على حريتهنَّ وسعادتهنّ، أو سخرن في أعماقهنّ من كل هذه الشعارات المضلِّلة، سواء منها السياسية أو الدينية!

***

من أكثر الذكريات التي لامست قلبي كانت تلك المشاعر التي انتابتني في إحدى أمسيات الثورة في حيّ برزة. ذات مرة، استُقبلنا بحفاوة، وارتجلت كلمة بسيطة حملت كلّ التضامن والمحبة لهؤلاء الناس، أبناء بلدي، وقد شعرت أنّي ألتقيهم بعد فراقٍ طويل، واغرورقت عيناي بالدموع. وفيما كنت أتحدث من وراء الميكرفون، تقدّم أحدهم وهمس في أذني، طالباً الترحيب بوفدٍ نسائي وصل لتوّه إلى المكان، من بينهنَّ الكاتبة ر. ف، التي كانت قد خرجت من المعتقل عصر اليوم ذاته. لم أكن أعرفها، وتوجّهتُ إلى واحدة من زميلاتها بالحديث، لكنّي تفاجأت بتقدُّم الكاتبة من الجهة الأخرى لإلقاء كلمتها، فشعرت بالخجل.

في النهاية، صفّق الشباب لوداعنا طويلاً، ويبدو أن كلمتي تركت أثراً طيباً في نفوسهم، فتقدّم أحدهم نحوي قائلاً: "نحن نصفق لضيوفنا بأيدينا يا دكتور، أما اليوم فنصفق لك بقلوبنا!" إنها العبارة التي تركت أعظم الأثر في نفسي، وستبقى أهم الأوسمة السورية التي حزتها في تلك الأوقات المُفعمةَ بالأمل.

***

وفي زيارة لوفد من المعارضة إلى حيّ القابون، تتالت الكلمات من وجهاء الحي والضيوف في إحدى الصالات العامة[١٢٦]. لفت انتباهي خطابٌ وطني أذهلني بدقة عباراته حين

---

[١٢٦] في جمعة أسرى الحرية، ١٥ تموز/ يوليو ٢٠١١، وقبل يوم واحد من الموعد المقرر لانعقاد مؤتمر الإنقاذ الوطني في هذه القاعة، تم إطلاق النار على مظاهرة مجاورة وقتل ١٤ متظاهراً. كانت رسالة واضحة من السلطات بخصوص منع انعقاد هذا المؤتمر، وكان بعض المؤتمرين سيجتمعون في اسطنبول في ذات الوقت برئاسة هيثم المالح (٢٠١١/٧/١٦).

استعرض الوضع السياسي السوري منذ الخمسينات. كان الخطيب في حوالي السبعين من العمر، وقيل لي أنّه فلاّحٌ بسيط من الغوطة. اعتبرتُ الرجل حالةً، من بين حالات عديدة، تشير إلى يقظة السوريين بعد عقودٍ من الصمت والاغتراب. في تلك الأمسية، التقينا بوفود من الناشطات والناشطين الذين قدموا من محافظات مختلفة، منها محافظة اللاذقية.

***

في زيارةٍ إلى مدينة دوما لمست اهتياجاً بين الشباب، ووجد الخطباء صعوبةً في تهدئة الحشد على خلفية استشهاد أحد الشباب على حاجزٍ قريب عصر اليوم ذاته. كان الخطباء، منهم إسلاميون معتدلون وقياديون في حزب الاتحاد الاشتراكي، يتحدثون بلغةٍ متقاربة، كأنّ ثمة حالة استرجاعٍ لوصل ما انقطع منذ الخمسينات، حين خاضت سورية تجربة ديمقراطية معقولة بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨، وتعايشت فيها القوى السياسية على نحوٍ مقبول.

وفي زيارةٍ ثانية لوفدٍ من المعارضة إلى هذه المدينة، بعد مضي حوالي الشهر، لمستُ مؤشراتٍ على انتشار التطرُّف في بيئة الثورة بسبب انسداد الآفاق، مستقرئاً بعض الحوادث المتفرقة، ولكن ذات الدلالة[١٢٧]. لم يأخذ الكثير من المعارضين الساهين مثل هذه التخوفات على محمل الجد؛ ربما لأنّهم اعتقدوا أنّ النظام سيسقط قبل أن تتحقّق، أو لأنهم استساغوا إلقاء الخطابات الشعبوية!

في تلك الأمسية الرمضانية، حصلت حادثة مربكة. كنتُ أتحدث من على المنصة بكلمات تضامنٍ تناسب حشدٍ ضم أكثر من ٥٠٠٠ آلاف متظاهر، حين اقتربت سيارة من مؤخرة الحشد، فظن المتظاهرون بأنها ستنفجر بينهم. فجأةً، نهض الشباب الصغار الجالسون أمام المنصّة والرعب يملأ عيونهم، واندفعوا باتجاهي هروباً من خطر ما بدا وشيكاً. في طريقهم، جرفوا مضخِّمات الصوت والميكرفون وأوقعوني أرضاً. انتقل الرعب إليَّ غريزياً، فركضت معهم مبتعداً عن الخطر. لم أدرك ما فعلته إلا حين وجدت نفسي أعبر تقاطعاً مزدحماً توقفت فيه السيارات العابرة لتسمح للمتظاهرين بالمرور والابتعاد. شعرت بالخجل الشديد وعدت أدراجي إلى المنصة، حيث كان أحد الشيوخ يحاول تهدئة الحشد وطمأنته، فيما كان المعارضون الضيوف يعودون إلى كراسيهم، التي ابتعدوا عنها قليلاً، إذ لم يكن بوسعهم الركض!

خبرت ذلك الخوف الغريزي من الموت أكثر من مرة في أثناء التظاهرات، حيث كل طلقة قد تأخذ مسارها نحو القلب، لكنّ رعب الموت الذي انتقل إليَّ بقوة من الحشد في هذه المرة

---

[١٢٧] لم يضبط بعض الشباب أنفسهم وهم يتحدثون إلينا واستفزوا كل من حاول حوارهم، غذ لم تعد تلك الخطب الرنانة تعني لهم شيئاً.

لم يكن له مثيلٌ؛ إحساس ما بأنّ الموت قد حصل، أو أنّ رصاصةً اخترقت جسدي أو تكاد، ولم أعِ أنّ أصوات الرصاص التي سمعتها حينئذٍ كانت حقيقيةً أم متخيَّلة، بعيدةً أم قريبة!

اعتقل بعض الشباب قائد السيارة واقتادوه باتجاه المنصة، وهم ينهالون عليه باللكمات، فيما وجَّه أحد الشيوخ نداءات ملحة للرأفة به وإيصاله إلى المنصة بسلام. أخيراً، وصل السائق سليماً معافى وجلس يدخن سيجارةً تمهيداً للتحقيق معه بعد مغادرة وفدنا! هنا لا بدّ من التنويه إلى ما قام به الصديق الأستاذ ف. س. والذي اندفع بجسده الضخم نحو الحشد ليخلِّص السائق الشاب من أيادي الذين كانوا يحاولون ضربه بقوة، مذكِّراً إياهم بتناقض مثل هذه التصرفات مع القيم التي يثورون من أجلها[١٢٨].

كما حضرت تشييعاً لأحد الشباب الذين استشهدوا في مظاهرة بحي ركن الدين بدمشق. كانت أعداد المشاركين كبيرة ويصعب حصرها؛ بسبب تعرجات الطرق وضيقها. وعند مرورنا بجانب أحد المؤسسات الحكومية التي ألصقت على جدارها صورة للرئيس، اهتاج الشباب وساعدوا أحدهما في تسلق الحائط ليمزّق الصورة بخنجره. لم تتعرض العناصر الأمنية لمجريات التشييع ولا للأمسية التي تلته، والتي حضرتها وفود وشخصيات معارضة كثيرة.

***

على العموم، كان ثمة الكثير من المشاعر المفعمة بالآمال رغم الظروف الصعبة، مع أنّ تقديمي بصفتي الطائفية كان يزعجني بعمق، إذ كيف لمن عاش حياته كوطنيٍّ وكونيّ أن يقبل تحجيمه إلى مجرد مُنتج لثقافة محلية، واختصار هويته متعددة الجوانب بأحد مكوناتها؟ مع ذلك تقبَّلت الأمر على مضض، طالما أنه يطمئن البعض!

تحدّث معظم الخطباء المحليين في هذه الأمسيات بلغة وطنية جامعة، هي من نوع من الإسلام الليبرالي[١٢٩]الذي أنعشته الثورة، وكنت أعود منها بمعنويات عالية. مرّة، قال لي أحد الشيوخ في مدينة "دوما" أنّ وجودي معهم لا يساعد "طائفتي" فقط، إنما يساعدهم أيضاً في السيطرة على جزءٍ من الشارع تسوده مشاعر طائفية إزاء العلويين. في تلك الأثناء، فعل القمع وغياب الحلول السياسية فعله في إذكاء نار الاحتقان، والتمهيد لموجة التسلُّح التي بدأت تتقدم باضطراد بعد شهر رمضان/ آب ٢٠١١.

---

[١٢٨] ربما أخطأت في هذه الأمسية حين ذكرت ما فعله أنصار النظام بي، باعتبار أن ذلك من المظالم البسيطة التي لم يكن من المناسب الحديث عنها في وقتٍ صار الثائرون يدفعون الثمن من دمائهم.

[١٢٩] سيظهر الشيخ معاذ الخطيب كأبرز الشخصيات الشامية التي مثلت هذا الاتجاه، والذي ترأس الائتلاف الوطني السوري، ثم استقال منه بعد خلافات حادة.

على العموم، في أثناء زياراتنا كمعارضين، كان الشباب يستجيرون بنا من أجل تمثيلهم وإيصال صوتهم إلى العالم، لكن الآمال التي علَّقها الشارع على المعارضة كانت أكبر من إمكاناتها؛ لأسباب ذاتية وموضوعية سيجري الحديث عنها لاحقاً. حتى ذلك الحين. كانت المعارضة التقليدية تحاول القيام بدور لم تعتد عليه، وفي ظروف مختلفة كلياً.

في أواخر شهر أيلول، خلال زيارته للمنزل الذي كنت أسكنه، أخبرني أحد السياسيين، الذي ادّعى أنّ له علاقة وثيقة بالحراك في ريف دمشق مثله مثل الكثير من الشعبويين والانتهازيين، بأن الأمر قد حُسم فيما يتعلق بخيار التسلُّح، وأن المراهنة على حدوث انشقاقات في الجيش قد انتهت؛ لأنّ معظم قياداته من الطائفة العلوية. كان كلامه قاطعاً، وبدا أشبه بإنذار أكثر من كونه نقاشاً أو استئناساً برأي، نبس ببنت شفة! في الواقع، كان أمثال هؤلاء المعارضين يتمنَّون حدوث ذلك ليتباكوا من على شاشات التلفزة على "شعبهم"، في الوقت الذي بدؤوا فيه بحزم حقائبهم استعداداً للرحيل إلى أوروبا، بمساعدة سفراء الدول الأوروبية المعتمدين في دمشق!

شعرت بأنّ الثورة، أياً كانت المبررات، ستدخل مرحلةً جديدة أخطر من كل التوقعات، وأذكر أنني لم أنم تلك الليلة، فالحرب المفتوحة على كل الاحتمالات صارت قاب قوسين أو أدنى. منذئذٍ، بدا أنّ ثمة من يحاول ركوب الثورة واحتكارها من خلال العسكرة والشّحن الطائفي للشارع.

في ذلك الحين، كان قد اعتقل الكثير من قادة ومنسقي الانتفاضة السلميين، وترك غيابهم فجوة سيتم ملؤها بعناصر شبه أميّة، والذين لم يتأخروا في تلقُّف موجة التسلُّح القادمة بهدف معلن هو الدفاع عن النفس وحماية التظاهرات، فأصبح القادة على الأرض هم، بصورة ما، "زكرتاوية" الحارات الشعبية[١٣٠].

جولة في شوارع اللاذقية

في أوائل أيام شهر رمضان عدتُ إلى اللاذقية لإحضار بعض الحاجات من البيت، واغتنمت الفرصة للتجول مساءً مع بعض الأصدقاء في حي "الصليبة" من أجل مراقبة الاحتجاجات عن كثب. مكثنا بعد صلاة التراويح في إحدى الشقق في الطابق الثالث من إحدى البنايات. لم تلبث أن تعالت صيحات التكبير من الشباب في الشارع كضربٍ من التحدّي. ثم ظهرت إحدى سيارات الأمن، ترجَّل منها أحدهم وأطلق النار من بندقيته في الهواء، فركض الشباب نحو الأزقة الجانبية ودخلوا الأبنية، التي كانت أبوابها تُترك مفتوحة ليتمكَّن المتظاهرون

---

[١٣٠] حضر شاب ينتمي إلى إحدى عائلات حرستا إلى بيت صديقي، واشتكى بأن عائلته لا تملك سوى عدة بنادق صيد، في حين أن عائلة أخرى صار لديها حوالي ٣٠٠ بندقية حربية.

من الاحتماء بها عند الضرورة، وحتى الدخول إلى أية شقة عند الخطر، في مظهر رائعٍ من مظاهر التضامن. في ذلك الحين، كانت الشجاعة المفعمة بالأمل وروح التضامن وحبّ الحياة تنتقل كموجاتٍ عبر الأثير؛ مشاعر جديدة لم تعرفها عدة أجيال من السوريين!

***

في يوم جمعة آخر في اللاذقية، في حيّ "العوينة" تحديداً، مشينا في الشارع لمراقبة حركة الناس بعد صلاة الظهر. كان التظاهر شبه مستحيلٍ؛ بسبب كثافة سيارات الأمن التي تجوب الشوارع، ومع ذلك تمكنّ بعض الشباب من التجمع في حيّ القلعة لدقائق، فقط من أجل تصوير فيديو عن المظاهرة.

وفيما كنّا نسير على أحد الأرصفة، أطلق مراهق شتيمة عند عبور شاحنة صغيرة محمّلة بما يطلق عليهم قوة مكافحة الشغب. توقّفت الشاحنة، وترجَّل منها عدة أفراد لملاحقة الصبي، الذي اختفي تحت باب جرّار نصف مفتوحٍ لأحد المحلاّت. بدورنا، تجمّدنا في أماكننا حتى لا نصبح هدفاً للعصي الكهربائية، إذ لم يكن بوسعنا الهرب بعيداً.

الفصل الخامس

جدلية الأسلمة والعسكرة

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) [١٣١].

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية من يدٍ وهم صاغرون) [١٣٢].

مقارنة بسيطة بين هاتين الآيتين، على سبيل المثال لا الحصر، تظهر بجلاء كيف استجابت الآيات القرآنية للظروف الملموسة التي واجهت الدعوة المحمدية من أجل إرساء أركان الدين الجديد. لا بل أنَّ آيات لاحقة قد نسخت ما قبلها مع تغير الظروف في الفترة التاريخية المحدودة التي استغرقتها الدعوة[١٣٣] وانتهت بنزول الآية التي "اكتمل" فيها الدين في خطبة حجة الوداع[١٣٤].

إن ذلك لأمر منطقي يعكس التغيرات التي تحدث في واقع الحياة والاستجابة لها في حينها، ولذلك، قد نجد الكثير من التناقضات عند اجتزاء آياتٍ أو نصوص محددة من سياق الهدف الأساس لدين الإسلام، والذي تمثَّل، سياسياً، بإحداث نقلة نوعية إلى الأمام من مجتمع القبيلة إلى الدولة المركزية، انطلاقاً من قبيلة قريش في حاضرة مكة، التي كانت قد وصلت إلى درجة مدنية متقدمة من الناحيتين المادية والروحية؛ بفضل التجارة، والاحتكاك بالإمبراطوريتين الرومانية والفارسية على وجه الخصوص[١٣٥]، في حين يعتبر "اكتمال الدين" مناقضاً، ولو ظاهرياً، لاستجابة الوحي لمتطلبات الحياة.

ما حدث لاحقاً، في الغالب، أن تمّ تجميد هذه النصوص لا استلهامها، فيما استمر نهر الحياة بالتدفق، إلى أن حدث الانفصام الأكبر في التاريخ الحديث، المتمثل، على وجه العموم، باغتراب الشعوب الإسلامية عن مجريات التقدم العقلي والعلمي.

---

[١٣١] الآية ١٧ من سورة الحج.

[١٣٢] الآية ٢٩ من سورة التوبة.

[١٣٣] حوالي ٢٣ سنة.

[١٣٤] الآية ٣ من سورة المائدة: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا.."

[١٣٥] يمكن التوسع في هذا المجال بالاطلاع على العديد من المراجع، منها كتاب خليل عبد الكريم: قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٣، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

وعلى الرغم من فتح باب الاجتهاد، لم يُفهم منه غالباً غير القياس المبسّط، الذي ما كان له أن يتعمّق بعد أن تشكلت الامبراطوريات التي حكمت باسم بالدين؛ بسبب حاجتها لفقهاء لا تتعارض اجتهاداتهم مع طموحات قادتها وتطلعاتهم السياسية. وبالتالي، اقتصرت اجتهادات هؤلاء على إطلاق الدعوات من أجل العودة "المبهمة" إلى "الدين الصحيح"، وما ارتبط بهذه الدعوات من حركات استبدلت صعوبة التعامل مع الواقع باستسهال الدعوة للعودة المستحيلة إلى الماضي، وذلك في كل مرة كان يعجز فيها المسلمون عن التكيف مع التطورات المعقدة التي تحيط بهم، وما زالوا.

يصل التطرُّف الديني إلى مداه الأقصى حين يأخذ النصوص بحرفيتها، بعيداً عن البحث عن أبعادها وتأويلاتها وملاءمتها للواقع المتحوِّل باستمرار، وينسحب التقديس على ما هو ليس بمقدس. كما يتم اتباع الأحاديث والفتاوى دون عميق تمحيص، فيستسهل التكفير في غياب التفكير، وما إن تسنح الفرصة للتكفيريين حتى يخرجون للقتال خبط عشواء، كونهم شجعان إلى حد التهور، كمراهقين بلغوا سن الحلم ولم يبلغوا سن الرشد، متجاوزين تعقيدات الواقع طمعاً بملذّات السماء، فيطبقون على الأوطان بظلاميتهم ويتشبثون في الخراب الذي يألفون، يتبادلون المواقع والرايات، يكفِّرون الآخرين، ويقتتلون إنْ افتقدوا ضحاياهم.

تتلاعب أنظمة الاستخبارات العالمية بهذه الجماعات مثلما يتلاعب عقل بعاطفة هوجاء حتى يخرجوا عن السيطرة، فيأتي دور القوة لتفتك بهم، لتعود الحواضن المجتمعية الجاهلة والمجهّلة لاستنبات جماعاتٍ جديدة.. وهكذا. كما توجه الأنظمة المستبدة هذه الجماعات لتأمن شرّها، ويعرف الاستبدادان، الديني والدنيوي، ما يجمعهما في لحظة تبصُّر وتجلٍّ؛ إنه ذلك القاع الذي يختمر فيه الجهل والفقر والقهر واليأس، من حيث يحصلان على المَدَد، وبين تخوين هذا وتكفير ذاك يحلّ الخراب في البلاد!

***

غنيٌّ عن القول بأنّ سوريا، بلد الصمت والخوف، افتقدت الحياة الديمقراطية الطبيعية منذ قيام الوحدة مع مصر على وجه الخصوص، وتمّ قمع مختلف أشكال النشاطات السياسية والحقوقية، ما لم تكن مرتبطة بمصالح الأنظمة الاستبدادية المتعاقبة. وحدها القوى الإسلامية حظيت ببنية تحتية لا يمكن إلغاؤها؛ إنّها الجوامع، التي بني الكثير منها في السبعينات إلى جانب مئات معاهد تحفيظ القرآن، فكانت الفضاءات التي تعزّزت فيها أحلام "دولة الإسلام."

في الجوامع أيضاً تشكلت نوى معظم التظاهرات في بداية الحدث السوري؛ لأنها الفضاء الاجتماعي الوحيد. لم يرق ذلك بالطبع لأولئك الذين غالوا في حذرهم من الطابع الإسلامي للثورة، فشككوا في وطنية المتظاهرين، مع أن البعض كان يدخل إلى الجوامع فقط ليخرج في

المظاهرة، وأن جزءاً مهماً من المتظاهرين كانوا ينضمون إلى المظاهرات بعد خروجها من الجوامع.

في غياب القيادات الوطنية أو تغييبها، وبعد أشهر من التظاهر ذي الطابع العام السلمي، كان من الصعب إقناع الذين يتعرّضون للقمع باستمرار سلمية الثورة، خاصة وأنّ من بقي في الشارع كانوا من الفئات الشعبية التي يمكن دفعها للتضحية من خلال دوافع عقائدية دينية يسهل التلاعب بها. هنا، تم استخدام المنشقين عن الجيش، الذين رفضوا بنبالة إطلاق النار على المتظاهرين، كغطاءٍ لموجة تسلُّح عارمة تحول فيها هؤلاء المنشقون إلى أقلية في عداد عشرات المجموعات التي بدأت تطلق على نفسها تسميات إسلامية فاقعة. ترافق ذلك بتوجُّه لتسمية أيام الجُمَع على المنوال نفسه، خصوصاً منذ بداية عام ٢٠١٢[١٣٦]، فتراجعت الشعارات الوطنية التي رفعها المتظاهرون في الأشهر الأولى إلى المرتبة الثانية، ووقع الناشطون وسلميَّتهم بين تقاطع النيران.

بذلك حصل النظام على ما يريده، فالشارع يُشحن طائفياً و"العصابات المسلحة" صارت موجودة وتدعى "الجيش الحر"، وبوسعه أن يقول للعالم: "انظروا.. هذه هي العصابات بشحمها ولحمها!" في ذات الوقت، ادّعى "الجيش الحر" سيطرته على بعض المدن والبلدات، ما أفضى لتحولها ميداناً للمعارك.

في هذه الأثناء، صار "الجيش الحر" "أيقونةً" في المناطق الثائرة، وأصبح نقده من المحرمات؛ لأنه يحمي المتظاهرين والأحياء المنتفضة، التي سرعان ما تصبح غير قابلة للعيش. مع أنه من الصعب معرفة حقيقة مواقف الناس العاديين في تلك الفترة، ولا حجم الاختراقات التي قامت بها جهات عديدة، ومنها النظام، داخل مجموعات "الجيش الحر".

تطلبت أسلمة الثورة وعسكرتها أداة تجييشٍ وحشد سرعان ما وجدت ضالتها في الشحن الطائفي، على أمل أن يمهد ذلك لوصول الإسلاميين إلى السلطة، في حين يستحيل عليهم ذلك بالأساليب السلمية والديمقراطية. وهكذا، ارتبطت عسكرة الثورة منذ خريف ٢٠١١ بأسلمةٍ استبدلت النظام بالطائفة العلوية، والأقليات على وجه العموم، كعدو، وتمكنت خلال سنتين من ابتلاع التشكيلات ذات التوجهات الوطنية، وهي "لواء الضباط الأحرار"[١٣٧] و"الجيش السوري

---

[١٣٦] https://www.facebook.com/notes/khaled-altaleb/%D8%AA%D9%88%D8%AB%D9%8A%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%85%D8%B9-%D9%85%D9%86%D8%B0-%D8%A7%D9%86%D8%B7%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A9-/%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9/165536546931853

[١٣٧] تشكل لواء الضباط الأحرار في شهر حزيران/ يونيو ٢٠١١ بقيادة الرائد حسين هرموش.

الحر"[١٣٨]، وتحوُّل آلاف المنشقين عن الجيش للاستقرار في تركيا والأردن، بعيداً عن غبار المعارك[١٣٩].

ثم تعددت مرجعيات قوى الإسلام السياسي المسلَّحة تبعاً لمصادر تمويلها، وحظيت بدعم قنوات إعلامية عديدة، على رأسها قناة الجزيرة القطرية، فتم إيقاظ الفتنة الطائفية من رقادها، وحمل الخلاف العقائدي السني– الشيعي إلى الواجهة، والعزف على وتر الأقليات والأكثرية، ونشر ضباب الأوهام الدينية لاستيعاب شارعٍ محاصر بدأ يفقد الأمل بأية مساعدة دولية، لطالما وعده بها معارضون مغمورون كانوا قد حضَّروا أنفسهم للدخول إلى سوريا كفاتحين.

***

بعد قيامه بجولةٍ في مدينة حمص خريف ٢٠١١، وضعنا أحد الناشطين في صورة العسكرة والتمويل، وعملية انتقال المبادرة من المنشقين عن الجيش إلى المسلحين المدنيين، الذين اتخذوا لأنفسهم راياتٍ إسلامية، وفقاً لما يبتغيه ممولوهم السلفيون والوهابيون، فبدؤوا بحلق شواربهم وإطلاق لحاهم[١٤٠] من أجل استجلاب مزيدٍ من الدعم. في هذا السياق، قيل عن تورط بعض أوساط حزب المستقبل اللبناني في عملية التسليح[١٤١]، علاوة على الحالات التي ساهم فيها فاسدو النظام بتزويد المسلحين بالذخائر، كما ذكر أحد الناشطين.

---

[١٣٨] تشكل الجيش السوري الحر في شهر آب/ أغسطس ٢٠١١، ثم اتحد مع لواء الضباط الأحرار في شهر أيلول/ سبتمبر، وخاض أول المعارك الحقيقية مع الجيش النظامي في مدينتي الرستن وتلبيسة أواخر هذا الشهر.

[١٣٩] http://mtv.com.lb/News/299854
بحسب هذا التقرير، يبلغ عدد الضباط المنشقين في الأردن وتركيا، الذين لا يشاركون بأنشطة قتالية، ٣٠٠٠ ضابط. قال لي أحد الضباط المنشقين مرةً: "نحن، كعسكريين، نستطلع ما حولنا جيداً في النهار قبل أي فعل، فكيف نعمل وسط الظلمة الحالكة؟" كان يقصد بذلك العمل مع التنظيمات الإسلامية.

[١٤٠] فرضت الجهات الداعمة الخليجية، علاوة على تركية حزب العدالة والتنمية، أيديولوجيتها على المقاتلين، ما تطلب أسلمتهم شكلاً على الأقل، مثلما حدث في الحرب الأهلية اللبنانية حين تحولت "المقاومة الوطنية اللبنانية" إلى اليسار؛ أي إلى أيديولوجية الداعم حينئذٍ، الاتحاد السوفييتي. (فكرة المقارنة تعود للصديق الياس دبانة).

[١٤١] http://www.alahednews.com.lb/82027/76/-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D9%84-%D9%85%D8%AA%D9%84%D8%A8%D8%B3%D8%A7%D9%8B-%D8%A8%D8%AA%D9%88%D8%B1%D8%B7%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D9%8A-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B3%D9%83%D8%B1%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7#.V9xLUtR95kg

الملفت في الأمر أنّ الصف الأول على الأقل من السياسيين المعارضين كانوا مطلعين على هذه الحقائق، لكنهم سكتوا عنها في الإعلام من أجل ألاّ "يغضبوا الثوار على الأرض!"[١٤٢] و"عدم الإساءة لسمعة ثورة حلمنا بها طويلاً!"

مثَّل التسلُّح غير المنضبط، وغير الخاضع لقيادة سياسية، خطراً محدقاً، وتزايد نفوذ المسلحين الذين يعملون تحت غطاء "الجيش الحر" أو بدونه. وما لبثت التنسيقيات أن خضعت بدورها للسلاح بحجّة أولوية المعركة، ما يذكِّر بشعار "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" الذي رفعته الأحزاب القومية في الستينات لتأجيل الكثير من الاستحقاقات الوطنية والديمقراطية، ذلك أنّ القاسم المشترك بين الحالتين هو استغلال عواطف الفئات الشعبية، التي سيدفع من بقي من أبنائها ثمناً باهظاً؛ الموت والحصار والتهجير، بعد أن احتضنت الثورة في أصعب الظروف.

ترافقت العسكرة مع شحن طائفي ممنهج، وارتفعت في بعض أوساط فصائل المسلحين نبرات مذهبية، مثل "حُماة السنّة وأسودها"، وتم استبعاد كل ما هو غير "سني" تدريجياً بمختلف الحجج، في الوقت الذي طالبوا فيه الآخرين بتقليدهم وتشكيل كتائب مسلحة مذهبية[١٤٣]. مهّد ذلك لتوافد المقاتلين من الخارج لـ "نصرة إخوتهم"، الذين قاموا بسبي النساء والأطفال ومارسوا القتل والخطف على الهوية ما استطاعوا[١٤٤]، فعلق السوريون بين قتل وقتل مضاد، وتشبيح وتشبيح مضاد.

أدت مثل هذه الممارسات إلى تخندق الكثيرين خلف النظام وجيشه، مثلما يحدث في أي صراع مسلح، لا لحبهم بالنظام، بل لغموض المستقبل والتوجه الإسلاموي الذي يشكّل رهاباً للبعض بحقّ. وهكذا، كلّ ما أراده النظام من تطييف وعسكرة فوضوية تكفّلت به القوى الإسلامية المسلحة وترجمته على أرض الواقع، ما أفقد الانتفاضة/ الثورة السورية، التي ارتكبت مثل هذه الممارسات والجرائم باسمها، المزيد من التضامن الدولي والعربي، وبدا أن الجميع قد تخلوا عن الاهتمام الجدّي بالوضع السوري، الذي اتّجه إلى مزيدٍ من العنف العدمي.

---

[١٤٢] ذكر هذا الناشط، على سبيل المثال، حالة إحدى الكتائب في حمص القديمة، كان قائدها أ. ع. عسكر الممول من جهات سلفية خليجية، والذي يتحكم بعدة ضباط منشقين من خلال تزويدهم بالذخيرة وبالطعام!

[١٤٣] ومع ذلك كانت قد قامت محاولات عديدة ضمن صفوف "الجيش الحر" من أجل تجاوز حالة الطائفية على قاعدة الشعب السوري واحد في دولة واحدة، ومن أهمها "كتائب الوحدة الوطنية في إدلب". انظر:
http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:5sZN1FfwgQcJ:all4syria.info/Archive/56209+&cd=9&hl=en&ct=clnk

[١٤٤] خاصة ما حدث في ريف اللاذقية بتاريخ ٢٠١٣/٨/٦
saved&https://www.facebook.com/photo.php?v=369257419867965
وفي مدينة عدرا العمالية بتاريخ ٢٠١٣/١٢/١١- http://www.al-akhbar.com/node/217837
وفي قرية اشتبرق بجسر الشغور أواخر شهر نيسان ٢٠١٥،
https://www.youtube.com/watch?v=pOJce9Imbb8 ، وفي قرية الزارة بريف حماه بتاريخ ١٣ أيار ٢٠١٦ www.al-akhbar.com/node/257784 وغيرها.

أخيراً، وصل "الحنق الثوري" إلى غايته من خلال مشاركة النظام مقولته الشهيرة عن المؤامرة، وانقياد معظم المسلحين وراء فتاوى المشايخ وترّهاتهم، واعتمادهم على محاكمهم الشرعية، عوضاً عن المجالس المحلية المنتخبة، الموجودة أو المقترحة، بهدف تغييب مؤسسات الدولة وليس بسبب غيابها[١٤٥]. نجم عن ذلك كلّه انقسام اجتماعي ما انفكّ يتزايد، إذ لا يمكن لنصف السوريين على الأقل تأييد العسكرة أو الأسلمة، كلٍّ على حدة، فكيف إنْ اجتمعتا معاً؟

كانت الظروف الدولية قد تغيرت في العقد الأخير، فلا أمريكا هي أمريكا التي كانت عند اجتياح العراق، ولا سوريا مثل ليبيا، خاصةً بعد أن تبلور قطب دولي يدافع عن النظام بقيادة روسيا وإيران، وظهر الحضور القوي لمنظمة "القاعدة" وأشباهها على الأرض السورية.

دعا المتسلّقون على الثورة أيضاً لعدم مساواة الضحية بالجلاد. هذا كلام حقّ قبل انتشار العسكرة المتأسلمة، ويصحُّ في حالات الدفاع عن النفس فقط. لكن، كيف يستقيم ذلك إذا كان "الضحايا" هم من المسلحين التكفيريين وبعض المنفلتين وقطاع الطرق، الذين اتخذوا أحياناً من "الجيش الحر" غطاءً لممارساتهم الإجرامية، وزادوا عليها لو تمكّنوا، فهل ننظر لمن يمارس مثل هذه الأعمال على أنّهم ضحايا؟ أو هل نبرّر للضحية تقليد ممارسات الجلاد حين تتساوى معه في القوة؟ وما العمل إن تساوت معه في القوة أو فاقته، هل ينقلب دور الضحية إلى دور الجلاد؟ من يحدد قواعد الاشتباكات في مثل هذه الحالات؟ أو هل يختلف التفجير الإرهابي الذي يستهدف المدنيين عن القصف الجوي؟ كانت كل تلك الممارسات، مضافةً إليها عمليات النظام وقصفه للحواضر المدنية، مؤشّراً لانعدام المسؤولية واستهانة المتحاربين بالدم السوري إلى هذه الدرجة أو تلك[١٤٦].

في نقلة مهمة لفكر الإسلام السياسي، تم توطين العمل المجاهد بشقيه العسكري والمدني في الريف السوري، كحالة وسطية بين إقامة الخلافة الإسلامية لمنظمة القاعدة "يميناً" والحكم المدني الملتبس للإخوان المسلمين "يساراً"، وتعتبر حركة أحرار الشام[١٤٧]من أهم حاملي هذا التوجُّه لإقامة "الحكم الإسلامي الراشد".

---

[١٤٥] شاركت في إعداد بعض الدراسات حول تشكيل مجالس محلية من أجل أن تقوم بصيانة مؤسسات الدولة وحمايتها في الأماكن التي يفقد النظام السيطرة عليها، لا بل أننا تحرينا عن أسماء الموظفين النزيهين في مؤسسات الدولة الهامة للاستعانة بهم من أجل إدارتها.

[١٤٦] قال لي أحد أقطاب المعارضة إنّنا مستعدون لتقديم مئات آلاف الضحايا ولن نتراجع، في الوقت الذي كان يتناول فيه أفضل أنواع الشوكلاته، ويعادل وزنه وزن شخصين طبيعيين على الأقل، فيما كان من يدّعي الدفاع عنهم يتضوّرون من الجوع ويهربون من القصف في كل اتّجاه! وكان يردد كلما حصلت مجزرة: "جيد، هذا يساعد في إسقاط النظام"، ولم يكن حديثه وحديث أمثاله عن مآسي الشعب سوى تباكياً ونفاقاً على أمل أن يمهد كل ما يحصل للوصول إلى السلطة.

[١٤٧] تعتبر حركة أحرار الشام أولى الحركات المسلحة السلفية التي تشكلت في ريف إدلب في أيار/ مايو ٢٠١١، ويبدو أنها ساهمت في أحداث جسر الشغور ولكنها لم تعلن عن نفسها حتى نهاية عام ٢٠١١، وقيل أنها أول من سهّل دخول المقاتلين المتطرفين من العراق وقدم لهم التسهيلات، منهم أبو محمد الجولاني الذي سيصبح زعيم "جبهة النصرة لاحقاً. انظر دراسة حازم السيد "السلفية الريفية الصاعدة في سوريا، حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجاً" في مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، ٢٠١٣.

اعتمدت الأسلمة المتعسكرة أو العسكرة المتأسلمة، لا فرق، تطبيق "الشريعة" عوضاً عن مجالس الحكم المحلية التي كان من المأمول أن تشكل حلاً مؤقتاً لإدارة شؤون الناس في حال انهيار مؤسسات الدولة، لا أن تكون بديلاً لها. شكّل ذلك تقهقراً كبيراً في آليات الحكم مقارنة ببنى الدولة، وأظهر عداء الإسلاميين المتأصل للدولة الحديثة ومؤسساتها، والتي يُفترض رفع يد الاستبداد عنها لا إلغاءها.

بالنتيجة، تم تقديم المزيد من الهدايا المجانية للنظام، الذي حظيَ بدعم قوي من أصدقائه، وتحوّل من حالة الاضطراب والفوضى والخوف في الأشهر الأولى إلى اكتساب المزيد من القوة، باعتباره يحارب متطرفين تغلغلوا في أماكن واسعة من سوريا وأقصوا كل من يخالفهم الرأي، في الوقت الذي بدأت فيه فكرة الحرب على الإرهاب بالتبلور في غفلةٍ عن المعارضة الغافلة! وسيمرّ وقتٌ طويل قبل أن يدرك السوريون أن التطرُّف الإسلامي، الذي دخل على خط المطالب المشروعة للسوريين، كان أشبه بوباء فتك بالثورة، وساعد النظام، بوسائله الأكثر بدائية، في تدمير سوريا وتهجير أهلها!

***

وهكذا مضت الأيام متشابهة دون أن تتقدم الثورة على طريق تحقُّق أهدافها في الحرية والكرامة، وتخندق أنصار النظام وأعدائه في جبهتين يشكل الجيشان، النظامي و"الحر"، واجهتهما. كما استمر التلاعب الإقليمي بالوضع السوري من خلال إطلاق بعض التصريحات من باب رفع العتب، وعملت الأطراف الدولية على إدارة الأزمة لا البحث عن حلولٍ لها بانتظار توافقها على المصالح، فدخلنا في متاهةٍ سنسلك دروبها المسدودة واحداً بعد الآخر لأجل غير معلوم، حتى نهتدي إلى تلك النهاية النافذة، إن اهتدينا!

الفصل السادس

المعارضة السورية ومحاولات الانتظام السياسي

المعارضة التقليدية والحراك الشعبي

كان الحراك الشعبي مسرحاً للتلاعب من قبل أطراف كثيرة، ولم تتمكَّن المعارضة التقليدية[١٤٨] من توجيهه في المسار الوطني الديمقراطي من خلال ترجمة مطالب الحرية والكرامة إلى برنامج سياسي وطني سوري بغية الوصول إلى الأهداف المنشودة. على العكس، سار معظم المعارضين وراء المنتفضين، آملين بالوصول إلى كراسي السلطة عبر تضحياتهم!

كما لم يظهر أي قائدٍ يتمتَّع بشخصيةٍ كاريزمية مقبولة وطنياً، للمعارضين والموالين، فيما كان العمل المؤسساتي المعارض غائباً أو هشاً. وتبيَّن أن لا أمل في الاعتماد على الشخصيات البارزة في المعارضة التقليدية للعب أدوارٍ إنقاذية وطنية، وانزاحت الهالة الكبيرة المحيطة بشخصياتهم التي صنعتها سنوات نضالهم الطويلة ضد الاستبداد، في الوقت الذي لم تتوافر فيه للحراك السوري فرصة لالتقاط الأنفاس واختيار قياداته بسبب القمع الممنهج.

---

[١٤٨] في تعليقه على مخطوط هذا الكتاب، صنَّف الأستاذ عبد الله هوشة (الأمين العام السابق لحزب الشعب الديمقراطي) المعارضة السورية على النحو التالي:

١- "**المعارضة التي كانت قائمة قبل الثورة**، والتي لم تكن لها علاقة مباشرة بها، وكان من المؤمل منها أن تبذل الجهد اللازم لتوحيد صفوفها عبر برنامج وطني يلبي حاجات الواقع الجديد، وتستظل بطيفها المتعدد تحت لواء هذا البرنامج بعيداً عن كل إشكالاتها السابقة، وتتوجه، من ثم، لتشكيل قيادة سياسية وطنية موحدة تكون جديرة بالتعبير عن تطلعات ومطامح الثورة، وتلعب الدور القيادي المأمول منها بهذا المعنى. غير أنها، مع الأسف، ليس فقط لم تستطع الارتقاء إلى هذا الدور الذي يبدو أنها لم تكن مؤهلة له، وإنما لم يفلح أي من أطرافها أيضاً في مواكبة هذه الثورة ولا حتى في اللحاق بها. غدت هذه المعارضة، بعيد اندلاع الثورة وانتشارها، معارضة تقليدية بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ.

٢- **المعارضة الجديدة**، التي تشكلت بعد انطلاق الثورة، وهي المعارضة التي أخذ ينضوي تحت لوائها الآلاف المؤلفة من الشابات والشباب السوريين الذين انتشروا على امتداد رقعة البلاد. وبغض النظر عما آلت إليه هذه المعارضة نتيجة فعل النظام أولاً والمتطفلين على الثورة ثانياً، فهي المعارضة التي سوف تشكل وجه سوريا المستقبل، عبر ابتداعها أشكالاً من العمل السياسي والممارسة السياسية اللذين سوف تقطع بهما مع كل الأشكال التي خبرناها في مراحل ما قبل انطلاق هذه الثورة. هذا الكلام يفترض بالطبع أن هذه المعارضة الجديدة ما زالت قائمة. نعم! مازالت قائمة. لكنها قائمة بالقوة أكثر مما هي قائمة بالفعل، وأظن أنها سوف تقوم بالفعل في اللحظة التي سوف تنتقل فيها سوريا إلى وضعها الجديد، بغض النظر عن مواصفات هذا الوضع، وفي اللحظة التي سوف يتوفر لها فيها الحد الأدنى من الحريات في المجالين العام والخاص.

٣. **المعارضة الخارجية**، التي هي وليدة النشاطات التي جرت في الخارج طوال سنيّ عمر "الثورة"، وآلت إلى التشكيلات العديدة التي نعرفها، بدءاً من المجلس الوطني ووصولاً إلى الهيئة العامة للتفاوض ومروراً بائتلاف قوى الثورة والمعارضة، فهذه جميعها، حتى وإن توفرّت على معارضين، لا يصح أن ندرجها تحت مصطلح المعارضة. هي ليست أكثر من هياكل سياسية قامت بمبادرات من الخارج لتكون لها وظيفة محددة في الوقت المناسب. ولا أظنها تملك من أمرها شيئاً!"

وهكذا، استنجد الحراك بدايةً بمعارضين تقليديين غير مكيَّفين للتعامل مع ثورة شعب، ومصابين بشتى أنواع الشخصانية، ربما بسبب مقارعتهم الاستبداد كأفراد لم يتوافر لهم سند اجتماعي، فكانوا أشبه بأبطالٍ يمثلون على مسرحٍ من دون مشاهدين!

في ذات الوقت، استغل معارضو الخارج الفراغ السياسي، مستفيدين من حرية الحركة، فركبوا موجة الاحتجاجات، وقدموا أنفسهم للجهات الخارجية أو هي قدّمتهم، كقيادة للثورة. عمل هؤلاء بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة على نشر أمراضهم، أخطرها الطائفية، وتكريس ما كانوا يتخيّلونه عن سوريا بعد سنواتٍ طويلة من الغربة عنها، وظهروا على وسائل الإعلام التي أفردت لهم أوقاتاً ثمينة ليعبثوا بالواقع السوري الحسَّاس؛ يخوّنون طوائف وأقليات ومدناً ومناطق لم يبلغها الحراك الشعبي بعد، يهددون الصامتين، يتحدّثون عن امتيازاتٍ ثورية، يخوِّنون كامل الجيش النظامي، على علاّته، ما عكس محدودية أفقهم ووطنيتهم. كما عكس هؤلاء مطالب الشارع العفوية، مثل التّسلُّح، تلقائياً كصورة في مرآة، دون أخذ خصائص الواقع السوري بالاعتبار ودراسة الجدوى السياسية.

عرف مدعو تمثيل الثورة السورية كيف يزيدون من أعداد الصامتين في الداخل ويبعدون الأصدقاء في الخارج، فأساءوا إلى الانتفاضة الشعبية أيّما إساءة. كما لم يكن هؤلاء مسؤولين عن أفعالهم، ولم يكلِّفوا أنفسهم مراجعة أخطائهم الجسيمة ووعودهم الزائفة التي جرَّت الحراك إلى خطواتٍ غير محسوبة، خاصة بعد انتشار السلاح بصورة فوضوية، وظهور مجموعات متطرفة تنضوي تحت مسمّى "الجيش السوري الحر" أو تستغل اسمه.

لأنه يعرف إمكاناتها الضئيلة، ترك النظام المعارضة التقليدية في الداخل تعمل بحرية نسبية، لكن تحت مراقبة لصيقة، وركَّز جهوده للحؤول دون أي تمثيل حقيقي للشارع من خلال زجّ الكوادر الشابة المؤهَّلة في السجون. كما عملت المعارضة الخارجية على تشجيع الناشطين الشباب وتمويلهم للسفر إلى الخارج حتى تميل كفَّتها على حساب معارضة الداخل. وهكذا بقيت الساحة خاليةً إلاّ من شعبٍ أعزل يحاول تدبّر أموره على الأرض، ومستعد للاستعانة بالشياطين ليتخلَّص من الموت المتربّص به، واضعاً كل أمله على "الجيش الحر" وداعميه.

إنّ العجز عن قيادة الثورة واللهاث وراء شارعها، علاوة على الحنق ودوافع الانتقام، لم يكن ليقود إلى تحقيق الأهداف التي قامت الثورة من أجلها، وإنّ الفرق بين النظام ومن تنطّح لتمثيل الثورة هو أن للنظام إستراتيجيته الواضحة في محاولته قمع الحراك بكافة الوسائل، فيما تُركت قيادة هذا الحراك لهواة سياسة، فجرُّوه إلى حيث لا يريد، وشجعوه على التسلُّح لأنهم لا يملكون شيئاً آخر ليقدِّموه.

في المقلب الآخر، عمل جنود مجهولون بتفانٍ وصمت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتشكيل مجالس محلية في المناطق التي صارت خارج سيطرة النظام من أجل تنظيم شؤون الناس وإغاثتهم في أصعب الظروف.

***

لأنّي لست سياسياً بالأساس، ولم أنتمِ إلى أيّ حزب أو تجمُّع معارض، وعارضت النظام بسبب استبداده وفساده، فقد صدَّقت ببساطة أن المعارضين جميعهم يعملون على توحيد المعارضة من منطلق وطني صرف، ولا يمكن أن تقف في وجههم أيّة عثرة بغية إنجاز هذه المهمة النبيلة بأسرع وقت ممكن! لكن، حين عايشت المحاولات المتعددة التي جرت من أجل هذا الهدف، وجدت كيف كانت المسائل الشخصية تطغى أو تعطِّل، وما يتحقَّق اليوم يتمّ الالتفاف عليه في اليوم الثاني، ولأسباب ليس لها علاقة بـ "المهمة النبيلة!"

ومع أنّ الكثير من الشكوك صارت تراودني حول قدرتنا كمعارضين تقليديين على التعامل مع الحدث السوري الكبير، فإن الخروج بصيغة سياسية[١٤٩] مقبولة داخلياً وخارجياً كانت مهمة ملحة وتاريخية تهون دونها المصاعب، ولا بد من الصبر والتعلق بأوهى حبال الأمل. لقد مارس المعارضون التقليديون السياسة في ظروف مختلفة تتصف بالحذر والسرية، وباءت بالفشل محاولات التوفيق بينهم من أجل الخروج بتجمُّعٍ سياسيٍّ فاعل غير مرتهن لمصالح الدول. كان اجتماع الأسماء المعروفة في البداية سيبرز المعارضة السورية ككيان موحَّد، ويضع اللبنة الأولى في بناء مؤسسة معارضة[١٥٠]، بعيداً عن أية شخصنة، إلى أن يضع تطور العمل والممارسات الحية الأشخاص في المواضع التي يستحقونها.

وفي حال تعذر الوصول إلى صيغة سياسية مقبولة من قبل المعارضة التقليدية، كان يُفترض أن تأخذ القوى الشبابية على الأرض زمام المبادرة وتنتخب ممثليها في مختلف المناطق

---

١٤٩ استندت تلك الصيغة السياسية المزمعة إلى حلقة مركزية من عدة شخصيات معارضة معروفة، وكانت ستضم، تحديداً، كلٍّ من رياض الترك ورياض سيف وعارف دليلة وميشيل كيلو وبرهان غليون وعبد الحميد درويش، مع حفظ الألقاب. ومن ثم تُضاف حلقة ثانية فثالثة من شخصيات أخرى مستقلة أو حزبية، لكن بصفتهم الشخصية، في محاولة لتجاوز صراعات الأحزاب والحد من نفوذها. كان ثمة رفض شديد من قبل صديقي لضم أية شخصية من هيئة التنسيق الوطنية، فيما رأيت أن يكون الأستاذ حسن عبد العظيم من شخصيات الحلقة الأولى. كانت هذه الاعتبارات مهمة بصورة مؤقتة، على أن يتم رفد الهياكل السياسية هذه بمزيد من الدماء الجديدة.

١٥٠ اعتُمدت هذه الهيكلية على وجه العموم في تشكيل "المجلس الوطني" لاحقاً، إذ تألّفت بنيته، كما هو معروف، من المكتب التنفيذي كحلقة أولى، ومن الأمانة العامة كحلقة ثانية، ومن الجمعية العامة كحلقة ثالثة. وهكذا، تم مسخ فكرة التشكيل المعارض وسرقة فكرته، غالباً عن طريق مجموعة "إعلان دمشق" التي انضمت إلى "المجلس الوطني" لاحقاً، والذي ضم أيضاً الإخوان المسلمين ومجموعة من الشخصيات الانتهازية والتجار وعملاء أجهزة المخابرات الإقليمية الدولية. فكيف لثورة أن تنتصر وتحقق أهدافها بمثل هذا التمثيل، أو بكلام آخر، كيف لا تخفق ثورة شعب تنطَّح هؤلاء لتمثيلها ونصرتها؟

السورية، أو تعيّنهم بالتوافق، وتحدد من يمكن التعاون معه من ذوي الخبرة السياسية والتأثير الشعبي من المعارضين التقليديين ليكونوا مجرّد مستشارين، فيما يقوم المعارضون في الخارج، المختارين من قبل هذه القوى الشبابية، بالتمثيل السياسي في المحافل الدولية ووسائل الإعلام.

من زياراتنا إلى أماكن التظاهرات استنتجت أنّ صديقي كان يحوز على شعبيةٍ كبيرة مقارنةً بباقي المعارضين على الأقل، علاوة على سمعته وعلاقاته الخارجية، ما جعلني أفكر بأن يكون لشخصيته الكاريزمية هذه دور كبير في البنية السياسية التي كنّا نعتزم تشكيلها[١٥١].

***

قد لا تكفي بضعة أشهر ولا بضع سنوات لانتظام الحالة السياسية في سوريا بعد كل هذا الدمار الذي طاول أية محاولة للاجتماع السياسي خلال خمسة عقود من تطبيق حالة الطوارئ، لكنّ الحرية التي فرضت نفسها على الأرض عجّلت من وعي الشباب[١٥٢]، الذين حاولوا تشكيل نمطٍ جديد وعمليٍّ من الممارسة السياسية، بعيداً عن تنظير المعارضين التقليديين وتنافسهم وتهافتهم. وبقدر ما كشفت السياسات التقليدية المعارضة عن عقمها، تراكمت خبرات النشطاء وتكاملت، إلى حدٍّ ما، وسط تسارع الأحداث وضغوطها[١٥٣].

يمكن تلخيص مشاكل المعارضة التقليدية بالنقاط التالية:

١. صعوبة القيام بالنشاط المعارض في ظل الاستبداد، فضلاً عن كلفته العالية، وبالتالي لم يعرف السوريون نشاطاً سياسياً وحزبياً يعتدُّ به كمنافس للسلطة الحاكمة؛

٢. الخوف من اتخاذ خطوات جريئة في الداخل قد تعرِّض السياسيين للتنكيل والسجن، والميل للعمل السري في الوقت الذي أصبح فيه هذا العمل غير كافٍ في الظروف الثورية؛

٣. شخصنة العلاقات بين رموز المعارضة، وتآمرهم بعضهم على بعض، وعدم قدرتهم على تجاوز الخلافات الشخصية والارتقاء إلى مستويات المسؤولية الوطنية الكبرى التي فرضت نفسها بعد الانتفاضة/ الثورة.

---

[١٥١] للأسف الشديد، تبين لاحقاً أن صديقي كان يعاني من حالات صحية مختلفة أثّرت على أدائه، فضلاً عن الأثر النفسي الذي تركه السجن في المرة الأخيرة. ففي إحدى زياراتنا المسائية إلى مدينة دوما، شجّعته لارتجال كلمة من على المنصّة حين وجدته متردداً في الإقدام على هذه الخطوة، رغم الإلحاح عليه من قبل المنظِّمين.

[١٥٢] شكل الشباب نسبة لا بأس بها من المتحدثين إلى وسائل الإعلام.

[١٥٣] سيعمل الصراع العسكري والتطرُّف على وقف تطور هذا الاتجاه.

٤.لم تفرز السنوات السياسية العجاف سوى بعض الأبطال الدون كيشوتيين، المتضخمة ذواتهم والمفصولين عن الواقع، واقتصر حصاد عقود من التصحُّر السياسي على معارضة محطَّمة ومتعثِّرة.

٥.عدم وجود أساليب عمل ديمقراطية داخل الأحزاب التقليدية المعارضة، ما يفسر، ولو جزئياً، العجز عن الارتقاء بعمل التجمعات السياسية التي ظهرت مؤخراً من الفردنة إلى المأسسة، فبقيت مجرد تجمعات لأفراد مستقلين أو ملحقين بزعيم أو جهة ما؛

٦.عدم وعي عمق التطورات السياسية الثورية الحاصلة في القاع المجتمعي السوري بعد اندلاع الاحتجاجات، والتي جعلت من المعارضة التقليدية وتشكيلاتها مجرد هياكل من الماضي؛

٧.الاستخفاف بقدرات الشباب القيادية، ومحاولة نقل أمراض المعارضة إلى هؤلاء، ولو بدون قصد، مثلما حدث في محاولة السيطرة على عمل التنسيقيات[١٥٤].

٨.لم تستطع المعارضة التواصل مع الشارع من منطلق إرشاده والحيلولة دون انجرافه بفعل مختلف المؤثرات غير الوطنية لأسباب كثيرة، منها غربة المعارضة عن الواقع بشكل عام، ووجود فجوة جيلية مهمة؛ أي غياب جيل الوسط الذي عاش العقود العجاف في سوريا، وكان هذا الجيل (٣٠- ٥٠ سنة) هو الجيل المفترض أن يقود؛

٩.لم تعمل المعارضة على الحدّ من المتاجرين بالدم السوري في الخارج، الذين استغلوا الثائرين لغايات استعراضية وركبوا موجة الثورة؛

١٠. لم يكن الهدف وحدة المعارضة تنظيمياً، إنّما تنسيق الجهود وتوحيدها فيما يتعلق بالمسائل الوطنية ككل؛ مثل تحديد الخيارات والأولويات، والتحضير للمرحلة الانتقالية؛

١١. في بداية الحراك، كانت المزاودات بين المعارضين تقوم على نغمة شتم النظام، أكثر من القيام بجهد تحليلي جدّي لبنيته ونقاط قوته وضعفه، فكان من حسن حظ النظام وجود الكثير من معارضيه على هيئة شتّامين؛

---

[١٥٤] التنسيقيات هي ابنة المظاهرات، وتعني تنسيق الفعاليات المتعلقة بالتظاهر من قبل الشباب الذين يقومون بتنظيم المظاهرات السلمية وكتابة الشعارات والتواصل فيما بينهم وبين المجموعات الأخرى، وقد انتظمت التنسيقيات لاحقاً في مجموعتين:
١. لجان التنسيق المحلية (مدعومة من قوى إعلان دمشق، وبخاصة حزب الشعب الديمقراطي، وأهم عناصرها المحامية رزان زيتونة والناشط مازن درويش)، و
٢. اتحاد تنسيقيات الثورة السورية (مدعومة من قوى إسلامية خاصةً، ومن أهم عناصرها الناشطة سهير الأتاسي)، علاوة على تنسيقيات مستقلة أخرى، منها التنسيقيات الكردية.
قام النشطاء والمثقفون بدور مميز في إنشاء التنسيقيات، التي كان لها دور مهم في التغطية الإعلامية لمجريات الأحداث في الأشهر الأولى، وفي ظروف بالغة التعقيد لم يُسمح فيها إلا للإعلام الرسمي بنقل الأحداث.

١٢. في ظروف اشتدَّ فيها القمع وصعُبت فيها معرفة أحجام التمثيل السياسي، نظراً لغياب الآليات الديمقراطية الانتخابية وكثرة المدَّعين والانتهازيين، استمر التخبُّط على حاله دون أمل يُذكر في التركيز على ما يَجمع لا على ما يُفرِّق؛

١٣. تابع العالم الخارجي الحالة المُزرية للمعارضة، ولم يعلِّق الآمال عليها إلا بما يخدم مصالحه، ولم يهمه أن يدعوه "المجلس الوطني" إلى التدخل أو تقف هيئة التنسيق ضد هذا التدخل!

١٤. يمكن الإشارة أيضاً إلى الجانب النفسي لعلاقة المعارض بالأوساط الشعبية من خلال المعاناة التي تعرض لها في فترة الاستبداد الطويلة والانعدام شبه الكامل للتضامن معه من قبل هذه الأوساط، بخاصة إنْ كان من حملة الأفكار التنويرية، وهذا ما جعله يتعامل مع الثورة الشعبية بفوقية، علاوة على مشاعر مضمرة أقرب للانتقام منها إلى التفاعل الخلاّق، وعدم القدرة أو الرغبة بردم الهوة بينه وبين الناس العاديين، فلم يكن "مثقفاً عضوياً" بتعبير غرامشي[١٥٥]. كان ذلك واضحاً أيضاً في الأوساط الشعبية التي بقيت موالية أو تحت سلطة النظام، فعندما صارت تدفع الثمن من دماء أبنائها، كان لسان حال المعارض يقول: "خليهم يضحوا وينصدموا.. منشان يتعلموا"، وبالتالي صارت الأوساط الشعبية محاصرة بين النظام والمعارضين مثلما كان المعارضون محاصرين من قبل بين النظام وهذه الأوساط المكبّلة بالخوف والغارقة في اجترار ماضيها، إنّها لعنة الاستبداد التاريخية!

١٥. من جهة أخرى، كان للجماهير "غرامشيّوها"؛ الدعاة الدينيون والمشايخ الذين استفادوا من غربة عامة الناس واستلابها ليطفوا على سطح مستنقع الاستبداد الآسن. ساهم هؤلاء في زعزعة هيكل الاستبداد، لكنّهم ساعدوا على بقاء الهيكل ذاته إلى حين؛ بسبب أوهامهم الماضوية المفوَّتة.

المجلس الوطني

أوشك العالم أن يفقد صبره وهو يتابع عجز المعارضين عن الانتظام لتشكيل بديل سياسي بعد أكثر من نصف عام على اندلاع الانتفاضة، فضلاً عن أولئك الذين يصنعون الحدث، ويريدون أن يكون لهم غطاء سياسي يمنحهم بعض الأمل. علاوة على المحاولات التي جرت في الداخل، وأهمها تشكيل هيئة التنسيق الوطنية، التي لم تحُز على ثقة الشارع الغاضب

---

[١٥٥] فيلسوف إيطالي ماركسي طرح فكرة المثقف العضوي المرتبط بهموم شعبه مقابل المثقف التقليدي الذي يعيش في برجه العاجي.

إلا في نطاقٍ محدود، جرت عدة محاولات في الخارج لتشكيل مجالس تمثيلية، وانتهت بتشكيل "المجلس الوطني السوري"[١٥٦] في ٢ تشرين الأول ٢٠١١.

بعيدا عن الاتهامات من هذا الطرف أو ذاك، فإنني أعتبر هذه اللحظة من المفارقات المهمة التي تدل على بداية دورة جديدة من الصراع الخارجي على سوريا وتدخُّل الدول في شؤونها، إذ تبيَّن منذ ذلك الحين أنّ تركيا هي التي جاءت بالإسلاميين من الدوحة إلى اسطنبول لتبني هيكل المعارضة حول محورهم، فتمَّ تفصيل المقاسات هناك لدخول بقية أطراف المعارضة، شرط ألاّ يتأثر بذلك "بُناة الهيكل!" عَكَس ذلك وجود تنافس تركي – قطري من أجل الاستحواذ على "المجلس الوطني"[١٥٧]، الذي استقوى، بدوره، بداعميه الإقليميين لتحجيم القوى المعارضة الأخرى وإقصائها. بكلام آخر، قام المجلس على الإقصاء؛ لأنه دعا للالتحاق به والعمل ضمن آلياته، على شاكلة علاقة حزب البعث مع "الجبهة الوطنية التقدمية" عند النظام، لكن ليس كأحزاب فحسب، إنّما كممثلين للطوائف، وهنا الطّامة الكبرى، وتم التوافق على أن يكون الدكتور برهان غليون الرئيس الأول لهذا المجلس.

بنى مؤسسو المجلس جلَ آمالهم على التدخل الخارجي، اقتداءً بالنموذج الليبي، ووعدوا بما هم ليسوا بقادرين على الإتيان به في لحظة كان الشارع يحتاج فيها إلى من يمثله، فأيد الشارع "المجلس الوطني" إلى حدّ معقول[١٥٨]. ونظراً للضغوط الدولية من أجل تمثيل أفضل، توسَّع المجلس تدريجياً ليضم أطرافاً سياسية ومكوّنات سورية أخرى، لكن ذلك لم يغيّر من معادلة تكوينه المبنية على الإقصاء، ولا من خضوعه لأجندات الدول الإقليمية، ولا من سياساته، التي أكثر ما كانت تفتقد إلى السياسة الوطنية– السورية.

كان الاعتقاد السائد وقتها أن النظام سيسقط خلال فترة وجيزة، وعليهم، بالتالي، الاستعداد للقفز إلى السلطة، فسارعوا لطلب الشرعية في البداية من الحكومتين التركية والقطرية، مع استعدادهم الكامل للعمل كعملاء وبأية صيغة. بالنتيجة، كان لا بد من تخوين بعض

---

[١٥٦] تشكل "المجلس الوطني" السوري في اسطنبول في ٢ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١، ذلك بعد انهيار محادثات المعارضين في الدوحة وذهاب قسم منهم لتشكيل هذا المجلس في تركيا. ثم ضم المجلس، إلى جانب لجنة العمل الوطني المؤسِّسة، الإخوان المسلمين وإعلان دمشق والتيار الإسلامي المستقل وشخصيات مستقلة وحزبية. http://www.djazairess.com/elbilad/44355

[١٥٧] في تنافسهما للسيطرة على "المجلس الوطني"، ولحل إشكال الدعوة إلى مؤتمر "أصدقاء سورية" الأول في اسطنبول بداية ٢٠١٢، تم التوافق بين تركيا وقطر على أن تصدر الدعوة إلى المؤتمر باسم الدولتين!
www.al-akhbar.com/node/60992

[١٥٨] رفعت الشعارات التي تؤيد "المجلس الوطني" في مظاهرات يوم الجمعة الواقع في ٢٠١١/١٠/٧. كان الشارع تواقاً لمن يمثله بالفعل، لكن، وعوضاً عن أن يشعر المجلس بفداحة المسؤولية الملقاة على عاتقه، صار المعبرون عن سياساته يتبجحون بذلك ويتعالون على الآخرين، كما اتخذوا من ذلك "قميص عثمان" لاستجلاب المزيد من الدعم الدولي للمجلس!

المعارضين في الداخل، واجتذاب البعض الآخر لينضم إلى صفوفهم في الخارج بعد "تعميدهم" في المظاهرات أو المصادقة عليهم من قبل المكتب التنفيذي لمجلس الغفلة[١٥٩]!

برغم تأييد معظم فعاليات الثورة السورية للمجلس الوطني السوري في البداية، فإن التمثيل السياسي لم يتحقق كما يجب على الأرض، إذ وقف "المجلس الوطني"، وغيره من التشكيلات المعارضة، وراء الثورة الشعبية صانعة الحدث، أو بمحاذاتها، دون التصدي للتمثيل الفعلي أو القيادة، فضلاً عن خضوعه لأجندة داعميه الإقليميين قبل كل شيء، مبرّراً ذلك بالسعي لتأمين اعتراف عربي ودولي.

ترك ذلك الباب مفتوحاً لشتّى الاحتمالات، في حال سقط النظام بصورة مفاجئة، من دون توافر بديل على مستوى المسؤولية، ما يدفع باتجاه الفوضى الشاملة، بخاصة بعد انتشار مختلف الجماعات المسلحة التي تعمل على حسابها وحساب مموليها في أقطاعات يديرها من هم أقرب إلى أمراء حرب منه إلى الثوّار.

كان من المفترض[١٦٠]أن يعمل "المجلس الوطني"، انطلاقاً من ادعائه التمثيل والاعتراف النسبي الذي حظي به، على:

١. الارتقاء إلى مستوى المسؤولية الوطنية، وألا يتحدث عن تمثيل الثورة فقط، فيبدو كأن هدفه الانقلاب على النظام وليس تشكيل بديل يقنع معظم السوريين؛

٢. عدم تبرير استعمال السلاح إلاّ كخيار اضطراري ومؤقت للدفاع عن النفس، ويتعلق خاصة بالمنشقين عن الجيش؛

٣. أما وقد انتشرت المجموعات المسلحة، كان يجب عليه التصدي لمشكلة شرذمة المسلحين وحصر مصادر الدعم بجهة واحدة وطنية، حتى لا تسنح الفرصة للأطراف المموّلة بالتأثير على الخيارات المستقبلية لسوريا من خلال العسكرة؛

٤. التعاون مع قوى المعارضة الأخرى لتشكيل مظلة أمان لسوريا المستقبل؛

٥. تعرية قوى الإقصاء الدينية التي تحاول تسلُّق سلَّم الثورة السورية من أجل بثِّ بذور الفتنة ومحاولة استبدال استبدادٍ بآخر؛

---

[١٥٩] المقصود هو أن بعض عناصر الإخوان أو الإسلاميين كان يغادرون إلى الخارج بعد اشتراكهم في مظاهرة أو أكثر فيجري هناك تلميعهم كمعارضين سياسيين.

[١٦٠] بسبب طغيان الإسلاميين وحلفائهم في المجلس، والانتقادات التي كانت توجه لكثير من المعارضين الآخرين بأن عليهم أن يدخلوا المجلس ليساهموا في إصلاحه، تشكلت أواخر العام ٢٠١١ مجموعة سورية ضمت ٥ أشخاص، منهم كاتب هذه السطور، وسميت مجموعة ٥+١، والواحد هو صديقي الذي كان عضواً في المكتب التنفيذي لـ "المجلس الوطني" ويريد، من خلال إضافة اسمه، التعبير عن دعمه لمطالب الإصلاح دون أن يتبناها بالمطلق! تضمنت المطالب معظم البنود الواردة أعلاه، والتي تم استبعادها لاحقاً من جدول أعمال المكتب التنفيذي للمجلس من قبل أمين سر المجلس د. ن. الحكيم، والذي فرضه الإخوان بطريقة تعسفية مكان الأمين السابق وائل ميرزا، كما أسرَّ لي صديقي. انفرط عقد المجموعة السابقة بعد ذلك، وبقي منها عضو واحد انضم إلى المجلس وإلى الإئتلاف من بعده، هو الأستاذ خطيب بدلة.

٦. إقناع غالبية الشعب السوري، قبل الأطراف الدولية، بأنه يعمل على جدولة أولويات التغيير القادم في سوريا.

لم يفعل "المجلس الوطني" أيّاً مما سبق، وفضّل الارتهان لمصالح الداعمين عوضاً عن بناء الأساس السياسي في الداخل[١٦١].

لم تلبث أن طفت علامات تفكك "المجلس الوطني" على السطح، ولم يعد بالإمكان إخفاء تحكم نواته من "الإخوان المسلمين" وقوى إعلان دمشق[٧]، بتحالفاتهم الهشة ولا ديمقراطيتهم، مع أن الكفّة كانت تميل إلى جانب "الإخوان" بصورة فاضحة، "الإخوان" الذين يريدون السلطة لهم بكلِّ أنانية، محاطين بكورس من الأعوان المتلهّفين لالتقاط الفتات!

لم يكن معظم المتنفّذِين في المجلس، الذين تسنّى لي التّعرف عليهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على مستوى التحدِّيات الوطنية المتمثلة بإعادة صياغة مشروع الدولة في سوريا، بل مجرّد أناس مدّعين، علاوة على بعض المواقف الطائفية المعلنة أو المسكوت عنها، والفقر السياسي والتاريخي الفاضح.

***

وهكذا، تقاسمت الساحة السياسية السورية قوتان، أو وجهتا نظر سياسيتان رئيستان، هما هيئة التنسيق الوطنية[١٦٢] و"المجلس الوطني السوري." قطع "المجلس الوطني" الطريق على أي تعاون مع بقية فصائل المعارضة حين وضع كل أوراقه في سلة الخارج وباع أوهام ومواقف[١٦٣] دفع الشارع دمه ثمناً غالياً لها، فيما لم تستطع هيئة التنسيق مجاراة المجلس في ركوب موجة الثورة، بخاصة مع تزايد الميل للتطرُّف والأسلمة، فهرولت بدورها باتجاه الحلف الروسي-الإيراني.

اقتضت المسؤولية الوطنية اتفاق المعارضة على نقاطٍ مشتركة لأجل قيادة عملية التغيير الديمقراطية ضدّ سلطة استبدادية ضربت جذورها العميقة في بنية المجتمع السوري وأفسدته، لكنّ بعض المعارضين فضَّل الاتكاء على الثائرين في سياسةٍ انتهازية وشعبوية[١].

[١٦١] اعترف أحد أعضاء المكتب التنفيذي للمجلس الوطني، في معرض نقاش الخيارات أعلاه، أن المجلس يشتغل سياسةً داخلية بنسبة ١٠% وخارجية بنسبة ٩٠%. ولعمري إنّ ذلك هو عكس ما يجب أن يكون، انطلاقاً من كون السياسة الداخلية هي الأساس التي تبنى عليه السياسة الخارجية، لأي بلد أو قضية، وليس العكس!

[١٦٢] تشكلت هيئة التنسيق الوطنية من عدة أحزاب معارضة في الداخل السوري في ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١١، كما أشير إلى ذلك من قبل.

[١٦٣] لم يجرؤ المجلس يوماً على مراجعة مواقفه.

ومع أنّ "المجلس الوطني" لم يقم بمراجعة سياساته، فقد اعترفت بعض الأصوات فيه بأن "النظام أخذها إلى حيث يريد!" مع ذلك، يعتبر قبول "المجلس الوطني"، علاوة على باقي أطياف المعارضة، بمبادرة السيد كوفي عنان[١٦٤] بدايةً لفهم الواقع الدولي.

إعلان دمشق[١٦٥]

استمر إعلان دمشق، الذي دخل مرحلة جديدة بعد تشكيل مجلسه الوطني مطلع عام ٢٠٠٧، بعقد اجتماعاته الأسبوعية السرية في أمكنة مختلفة من مدينة دمشق. وتبين أنّ ثمة كتلتين متنافستين في الإعلان؛ واحدة بزعامة رياض الترك والثانية بزعامة رياض سيف. مثَّل رياض الترك وأنصاره التيّار الأيديولوجي المحافظ في الإعلان، في حين كان رياض سيف وفريقه يمثِّلون التيار "الليبرالي" المنفتح للخارج. في عداد كل من الفريقين كان ثمة شخصيات انتهازية تؤدي دور المريدين، ولم يستطع المستقلون تعديل حدّة هذا العناد!

لم تكن الخلافات مبدئية على الإطلاق؛ فالزعيم "التاريخي" رياض الترك لم يكن ليقبل بمنافسٍ جديد، بخاصة إنه جاء من أوساطٍ تجارية وصناعية لم تهضمها الأيديولوجيا الماركسوية يوماً، حتى لو تقومجت[١٦٦]، في حين كان رياض سيف ومريدوه ميالين لوضع كل "بيضهم" في سلة الخارج. بدا الأمر مقيتاً في مثل هذه الظروف، إذ لم يرَ هؤلاء "القادة" أبعد من أنوفهم فيما يغرق البلد بالدم، ويحصد القمع المزيد من الأرواح، ويحوم "الجهاديون" في الأجواء مستعدين للمساهمة بفعالية في مأدبة الدم، وقلب الطاولة في وجه الجميع!

---

١٦٤ جاءت المبادرة الدولية استمراراً للمبادرة العربية في شهر شباط/ فبراير ٢٠١٢، وسمي السيد عنان ممثلاً لكل من الجامعة العربية والأمم المتحدة. وردت هذه الملاحظة سابقاً على وجه التقريب.

١٦٥ ائتلاف معارض طالب بتغيير نظام الحكم في سوريا إلى نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب في عام ٢٠٠٥.

١٦٦ كان من نتائج الخلاف داخل صفوف الحزب الشيوعي السوري عام ١٩٦٩ اتخاذ المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري- جناح رياض الترك- مواقف قومية تمييزاً له عن أممية خالد بكداش الخالصة!

قضايا متفرقة

١. الإعلام الثوري والإعلام الرسمي في المواجهة

كان الإعلام السوري الرسمي، وما يزال، جزءاً من الإعلام الدعائي لعصر الأيديولوجيا المرتبط بأنظمة الاستبداد، فهو اللاعب الوحيد في نقل الصورة والخبر، غير مدركٍ لأهمية التقدُّم التكنولوجي الذي دفع بحرية التعبير قدماً، والذي سيجعل من الناشطين أنفسهم محرِّرين ومراسلين. أما الإعلام الثوري فقد اتّسم بدايةً بالفوضوية والارتجال وقلّة الخبرة، واعتمد على "شهود عيان" شبه مجهولين، وبدون مصداقية مهنية تذكر، فاشترك كل من الإعلام الرسمي والثوري في التضليل، برغم جهود التنسيقيات في المراحل الأولى لنقل صورةٍ قريبة من الواقع.

حمّل إعلام المعارضة النظام مسؤولية كل الأعمال العنفية التي يرتكبها بعض المتظاهرين بحجة عدم الإساءة للثورة، وانسحبت المسؤولية على القنوات التلفزيونية التي تبثُّ أقوال الناشطين أيضاً، فتأثّرت مصداقيتها، التي لا تحوز على الكثير منها أصلاً. على سبيل المثال، اتهمت المعارضة النظام باغتيال شخصيات علمية في حمص[١٦٧]، ما ذكَّر بما فعلته "الطليعة المقاتلة" للإخوان المسلمين في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات.

وحين تسيدت الفصائل الإسلامية على نحو شبه تام، المدعومة من قبل تركيا والسعودية وقطر، وصل الأمر إلى درجة تسمية معركة الهجوم على الكليات العسكرية جنوب حلب في شهر آب ٢٠١٦ بمعركة "ابراهيم اليوسف"، الضابط المسؤول عن مجزرة كلية المدفعية عام ١٩٨٩، تلا ذلك تسمية إحدى معارك ريف حماه بمعركة "مروان حديد[١٦٨]" زعيم "الطليعة المقاتلة الإخوانية" المسؤولة عن الكثير من عمليات الاغتيال الطائفية أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات.

---

[١٦٧] منها اغتيال الدكتور حسن عيد في ٢٤ آب/ أغسطس ٢٠١١ واغتيال نائب عميد كلية الكيمياء في حمص نائل الدخيل في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١ وفي اليوم ذاته تم اغتيال الوكيل العلمي لكلية الهندسة المعمارية في حمص محمد علي عقيل والتمثيل بجثته، وبعد يومين تم اغتيال مهندس الطاقة النووية أوس خليل أيضاً. syrianow.sy/index.php?p=12&id=9768

[١٦٨] مروان حديد (١٩٣٤- ١٩٧٦). مؤسس وقائد "الطليعة المقاتلة"؛ الجناح العسكري للإخوان المسلمين في السبعينات.

٢. لعنة "النصرة"[١٦٩]

حفلت شاشات القنوات الفضائية بتصريحات الناشطين والسياسيين المعارضين، الذين تجاهلوا تفجيرات جبهة النصرة– فرع منظمة "القاعدة" في سوريا، وحملوا النظام المسؤولية عنها. وحين أعلنت هذه الجبهة مسؤوليتها على الملأ انبرى هؤلاء للقول بأنّ النصرة "نصرتين"؛ واحدة صنيعة النظام والأخرى تتبع منظمة "القاعدة". وسيتواصل هذا "الجدل البيزنطي"[١٧٠]، غير المستند إلى حقائق ومعلومات، أكثر من سنة!

من الطبيعي أن يخترق النظام التنظيمات المتطرفة وغيرها، لكن من الخطل البيّن اعتباره وحده مسؤولاً عن التطرُّف في هذا العالم، مع الإقرار بأنّه أضحى من العوامل الجاذبة للتطرّف، فالمتطرفون الإسلاميون، على رأسهم تنظيم "القاعدة"، سيجدون الفرصة ملائمةً ليبحثوا عن موطئ قدمٍ لهم في الفوضى السورية، التي خلط النظام فيها الأوراق ورماها في وجه معارضيه، خاصّة بوجود كل هذا الغباء السياسي والحنق الثوري!

في تلك الأثناء، طلبت من صديقي المساعدة في الحصول على معلومات حول "جبهة النصرة"، التي تبنت التفجيرات الأخيرة في دمشق[١٧١]:

- كيف يمكن الوصول إلى جبهة النصرة في ريف دمشق وما هي معلوماتك عنها؟
- ليس لديَّ أية معلومات، هذه الانفجارات من عمل النظام.
- لكننا، كمعارضين، ملزمين، أخلاقياً وسياسياً، بمعرفة ما الذي يحدث على الأرض، وعلينا إرسال أحدهم للحديث مع قادة مجموعات المسلحين لاستيضاح الأمر، وأنا على استعداد للذهاب بنفسي لمعرفة الحقيقة.
- ....

---

[١٦٩] في أواخر تموز ٢٠١٦، وبعد أن تسرّب اتفاق أمريكي- روسي يقضي بضرب التنظيمين المصنفين إرهابيين، داعش والنصرة، غيرت جبهة النصرة اسمها إلى "فتح الشام" كإعلان شكلي عن انفصالها عن منظمة "القاعدة"، لكن متحدثاً أمريكياً خرج ليؤكد أن تلك الخطوة لا تغير شيئاً في واقع الأمر.
http://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=28072016&id=db286b71-664f-4e58-a48f-115b9e60e908
https://news.google.de/news/story?cf=all&hl=ar&ned=ar_me&cf=all&ncl=di-8h3SxfoS4nwMq2huqQRN_N490M&topic=w&scoring=n

[١٧٠] **الجدل البيزنطي** هو نقاش لا طائل منه، فبينما كان السلطان العثماني محمد الفاتح على أسوار القسطنطينية (عاصمة بيزنطة) كان الرهبان وعلماء بيزنطة في الكنيسة الكبيرة، يتجادلون فيما بينهم حول مسألة ما إذا كانت الملائكة ذكوراً أم إناثاً، وحول من وجد قبل الدجاجة أم البيضة، وكم ملاك يمكنه الوقوف على رأس دبوس؟ فكان ذلك أحد أسباب سقوط الإمبراطورية البيزنطية!

[١٧١] تبنت جبهة النصرة، لأول مرة، تفجيرين قرب مركزين أمنيين دمشق بتاريخ ٢٣ كانون الأول ٢٠١١. وتتالت التفجيرات في صيف ٢٠١٢ ومنها في أحياء شعبية موالية، وكان معظم ضحاياها من المدنيين.
http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2012/7/18/

لم يحصل ذلك، فأضاف ذلك خيبة أخرى، وتخوُّفاً من توجُّهات عدمية ستدخل سوريا في دوامة رهيبة من العنف.[١٧٢]

قاتل الجهاديون الإسلاميون في البوسنة والهرسك تحت راية سياسية واضحة بقيادة علي عزّت بيكوفيتش[١٧٣]، ثم انتهى دور هؤلاء بانتهاء المعارك وتم نزع أسلحتهم وإبعاد معظمهم بعد اتفاقية دايتون[١٧٤]. الأمر مختلف فيما يتعلق بسوريا، التي تحولّت إلى ساحة مفتوحة لكل أشكال التطرُّف، وبوجود سياسيين أشبه بدمى تديرها مخابرات الدول الإقليمية والعظمى[١٧٥].

كما عملت فصائل "الجيش الحر"[١٧٦]، وهو في الحقيقة جيش سنّي لكنّه وطني التوجّه في في بداياته، على استخدام المجموعات الجهادية، على رأسها النصرة، لمقاتلة النظام، مستفيدةً من قدرتهم على التضحية، طمعاً بالشهادة والتنعُّم بملذات الجنة وحورياتها. لكن، ما إن قويت شوكة الجهاديين ونالوا "وسام الشجاعة" في مقاتلة النظام حتى عادوا لمقاتلة "الجيش الحر" وتجريده من أسلحته[١٧٧].

٣. خلط الأوراق

فيما كانت براعم الحركات الشبابية المدنية تحيي بعض الأمل، جاءت بنادق التطرُّف لتشوِّه كل ما يتعلق بالثورة، ووقف النظام شامتاً بمَن يهلّل لإسقاطه على يد هؤلاء، والذي سيلجأ في مرحلة تالية، حين سيشتدّ الخطر عليه، لتفويض الإيرانيين باستجلاب الميليشيات من بلدان

---

[١٧٢] حتى بعد خمس سنوات، استمر الكثير من المعارضين بتغطية تصرفات جبهة النصرة التي جاهرت بارتباطها مع القاعدة، في الوقت الذي أدانوا فيه تنظيم "داعش" لفرط تطرفه وانفضاحه، متناسيين الطبيعة الديناميكية لعمل التنظيمات المتطرفة التي تتعاون وتتنافس من دون أن يمسّ ذلك طبيعتها الإرهابية، وحجتهم أن "النصرة" تقاتل النظام وفيها الكثير من السوريين! وهذا، برأيي، سقوط أخلاقي أطاح وسيطيح بما تبقى من مصداقية المعارضة، في الوقت الذي ضاعت فيه راية الثورة بين مختلف رايات التطرُّف. كان يجب دفع السوريين للعمل خارج إطار التنظيمات المتطرفة وأخذ موقف واضح من داعميها الإقليميين، فالنظام لن يسقط بضربات النصرة، مهما آلمته ضرباتها، باعتبارها جناح القاعدة في سوريا، ويبرر له استجلاب القوى الاقليمية والدولية لمقاتلتها، لا سيما وأن الولايات المتحدة على الأقل كانت قد اعتبرت جبهة "النصرة" منظمة إرهابية في شهر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢.

[١٧٣] علي عزت بيغوفيتش (١٩٢٥- ٢٠٠٣). أول رئيس لجمهورية البوسنة والهرسك (١٩٩٠- ١٩٩٦) بعد انتهاء الحرب البوسنية.

[١٧٤] http://www.estqlal.com/article.php?id=6917 ، وهي الاتفاقية التي أنهت الصراع في البوسنة والهرسك.

[١٧٥] في إحدى المرات، أخبرني صديقي أن أحد المسلحين من إدلب تواصل معه من خلال برنامج السكايبي للحصول على السلاح. لا أعرف ما الذي دار بينهما بالضبط، لكن صديقي، الذي صار عضوَ المكتب التنفيذي للمجلس الوطني، بدا حزيناً ومحبطاً لأن المتصل تحدث معه بكلمات مهينة. عبّر هذا المثال عن طبيعة العلاقة التي ربطت المسلحين بـ "قياداتهم السياسية"!

[١٧٦] باعتبار أنه تشكّل في البداية من المنشقين الذين رفضوا قمع المتظاهرين. مع ذلك، لم يخل الأمر من منشقين من بقية الطوائف، وحتى تشكيل بعض المجموعات المقاتلة المتجاوزة لفكرة الأقليات الأكثرية (كتائب الوحدة الوطنية في إدلب) لكنها كانت محدودة ودعائية الطابع، ولم يكن ذلك لينسجم مع أسلمة الثورة وتسنينها كشعار رفعه المموِّلون أساساً، فكانت الدعوة لتشكيل كتائب مسلحة من الأقليات كلام حق يراد به باطل، وديكور هزيل يخدم أسلمة الثورة أكثر من نفي هذه الصفة عنها.

[١٧٧] ينطبق ذلك بشكل خاص على جبهة النصرة- فرع القاعدة في سوريا- حيث أجهزت على الكثير من فصائل الجيش الحر، وأهمها جبهة ثوار سوريا في ٢٠١٤/١١/٢ وحركة حزم في ٢٠١٥/٢/٢٦، كما اتهمت بتصفية قيادات حركة أحرار الشام الإسلامية في ٢٠١٤/٩/١٠.

عدة، علاوة على حزب الله، لزجّهم في ساحة المعركة، وما سيتبع ذلك من إذكاء نار الصراع السني– الشيعي!

زرع النظام بذور التطرُّف فوجد من يتجه للقائه في منتصف الطريق، وزرع بذور العنف ولعب لعبة العصابات المسلحة، فصارت حقيقة واحترقت بها أصابعه في نهاية المطاف. قال النظام، منذ البداية، أنّ ثمة مؤامرة عليه، ولم يلبث الكثير من المعارضون أن تبنّوا نظرية المؤامرة أيضاً، والتي هي بنظرهم مؤامرة على "الثورة السورية"! في هذه الأثناء، كان التاريخ يخاتل ويخادع، ويصدم أصحاب نظرية المؤامرة، كما فعل مراراً!

لكنّ الواقع كان يقول بأنّ ثمة "مؤامرة" على الشعب السوري وتنوعه وتعايشه من قبل معظم أطراف الصراع، إذ صارت الثورة أداة للشحن الطائفي الذي يمارسه تجار الدم والسلاح، ما سيضع السوريين بين فكّي كماشة النظام من جهة والمعارضة والداعمين الإقليميين لهما من جهة أخرى.

في ذلك الحين، تراجع الاهتمام الشعبي العربي والعالمي في المحرقة السورية، كما ازدادت مخاوف العالم من التطرُّف الإسلامي الذي ما انفك يتصاعد، وقد اجتذبت الفوضى السورية أعداداً متزايدة من الجهاديين، وتحوّل الشعب الثائر إلى ضحايا ومهجَّرين في الداخل والخارج.

لن تكون الحرب في سورية قصيرة كما اعتقد بعض المعارضين السُذَّج، وقد لا تقتصر على الداخل السوري، علاوة على تكلفتها الباهظة، وإجهاضها لعملية التغيير الديمقراطي برمتها. كما لن تعود الأمور إلى الوراء، ويتوقف نجاحنا في التقدم على وقف الصراع العدمي واستنهاض الرأي العام السوري الذي غاب بعد يقظته القصيرة في البدايات، والذي لم يعد ممكناً من دون حلّ تشابكات العلاقات الدولية التي ارتهنا لها، لكنّه لا يمنعنا من مراجعة شاملة للمرحلة السابقة، حتى لا نخسر، ولو إلى حين، الحلم الذي تخضَّب بدماء السوريين.

٤. إضرابات

بالتوازي مع التظاهرات، جرت دعوات عديدة للإضراب، وحققت نجاحات في أماكن التظاهر، مع أنه من غير المعروف تماماً الكيفية التي تم فيها التطبيق على أرض الواقع؛ إن كان طوعياً أم بالإكراه. وفي محاولة لاستعادة المبادرة من العسكرة المنفلتة، أعلنت بعض قوى الثورة عن تنظيم إضراب على مراحل ينتهي بالعصيان المدني[١٧٨]، ربما كانت تلك آخر

[١٧٨] تمت الدعوة لإضراب الكرامة بتاريخ ٥ كانون الأول ديسمبر ٢٠١٢. وجاء في بيان الدعوة، الذي لا تشوبه شائبة برأيي، ما يلي:

المحاولات السلمية المبذولة من قبل الناشطين للانتقال إلى مرحلة أكثر تقدماً. لكنّ العسكرة والأسلمة، المدعومتين بمال لا ينضب من عائدات النفط الخليجي منخفض التكلفة، كانتا الأسرع، ودفعتا باتجاه حرب أهلية تحت شعارات طائفية، بله عنصرية أحياناً[١٧٩].

لم يتم التنسيق والتحضير جيداً للإضراب، وبسبب جبن رأس المال لم يتجاوز الإضراب حدود أماكن التظاهرات، وفشل في تحقيق هدفه المتمثل بدفع الأماكن الخاضعة لسيطرة النظام على المشاركة، ما وجّه ضربةً جديدة لأنصار التوجُّه السلمي. كما تبيّن أنّ فعاليات أكبر مدينتين في سوريا، دمشق وحلب، لم تستطع المشاركة أو لا تريدها لسببين على الأرجح؛ الخوف من بطش النظام من جهة، والمستقبل الغامض الذي قد يطيح بمصالح تجار وصناعيي هاتين المدينتين من جهة أخرى، ولعلّ السبب الثاني هو الأهمّ والأكثر واقعية.

ففيما كان الإضراب يعمُّ مدينة دوما بالكامل، لم يُغلق محلٌّ واحد في مركز دمشق التجاري في الحريقة! وحين كنّا نتساءل عن ذلك، يجيب بعض المعارضين بأن السلطة ستكسر الأقفال إن أضربت مدينة دمشق! فهل يُبرَّر عدم إضراب المركز التجاري لدمشق بسبب مثل هذه المخاوف، أم أنّ الأمور أعقد من ذلك؟

حدث لاحقاً في حلب أن هاجمت جحافل المسلحين من الريف الحلبي المدينةَ العريقة[١٨٠]، ليس للإطاحة بالأقفال فحسب، بل لتحويل أسواق حلب القديمة وأهم مركز للعمل والثروة والتسوق في سوريا إلى ساحة حرب، ونهب ثرواتها وبيع معاملها خردةً للصهر في تركيا!

نعم، كان يجب العمل بالأساليب المدنية السلمية وتنويعها، وعلى رأسها الإضرابات، والتحلي بمزيد من الصبر والتأني والتخطيط لأشهر وسنوات! وكم كانت مهمة تجربة الشهيد

- هذه ليست مجرد دعوة أخرى من دعوات الإضراب، هذه هي الدعوة التي تضافرت لأجلها جميع الجهود، ونضجت عندها جميع أفكار العصيان المدني، هنا نظرنا باتجاه واحد معاً. هنا تلتقي جميع التنسيقيات والحركات الشبابية والهيئات ومجالس المعارضة والقيادات السياسية على اختلاف أطيافها.
- ابتداء من فجر يوم الأحد ١١ كانون الأول، سوف يشهد العالم انطلاق تطور جديد داخل الثورة السورية. هذه الشمس ستشرق من بيتك أنت، أنت قائدها وبطلها ودليلها، من بيتك ستشرق إلى بقية منازل سوريا معلنة بدء الإضراب المتصاعد وصولاً إلى العصيان المدني الشامل.
- أيها الشعب السوري العظيم يا من صنعتم معجزة في التاريخ السوري الحديث والتاريخ الإنساني بتحملكم هول همجية السلطة واستمراركم بالثورة السلمية، نحن أبنائكم وبناتكم نعلن أننا لن نلين وسوف نستمر بثورتنا السلمية من أجل بلدنا الحبيب للوصول إلى حريتنا وكرامتنا الكاملة على مستوى الوطن والمواطن.
- أيها الشعب السوري العظيم، بالإضراب والالتزام به وتصعيده نحو العصيان المدني نستعيد زمام الفعل السياسي وننزع فتيل الانقسام المجتمعي ونردّ خطر التدخل الخارجي، ونضع الثورة على طريق الديمقراطية الحقيقية وتثبيت مفهوم المواطنة الكاملة بالحقوق والواجبات.
- عاشت سوريا حرة أبية.

[١٧٩] على الرغم من وجود عدة آلاف من مقاتلي جبهة النصرة في المنطقة الجنوبية، بقي الجسم الأساسي لقوى "الجيش الحر" يقاتل تحت رايات سورية، بخلاف الشمال السوري الذي سيطرت عليه القوى المتطرفة بدرجةٍ أكبر.

[١٨٠] حدث ذلك للمدينة التي كانت تقدِّم حوالي ثلث الدخل الوطني في صيف ٢٠١٢.

غياث مطر ورفاقه في داريا، على سبيل المثال لا الحصر، أساسيةً رغم مأسوية مصيره، والتي أكّدت على عمق خيارات الناشطين السلميين وأهميتها وأحقيتها[١٨١].

إنّ ما جرى لاحقاً لا يدع مجالاً للشّك بخطأ الخيارات العسكرية المعززة بأيديولوجيا إسلام ابن تيميه وأضرابه، وما نجم عنها من المشاركة في إراقة الدماء على نطاق واسع، وتعزيز حلم الإسلاميين والجهاديين في السيادة على أنقاض سوريا.

٥. مؤتمر "سوريا في إقليم متغير"

في أوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١ وصلتني دعوة من مركز القدس للدراسات في الأردن لحضور مؤتمرٍ حول سوريا تحت العنوان أعلاه[١٨٢]. دفعتني رغبة قوية للخروج من سوريا، ولو ليوم واحد، وقد حُرمت من ذلك منذ العام ٢٠٠٦ بعد فصلي من عملي في الجامعة ومُنعي من السفر. ذهبت إلى مركز الهجرة والجوازات في دمشق للتأكد من أنّ القرار الذي صدر مؤخراً برفع حظر السفر عن مئات المعارضين يشملني. كان الأمر كذلك بالفعل، وخلال أيام صار بحوزتي جواز السفر.

***

الصباح باردٌ وجاف يطيب فيه التنفس بعمق، فيما لم تزل مدينة دمشق تتثاءب بهدوء. في الشارع الرئيسي من ضاحية قدسيا كانت باصات النقل الداخلي الخضراء تتوقف لنقل مجموعات مختارة من الأمن والجيش واللجان الشعبية لإيصالها إلى المناطق "الساخنة" في ريف دمشق وغوطتيها، ولا شيء آخر في الأفق غير سحابة التلوث المعتادة التي تحجب الجزء الشرقي من المدينة.

عند مررنا على حاجز للجيش بمحاذاة حي القدم تذكرت زيارتي لهذا الحي منذ نصف عام في غمرة المظاهرات السلمية. وفي سهل حوران، زادت أشعة الشمس الذهبية من ألق خضرة أشجار الزيتون المصطفة بانتظام في الحقول الخصبة شبه الخالية من المزارعين. هل كان لهيامي بتلك الفتاة الحورانية في سن المراهقة علاقة بعشقي لهذي السهول؟

في الجهة السورية من المعبر الحدودي في "نصيب" ترقَّبت ردود أفعال موظّف الجوازات، إن كانت سفرتي ستتم بسلاسة مثل جميع المسافرين من حولي أم لا. لم يطل انتظاري، أعاد لي الشاب الجواز مرفقاً بابتسامة لطيفة.

---

[١٨١] اعتقل غياث مطر في ٢٠١١/٩/٦ واستشهد تحت التعذيب في ٢٠١١/٩/١٠. اشتهر غياث بمبادراته في تقديم الماء والورود لقوى النظام التي كانت تحاول قمع التظاهرات في مدينة داريا.

[١٨٢] عقد هذا المؤتمر في الفترة من ٢١ إلى ٢٢ كانون أول/ ديسمبر ٢٠١١ في فندق موفنبيك على شاطئ البحر الميت.

في الجانب الأردني من الحدود، انتهت إجراءات ثلاثة من ركاب التاكسي خلال دقائق، وبقيت أنتظر جواز سفري حوالي الساعة. أخيراً، ناداني الموظف وناولني سماعة الهاتف، طالباً مني التحدث مع أحدهم. استفسر المتحدِّث عن سبب سفري إلى الأردن، فقلت له الحقيقة، حينئذٍ أعلن المتحدّث عن هويته بأنّه ضابط في المخابرات الأردنية، وأنّهم مهتمون للغاية بما يحدث في الجارة سوريا ويودون التعرُّف عليّ ومناقشة بعض الأمور، متمنياً عليّ المرور إلى مقرِّهم في عمّان من أجل ذلك!

الفرحة التي انتابتني للمرور بسلامة والخلاص في الجانب السوري من الحدود تحولت إلى غصّة مريرة، فها أنا أقع في قبضة المخابرات الأردنية، فإلى أين المفرّ! أجبت محدِّثي بأن ليس لديّ الوقت للقائهم، وأنني سأحضر مؤتمراً علنياً، وبوسعهم الاطّلاع على رأيي من خلال مجريات المؤتمر. انتهى حديثنا عند هذه النقطة، وطُلب مني الانتظار أيضاً.

في ذلك الحين، كان سائق التاكسي يروح ويجيء مستفسراً عن سبب توقيفي كل هذا الوقت، فأذنت له بمتابعة السفر من دوني. بعد ساعة أخرى من الانتظار، أعطوني جواز سفري، وركبت سيارة عابرة إلى عمّان في حالة من الاستياء الشديد.

في محطة المسافرين، وسط المدينة، انتظرني سائق السيارة الأردني- الفلسطيني ليقلّني إلى ساحل البحر الميت. قاد السائق بهدوء عبر منحدرات والتواءات حادة إلى أخفض نقطة تحت مستوى سطح البحر؛ - ٤١٧ متراً.

بُنيت حجراتُ فندق المُوفنبيك على نمط البيوت الريفية المحلية، ما أعطى المكان طابعاً مميزاً. استلقيت في غرفتي لإغفاءة قصيرة. ثم خرجت لأستطلع المكان، متلذِّذاً بتناول جرعاتٍ من زجاجة البيرة لقهر تلك الحرارة المشبعة بالرطوبة. راقبت غروب الشمس وراء جبال الضفة الغربية لنهر الأردن، إلى أن حلَّ غبش المساء دكنةً ثقيلةً على مياه البحر الميت.

***

بعد دقائق من التّعرف والتعارف، بدأ المؤتمر جدول أعماله في تمام الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي. كانت المرة الأولى التي أحضر فيها مؤتمراً من هذا النوع، وبدت لي الأمور منظّمةً بصورةٍ جيدة. كان ثمة وفدان سوريان في المؤتمر، واحد من "المجلس الوطني" وآخر من هيئة التنسيق، علاوة على بعض الناشطين والمستقلين، وكنت من بينهم. كما حضر المؤتمر ممثلون عن دول الجوار، تركيا ولبنان وسوريا والأردن والعراق ومصر والسعودية وإيران، وبعض الممثلين الأجانب ومندوبين عن المركز الديمقراطي الأمريكي للسلام وغيرهم.

منذ الجلسة الأولى، طغت المنافسة الحادة والجدال بين أعضاء وفدي هيئة التنسيق و"المجلس الوطني"، بما لا يخدم قضية السوريين، لكن عنجهية ممثلي "المجلس الوطني"،

المصاب بالغرور، كانت واضحة في ادّعاء تمثيل الشارع والثورة[١٨٣]، مقابل مواقف تقليدية ومكرّرة لهيئة التنسيق، لكنّها أنضج سياسياً، مع أن ذلك لا ينفع كثيراً في الظروف الثورية المتخمة بالعواطف.

شجَّع "الإخوان المسلمين" الشباب، الذين ربما شاركوا في مظاهرة واحدة، على الخروج من سوريا، حتى أنهم نسّبوا إلى مكتب الحراك الثوري في "المجلس الوطني" شبابهم الذين ولدوا في الخارج ولم يدخلوا سورية قط! في هذا الصدد، أشار أحد هؤلاء، من ريف دمشق، والذي كان قد خرج من سوريا لتوّه، إلى "الطائفة التي تقتلنا"[١٨٤]، وردّ عليه مقرر الجلسة طالباً الاعتذار عن مثل هذا الكلام الطائفي المعمّم. سيدفع هذا المنطق، علاوة على عوامل أخرى، باتجاه صراعٍ أهلي تضيع فيه مطالب الحرية والكرامة، والطائفيون جاهزون دوماً لتقديم هذه الهدية الثمينة للنظام الذي يجمعهم معه حلم الاستبداد.

***

كما في كل المؤتمرات، تحوز اللقاءات الجانبية على أهمية قصوى، إذ تصبح الأحاديث أكثر تلقائية وصراحة[١٨٥]. ففي لقاء جمعني بزعيم عشيرة الموالي من منطقة إدلب، حدثني الرجل عن ابنه الذي كان من أوائل الجنود المنشقين في حي جوبر بدمشق، ثم استشهد لاحقاً. قال الشيخ أن عشيرته لن تُسامح النظام على الإطلاق، وأضاف، ربما ليطمئنني: "العلويون أخوتنا وجيراننا ونعيش معهم منذ مئات السنين ولن نتعرّض لهم قط." لم تكن جحافل الإسلاميين التكفيريين قد غزت سوريا بعدُ!

وفي حديثٍ جانبي مع إحدى السيدات، وهي ابنة أحد مسؤولي الإخوان المسلمين في "المجلس الوطني"، جرى، بصعوبة، تدوير الكثير من الزوايا العقائدية التي تشوّش على العقل. كان نشاط هذه السيدة يتعلق بإيصال المواد الطبية من الخارج إلى بلدات ريف دمشق الثائرة.

أحياناً، كان بعض المعارضين في الخارج يتحدثون عن سوريا وكأنهم يتحدثون عن بلدٍ آخر؛ فإما أن يكونوا قد تغيروا خارجها وبقيت سوريا كما هي، أو أنّ سوريا قد تغيرت في حين تثبّتت مواقف هؤلاء المعارضين في لحظة تاريخية ما، غالباً عند بداية الثمانينات. الأكيد أنّ

---

١٨٣ حدث أيضاً أن تهجم أحد الشباب من المجلس الوطني على الأستاذ حسين العودات باعتباره في صف هيئة التنسيق، وبكلمات تخلو من آداب الحوار، ما اضطرني للجلوس بجانبه ومراقبة حالته الصحية التي لم تكن على ما يرام.

١٨٤ يقصد الطائفة العلوية.

١٨٥ في استراحة القهوة بين الجلسات، اقتربت مني إحدى موظفات "مركز القدس للدراسات"، وهي فتاة أردنية محجبة، وقالت: "دكتور، احذروا من أن يحكمكم "الإخوان المسلمين"، نحن لنا تجربة قاسية معهم في المجتمع، ومن جهتي أقبل بأي طرف إلّاهم."

سوريا لم تكن وطناً ناجزاً لمواطنيها، وبالتالي كان لكلّ سوريّ سوريته التي تشبهه أو التي يحلم بها أو أنه لا يؤمن بها أصلاً، فكأنّ لسان حال كلّ منّا يقول: "لكم سوريتكم ولي سوريتي!"

***

لم تحلْ كثرة الهموم دون الذهاب إلى شاطئ البحر الميت. عبر الأدراجِ الموصلة إلى الشاطئ، مررت بالكثير من أماكن الاسترخاء والعلاج الطبيعي بوحول البحر الميت وصوابينه ومستحضرات أملاحه، ولم يكن ارتيادها من بين خياراتي بالطبع.

تقدَّمت مويجاتٌ صغيرة بهدوء إلى الشاطئ، ثم تكسرت وتخامدت تدريجياً بعد أن غسلت الحجارة التي تراكمت عليها طبقة ثخينة من الأملاح. ولجتُ البحر بمهابة، استلقيت على صفحة الماء، أغمضت عينيّ.. ولم يكن للأحلام الجميلة من نصيب وسط فوضى الأفكار المتزاحمة في رأسي!

مساء اليوم ذاته، اصطحبونا في رحلةٍ ليلية إلى الجبال العالية على الضفّة الشرقية لوادي الأردن، في زيارة لمحمية الغزلان والماعز البرية. جلسنا في استراحة تطلّ على وادي البحر الميت والضفة الغربية لنهر الأردن، تناولنا أصنافاً من الطعام المحلي المشتقّ من حليب الماعز، مع النبيذ أو المياه الغازية حسب الأذواق والعقائد! بدت أضواءُ مدينة أريحا الفلسطينية على الشاطئ المقابل، وتلألأت أنوار مدينة القدس فوق الهضاب البعيدة، فتذوقت طعم الإحباط أيضاً؛ في بلدي تهبُّ رياح الموت، وعلى الشاطئ المقابل أعداؤنا وأهلنا في تعايش نحسدهم عليه، فهل هي مجرّد مفارقة؟

***

كان الانطباع الذي أتيت به من المؤتمر مؤلماً؛ من جهة راودتني شكوك جديّة حول دور المعارضة "الخارجية" المتمثّلة بـ ”المجلس الوطني“، ومن جهة أخرى لم أجد أنّ هيئة التنسيق، بتآلف أحزابها شبه المنقرضة، تتلاءم والحدث السوري الكبير، مع أن بعض شخصياتها تميزت بمستوى جيد من الأداء السياسي.

في ذات الوقت، ازدادت قناعتي بأهمية دور الشباب، لكن مَن منهم؟ هل هم هؤلاء الذين ذهبوا إلى الخارج طوعاً أو هرباً من الاعتقال والقتل، أم أولئك الذين بقوا في الداخل وصاروا أمام خيارات صعبة، مثل حمل السلاح أو الاعتقال أو الموت؟ في المقلب الآخر، ثمة نظام منغلقٌ على كافة الحلول ومتشبِّثٌ بأوهامه الأبدية حتى النهاية!

في طريق العودة إلى دمشق، علِقت مرّة ثانية على الحدود الأردنية، وانتظرت أكثر من ثلاث ساعات للإفراج عن جواز سفري، كضربٍ من انتقام مخابرات دولةٍ عربية أخرى لا تختلف عن سواها في هذا الشرق الغارق في استبداده وأوهامه منذ مئات السنين!

يوميات دمشق

تم تعيين زوجتي في مدرستين، إحداهما في ضاحية قدسيا، والأخرى في قرية "سوق وادي بردى"، ثم انتقلت من هذه الأخيرةِ إلى مدرسة أقرب في بلدة "أشرفية وادي بردى[١٨٦]"، وذلك لصعوبة السفر يومياً إلى تلك الناحية البعيدة.

عند ذهابها إلى "سوق وادي بردى"، كانت المعلمة تبدِّل سيارة السرفيس أحياناً في بلدة دير قانون، التي شهدت تظاهراتٍ هامة. ذات مرّة، وفيما كانت تنتظر السرفيس، بدأ بعض الشباب بالتحرش بها تحرشاً "ثورياً"، إذ مرّ بعض راكبي الدرجات النارية بجانبها تماماً، وردَّد بعض المراهقين في وجهها شعار: "الله.. سوريا.. حرية وبس"، فقط لأنها لم تكن ترتدي الحجاب، وبالتالي فقد استنتجوا موالاتها للنظام! كان ذلك من مؤشرات وعي الثورة كثورة "سنة" ضد "علويين" أو "أقليات"، مع ما يستلزمه ذلك من تنميط[١٨٧].

عادت المعلمة إلى البيت وهي في حالة من الاضطراب والخوف، بكت بحرقة وعبّرت عن مشاعرها بهذه الكلمات: "تمنيت لو أردِّد معهم هذا الشعار[١٨٨] لكنّ الخوف منعني، قارنت بين هذا الموقف وموقف آخر تعرضت له في اللاذقية، حين كان جيراننا من المراهقين الموالين للنظام يوجهون سباباتهم إلى وجهي في الطريق ويهتفون: "الله.. سوريا.. بشار وبس!"

هذه المفارقة سيعيشها الكثير من النشطاء غير الإسلاميين، وصولاً إلى تحييد معظم الشعب السوري عن المشاركة في التعبير عن رأيه ووقوعه بين حجري رحى الحرب العدمية.

---

[١٨٦] بخلاف الحالة الممتازة في مدرسة أشرفية وادي بردى، من حيث التعليم والتعامل الراقي من قبل إدارة المدرسة، كانت الأيام الثلاثة التي تدرِّس فيها المعلمة في إحدى مدارس الضاحية كابوساً حقيقياً، فالمديرة المؤيدة للنظام بفجاجة، تعامل المدرسات المختلفات بصورةٍ شديدة العدائية، وقد خبرت ذلك بنفسي عندما كنت أوصل ابنتيّ إلى المدرسة أو أعيدهما منها.

خلال هذه الفترة، من خلال علاقة زوجتي بزميلاتها في المدرسة، تعرفنا على بعض الأصدقاء في الوادي وربطتنا بهم أطيب العلاقات.

[١٨٧] ستكمل القوى الإسلامية الجهادية هذا التنميط بفرض الحجاب في أماكن سيطرتها، علاوة على أزياء أخرى مثل النقاب واللباس الأفغاني وإطلاق اللحى، وستصل هذه الممارسات إلى أوج لا عقلانيتها واستبداديتها في ممارسات تنظيم داعش.

[١٨٨] "الله.. سوريا.. حرية وبس"؛ من الشعارات الرئيسة التي رددها المنتفضون، وقد قلَّده أنصار النظام وشخصنوه إلى شعار: "الله.. سوريا.. بشار وبس!"

خلال لقاءٍ في منزل صديقي مع بعض السفراء الأجانب، منهم السفيران الأمريكي والفرنسي، روت زوجتي بالانكليزية هذه القصة والمفارقة التي عاشتها، سواء في اللاذقية أو في "دير قانون." علّقت بدوري على الأمر، معتبراً أن ثمة خطراً متزايداً بتحوُّل الثورة إلى حرب أهلية إن لم يتم بذل جهود كبيرة من قبل المعارضة للتصدي لعملية الشحن الطائفي المعزَّز من الخارج. تكفّل السفير الأمريكي "روبرت فورد"، الذي يعرف العربية جيداً، وبكل تواضع، بترجمة رأيي هذا وغيره إلى بقية السفراء الأوربيين[١٨٩].

***

أول لقاء لي بسفير أجنبي كان مع السفير الفرنسي "أريك شوفالييه"[١٩٠] في مكتب صديقي وسط دمشق، وذلك في منتصف شهر تموز/ يوليو ٢٠١١، حيث قدّمني الصديق للسفير الفرنسي بصورة لطيفة وقدّرني بما أتمنى أن أستحقُّه. كنّا عدة أشخاص من المعارضة، وعلى هامش اللقاء، طلب السفير الفرنسي تفاصيل عمّا حدث في جسر الشغور[١٩١]. واضح أنه أراد اختبار نوايا بعض المعارضين حول استعمال السلاح في ذلك الوقت المبكر خارج إطار الدفاع عن النفس. لم يكن لدى أي منّا رواية دقيقة لما حدث، لكنّ أحد المعارضين انبرى لتقديم رواية بوليسية تبيَّن أن لا علاقة لها بالواقع، فشعرت بالإرباك العميق. شكّك السفير شوفالييه أيضاً بما سمعه من ذاك المعارض، وبدا عليه الامتعاض.

حضر السفراء والعاملون في السفارات للقائنا في بيت صديقي بصورة دورية، وحظي السفير الفرنسي بمرافقة لصيقة ومتنبِّهة بعد تعرضه للتهديدات. غالباً ما كانت معلومات السفيرين الفرنسي والأمريكي دقيقةً لاعتمادهما على مصادر معلوماتية متنوعة.

كان ثمةّ الكثير ممّا يقلقني في مثل هذه الاجتماعات، بعضها أمور شخصية وأخرى عامة. لعلّ الأمر الشخصي الأهم هو ضعف لغتي الإنكليزية التي تعلمتها على كِبَر، بخاصة فيما يتعلق بالمحادثة، رغم فهمي لهذه اللغة بصورة مقبولة ومعرفتي الجيدة بها قراءةً. كانت كلمات من اللغتين الفرنسية والروسية تحشر نفسها بلا استئذان بين مفردات اللغة الانكليزية، فيضيع المعنى ويضيع معه المستمعون! ولم ألبث أن توقَّفت عن محاولة التحدُّث بالإنكليزية، وصرت أعتمد على زوجتي الجريئة أحياناً لتنقذني في الأوقات الصعبة.

---

[١٨٩] كانت زيارة السفراء في هذه المرة للتضامن مع صديقي الذي أصيب بكسر في ساعده نتيجة تعرضه للضرب بالعصي مع مجموعة من الشباب في أثناء مشاركتهم في مظاهرة بحي الميدان بتاريخ ١٠/٧/ ٢٠١١.

[١٩٠] بدا السفير الفرنسي على شبه كبير برئيسه ساركوزي، ولا أعرف إن كان ذلك مجرد مصادفة أو أنه قريبه بالفعل.

[١٩١] بعد عدة أيام من الاشتباكات المحدودة على هامش التظاهرات التي حدثت في مدينة جسر الشغور، أواسط شهر حزيران/ يونيو ٢٠١١، حصلت اشتباكات عنيفة ومفاجئة من حيث الحجم، قتل فيها أكثر من مائة جندي وشرطي وعنصر أمن من القوات الحكومية. طرح ذلك أسئلة جدية حول سلمية التظاهرات، وكان السفراء الأجانب متلهفين لمعرفة ما إن كان ذلك تحولاً نحو العسكرة أم لا، باعتباره يتناقض مع ما تعلنه أوساط الثورة، التي كانت تصر على السلمية في تلك المرحلة.

أما الأمور العامة، وهنا بيت القصيد، فقد اشتملت على بعض الملاحظات المؤلمة، منها عدم وجود رؤية واضحة لسوريا القادمة، والتركيز على مسألة سقوط النظام بدعم دولي متخيَّل أكثر ممّا هو واقعي، وإصرار بعض المعارضين على دورهم المركزي في المعارضة والتبجُّح بتأييد الشارع لهم، واستفاضتهم بالحديث عن أطراف المعارضة الأخرى لجهة إقصائهم ونشر غسيلهم، كما اعتاد المعارضون السوريون على التعامل بعضهم مع بعض!

من الأمور المؤلمة أيضاً هو التعريف بنا من خلال انتماءاتنا الطائفية كأقليات، كمن يريد القول: "نحن الثورة وهؤلاء "الأحرار" معنا أيضاً، فتغيب سوريتنا وتحضر "طوائفنا"! آنئذٍ، كان ينتابني إحساس بفقداني لبعدي الوطني وتقهقري إلى "ابن أقليةٍ" لم أؤمن يوماً بالانتماء إليها إلاّ فيما يتعلق بتأثُّري بثقافتها إلى هذه الدرجة أو تلك، وبحكم المولد والنشأة. أما من حيث الخيار السياسي فإنّ الكثير من مثقفي الأقليات هم علمانيون وليبراليون، وربما إنسانيون وكونيون، ظاهرياً على الأقل، مع أنّ الشحن المذهبي والقتل على الهوية من قبل التكفيريين لاحقاً، دفع ببعضهم للانكفاء والاحتماء بالبنى القبْلية!

كان صديقي متماهياً مع سياسات المجلس الوطني، ولم يكن بمقدوره توسيع زاوية رؤياه، في وقتٍ كنّا فيه بحاجة ماسّة للتفكير بحرية وتجاوز الأطر السياسية التي تشكلت أصلاً كحاجة أكثر منها كحقيقة سياسية تحوز على مصداقية التمثيل والشرعية. في اللقاءات مع السفراء الأجانب، كان صديقي يطنب في مديح المجلس، ويقلّل من أهمية باقي المعارضين، آخذاً من الوقت أكثره، ومتوهِّماً أن مستمعيه سيحرِّكون بوارجهم الحربية لنصرة أعضاء المجلس ووضعهم على كراسي الحكم، كطغاةٍ صغار!

***

من الناحية الشخصية، لفت انتباهي السلوك المتأدب لهؤلاء السفراء والسفيرات، بما في ذلك عدم تدخينهم في أثناء الاجتماعات. عرفت ذلك من ملاحظة أنّ المدخنين منهم كانوا يشرعون بإشعال سجائرهم فور الخروج من الباب. كما لاحظت اقتصادهم في الطعام والضيافة، ومن بين العشرات الذين التقيتهم، واحد فقط كان لديه وزنٌ زائد من الناحية الطبية؛ السفير السويدي.

مقابل ذلك، نفث المعارضون دخان سجائرهم دون مراعاة لضرورة عدم التدخين في الأماكن المغلقة[١٩٢]! الطريف أنّ سلوك السفير التركي كان في "منزلةٍ بين المنزلتين"، ما عكس

[١٩٢] قلت لهؤلاء مرة ساخراً أن بشار الأسد أكثر حضارية منكم من هذه الناحية على الأقل، لأنه أصدر مرسوماً بمنع التدخين في الأماكن العامة المغلقة.. وعمّ الصمت!

وضع بلده أيضاً الطامح للاقتراب من أوروبا دون أن يبلغها. على سبيل المثال، كان هذا السفير يتظاهر بالصوم في شهر رمضان بوجود إسلاميين، ويفعل خلاف ذلك بوجود غيرهم!

لم يكن السفير الفرنسي دبلوماسياً دوماً، بخاصة حين يستفزّه أحدهم بمعلومات غير دقيقة، فيبلغ حدّ النَّزق، ولا يمرِّر ما يعتقد أنه غير مناسبٍ من كلام. وهكذا، حين قال صديقي بأنّ الشبيحة العلويين (باستخدام أداة التعريف The Alawite Shabiha) فعلوا كذا وكذا، قاطعه السفير، وهو يحرك يديه بعصبية، مشيراً إلى زوجتي وإليّ قائلاً: "يوجد شبيحة علويون، نعم، ولكن يوجد الكثير من العلويين الحضاريين، ومن ذوي التعليم العالي أيضاً!"

بخلاف شخصية السفير الفرنسي، التي تتّصف ببعض الحديّة، تمتَّع السفير الأمريكي "روبرت فورد" بدرجة عالية من الهدوء والتعقُّل، وعبّر بشفافية عن سياسة أمريكا الحذرة في عهد الرئيس أوباما. كما كان محقاً فيما أورده عن المعارضة السورية المسلحة وممثليها، وذلك سواء في تقريره إلى الكونغرس أو في تصريحه لمجلة فورين بوليسي الأمريكية"[١٩٣]، وأشهد على وقائع كثيرة تحدّث عنها السفير بصدق. ولم يكن ردّ الأستاذ برهان غليون عليه موفّقاً[١٩٤]، فتجاهل موضوع المعارضة حين وضع اللّوم على سياسة الولايات المتحدة في سوريا، والتي انتقدها فورد نفسه أيضاً بعد اعتزاله منصبَه في ٢٠١٤/٦/٥.

احتاج السفراء الأجانب إلى معلومات حول علاقة المعارضة بالحراك، وهل ثمة تمثيل بالفعل أم ادعاءات؟ وما هي مؤشرات تصاعد العنف.. الخ؟ بمعنى آخر، كان العالم يتخوّف من حرب أهلية وتداعيات غير محسوبة لسقوط النظام قبل أن تتبلور بدائل مقنعة، فيزداد سعير الصراع الأهلي، وربما يتجاوز الصراع سوريا ذاتها إلى دول الجوار. مثَّل ذلك جانباً من المسألة على الأقل، ولا يمكن استبعاد الأهداف والمصالح الأخرى، بما فيها القطبة الإسرائيلية المخفية. في هذا الإطار، شعرت أحياناً، وبمرارة، أنّ بعض الأطراف الأجنبية خدمت القضية السورية أكثر من بعض المعارضين، وقلت مرّةً بأنّ السفراء الأجانب كانوا، في بعض الأحيان، "وطنيين سوريين" أكثر من بعض المعارضين السوريين!

---

[١٩٣] تحدث السفير الأمريكي فورد لصحيفة فورين بوليسي الأمريكية عن ممارسات وحشية ارتكبتها المعارضة المسلحة السورية وضرورة التعاون مع الجيش النظامي لحماية المدنيين ومقاطعة جبهة النصرة وعدم السعي إلى تدمير الأقليات المكونة للمجتمع السوري، كما انتقد سياسة بلاده واعترف بفشل سياساتها فيما يتعلق بالوضع في سوريا. www.al-akhbar.com/node/228022

[١٩٤] تمثل رد رئيس "المجلس الوطني" السابق برهان غليون من خلال إطلاق مجموعة من الجمل الإنشائية، واعتبار أمريكا هي المسؤولة عن بقاء النظام، وأنها لم تساعد الثورة والثوار. لم ينبث غليون بكلمة واحدة عن تستر أمثاله من المعارضين على جحافل المجاهدين والإرهابيين القادمين من الخارج، طالما أنهم يحاربون النظام، ويريدون "نصرة" الثورة، فهل نصروها؟ نُشرت مقتطفات من ردّه على السفير فورد في صفحته على موقع الفيسبوك:
https://www.facebook.com/BurhanGhalion/posts/718446674874398?stream_ref=10

بعد خلافي الحاد في الرأي مع صديقي حول "المجلس الوطني"، ولأنني كنت على اطلاع دائم على رسائل المجلس الداخلية[١٩٥] وما يحدث في مكتبه التنفيذي من علاقات أشبه بالتآمر بين أشخاص لا يمتلكون أية صفة تمثيلية حتى داخل المجلس نفسه، صار يتجنّب إعلامي بمواعيد اللقاءات مع السفراء، مثلما صرت أتجنّب لقاءهم حتى لو ألحّ بطلبي بعضهم، لئلا أُحرج صديقي في منزله، حيث كانت تتم معظم اللقاءات.

على الهامش وفي الصميم

فيما كنت أجلس مع ابنتي على أرض الغرفة، مثلما اعتدنا الجلوس في بيتنا على الدوام، رأيتها تعضّ على طرف قلم الرصاص بعصبية، وهي تقرأ في كتاب الديانة للصف الثالث الابتدائي. حين استفسرت عن سبب قلقها، سألتني إن كنّا نحتاج إلى الله في كل الأوقات أو أحياناً فقط، وهو السؤال المطروح في الدرس. قلت بأنّ عليها الإجابة كما تعتقد، فارتاحت ملامحها ووضعت إشارة صح بجانب خيار "أحياناً".

في اليوم التالي، عادت الطفلة باكيةً. لم تعتبر المعلمة الجواب خاطئاً فحسب، بل أنّبتها على اختيارها لهذه الإجابة! نظرت الطفلة إليَّ وكأنها تستنجد بي للخروج من هذا المأزق. قلت لها: "تمسكي برأيكِ طالما تعتقدين بصحته، وقد تتغير قناعتكِ يوماً ما."

لماذا خافت الطفلة من الجواب؟ وهل الأمر يتعلق بنقص معرفة أم بتلقينها؟ إنها، برأيي، اللحظة التي تبدأ فيها قولبة التفكير وإلغاء العقل، وقس على ذلك. في هذه الحالة كان المنهاج الدراسي متفوِّقاً على عقل المدرِّس، الذي تقولب تفكيره في مسيرة تحجيم العقل وتقزيم الإيمان.

من جهة ثانية، كانت حناجر الأطفال تردِّد في باحات المدارس أهداف حزب البعث الثلاثة، وحدة حرية اشتراكية، كصرخات بلا صدى، وفي انفصام تام عن الواقع؛ وطنٌ في الشعارات والملصقات والصور، وعلى الأرض تتصارع الانتماءات، وينزح الناس من مكان إلى آخر باحثين عن الأمان!

***

في تلك الأثناء، اتصل أحد عناصر الأمن السياسي ليسألني أين أسكن، ويأخذ بعض المعلومات الشخصية، التي كررتها لهم عشرات المرات في حياتي؛ عن مدارسي وشهاداتي والأحزاب والجمعيات التي أنتمي إليها.. الخ! كنت على يقين بأنّ سكني في منزل صديقي لن يمرّ عليهم ببساطة، وقد احتطت للأمر بإجراء عقد اكتراء نظامي.

---

١٩٥ للأسف الشديد كنت قد ألغيت اشتراكي في هذه الرسائل، علاوة على حذف كمّ كبير من الوثائق أيضاً من الحاسوب الخاص بي بسبب الخوف من المداهمات الأمنية المفاجئة، ولم يكن في حسباني أني قد أكتب عن هذه الأشياء، وضاعت معلومات لا تقدر بثمن!

الفصل التاسع

طائفية وطوائف

خصوصية الحالة السورية

لا غرابة في أن يطالب السوريون باسترداد كرامتهم المفقودة، بمعنى التحرُّر من الخوف وتحكُّم الأجهزة الأمنية، إلى جانب الحصول على حرية التعبير، أو، باختصار، التخلص من الاستبداد، بعد ذلك فليختلفوا في مطالبهم وأنماط حيواتهم. لم يبدأ الأمر في سورية كحرب أهلية،

ومسؤولية الوصول إلى هذه المرحلة يتحملها النظام في المرحلة الأولى، ثم التكفيريون المسلحون وداعموهم في المرحلة الثانية. كما لا يمكن مقارنة ما يحدث في سوريا بالحرب الأهلية اللبنانية التي قامت من أجل الحدّ من امتيازاتٍ طائفية مثبّتة بالدستور[١٩٦].

عمل النظام، على نحوٍ خاص، على تخويف الطائفة العلوية لتحتمي به، وحتى يضمن لنفسه الاحتماء بها عند الضرورة. اقتضى ذلك محاولة عزل الطائفة وطمس شخصيتها ليتحول إلى ممثلها الوحيد بغياب كل من يعبر عنها اجتماعياً، وحتى روحياً.

ليس للعلويين امتيازات كطائفة، بل تحددت امتيازات البعض منهم بمقدار مشاركتهم في السلطة، كذراعٍ أمنيةٍ للنظام اقتضتها طبيعة انتماء قمة هرم السلطة إلى هذه الطائفة. ولم يكن ذلك منفصلاً تماماً عن وعي العامة منهم بدور وطني يقومون به، متأثرين بالدعاية الديماغوجية للسلطة فيما يتعلق بعلاقتها التصادمية مع الخارج المعادي أو المُستعدى لتكريس مزاعمها الوطنية. ولأنّ معظم العلويين لا يمتلكون غير أراضيهم الفقيرة التي لم تعد تكفي لإعالتهم في أدنى حدود المعيشة، فقد وقعوا في الفخّ، ووُضعوا في الواجهة ليمارسوا دورهم كإحدى ركائز النظام المتعددة في المجتمع السوري. منذئذٍ، أي منذ أن اختارهم النظام ليكونوا أهم أسوار حمايته، تراجعت تنمية الأرياف التي يقطنونها، والتي لم يبقَ فيها سوى القلائل الذين تابعوا صيرورة تطورهم الطبيعية والبطيئة، ولم يتشوهوا بمفاسد السلطة؛ بسبب استقلالهم الاقتصادي النسبي عن "نعمها" القاتلة.

في ذات الوقت، عمل النظام، ممثلاً بنخبته المسيطرة، على التحالف مع برجوازية المدن الرئيسة في سوريا، ليتحول الاقتصاد السوري لاحقاً إلى اقتصادٍ طفيلي هجين يعكس تحالف السلطة والمال بقوّة. كما ورث النظام أيضاً الغنيمة الثمينة لكل السلطات الدنيوية منذ العهد الأموي؛ التحالف مع الفعاليات الدينية الاجتماعية للأغلبية السنية، فيما قضى على كلِّ استقلال ديني واجتماعي للعلويين، لدرجة أنه استبدل مشايخهم التقليديين أيضاً بمشايخ مصنَّعين على المقاس بعد تقاعدهم من الأجهزة الأمنية، أو من المتشيعين الذين التحقوا بدوراتٍ دينية في بلدة "السيدة زينب" على غرار الدورات العسكرية، والذين عادوا إلى قراهم لنشر المذهب الشيعي، ففشلوا، ومن ثم تعلْوَنوا من جديد!

***

لم يمضِ وقت طويل على اندلاع الاحتجاجات، حتى افترق الذين خرجوا تحت شعارات الكرامة والحرية. منهم مَن فهمها سياسياً بصورة صحيحة، بمعنى دولة الديمقراطية والمواطنة،

---

[١٩٦] تكرّست هيمنة الطائفة المارونية على بقية الطوائف في إطار محاصصة طائفية قام على أساسها لبنان منذ استقلاله عام ١٩٤٣.

ومن أخذته حمية الجهاد مدفوعاً بإرادة قتال عقائدية مضمونة التمويل[١٩٧] من دول بعينها، مثل قطر والسعودية وتركيا حزب العدالة والتنمية[١٩٨] وغيرها، ما أفضى إلى الابتعاد عن أهداف الثورة والعمل على إقامة "دولة الخلافة" وغيرها من الأوهام المضادة لحركة التاريخ، وكان التجييش الطائفي للكثير من الفقراء والمهمّشين هو الطريق الأقصر الذي قد يوصل هذه الحركات إلى السلطة بقوة السلاح.

من جهته، جيَّش النظام أتباعه تحت راية الخوف من الخطر الإسلامي، الذي أيقظ بالفعل مخاوف الكثيرين، خاصةً من الأقليات، والطائفة العلوية في مقدمة هذه الأقليات بالطبع، لأنها لا تمتلك أي خيار سوى مقاومة الحملة الطائفية الهوجاء من خلال الاحتماء بالنظام الذي ترتبط به عضوياً، بخاصة في المجال الأمني- العسكري. في الواقع، لا شيء يوحِّد العلويين مثل ذكريات الاضطهاد الديني على يد السلطات التي حكمت باسم السنة، وآخرهم العثمانيون.

ما إن تظهر المخاوف الطائفية حتى تستيقظ كل أبالسة التاريخ، فيتضخّم الشعور بالمظلومية، وتُستعاد الذكريات التاريخية، الحقيقية منها والمتوهَّمة. لكن، من جهة أخرى، كان التعايش قد حصل بين السوريين إلى حدّ معقول جرَّاء هجرة أبناء الأرياف إلى المدن منذ الانتداب الفرنسي والمرحلة الوطنية قصيرة الأجل (١٩٤٦- ١٩٥٨)، إلى أن حجب الاستبداد "القومي" كل التناقضات، أو أعاد إنتاجها لصالح ديمومته.

اعتمد النظام على أغلبية علوية في أجهزته الأمنية بعد أن جرّد الطائفة من معظم ركائزها الاجتماعية كما أسلفنا، فتحوّل الكثير من أبنائها إلى جنود يرتزقون منه ويشدّون أزره. وفي بلدٍ كل مؤسساته مزيّفةً أو مسيطر عليها من قبل الأجهزة الأمنية، ارتبطت "العلوية" بذهن العامة بدكتاتورية النظام، من دون أن نغفل وجود المواقف الطائفية المسبقة والمتعالية عند بعض الأوساط الدينية للأغلبية السنية، وأخطرها تكفير العلويين وغيرهم استناداً لفتاوى سابقة، لعلّ فتوى ابن تيمية أشهرها وأخطرها[١٩٩].

في هذا السياق يجب ألا ننسى الصامتين من أبناء الطائفة، الذين لم يكن بوسعهم سوى الانتظار، على أمل أن تنتهي الأحداث بأقل الخسائر، ملتقطين، فقط، الإشارات السيئة من

---

[١٩٧] كانت الأوساط الدينية في الخليج، الوهابية منها على نحوٍ خاص، مصدراً لا ينضب لدعم التطرُّف الديني، بخاصة منذ ظهور منظمة القاعدة في أفغانستان بدعم مخابراتي أمريكي موجَّه ضد الوجود السوفييتي في هذا البلد، علاوة على الدعم الحكومي الخليجي، وبخاصة من مشيخة قطر المتورمة مالياً بفضل تصدير النفط والغاز، وإعلامياً بفضل قناة الجزيرة، الراعية المحترفة للإرهاب والأسلمة.

[١٩٨] دعمت تركيا بقيادة حزب العدالة والتنمية القوى الإسلامية الأقرب إلى "الإخوان المسلمين"؛ سراً عن طريق الجمعيات الخيرية الإسلامية، وعلانيةً من قبل حكومة حزب العدالة والتنمية الحاكم. وكانت قد فشلت عدة وساطات تركية بين النظام السوري والإخوان بهدف مشاركتهم الحكم. http://gate.ahram.org.eg/News/591162.aspx.

[١٩٩] الشيخ ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ)؛ يميل إلى التفسير الحرفي للنصوص ويعتبر الأب الروحي لـ "السلفية"، اشتهر بفتواه التكفيرية ضد الفرق الباطنية ومنها النصيرية. من أهم تلامذته الشيخ ابن القيم الجوزية.
http://www.almeshkat.net/index.php?pg=qa&cat=29&ref=1714

الجهة الأخرى، من حيث لم يتوانَ البعض عن إطلاق التصريحات ذات الطابع الطائفي العنصري ضدّهم، ما جعلهم يغرقون في صمتهم ويأسهم أكثر.

أما موقف "ناشطي الطائفة ومثقفيها" فلم يحسدوا عليه في أي وقت لأنّهم فقدوا حاضنهم الاجتماعي المحدود أصلاً، وتهجّروا من أماكن سكنهم، أو اضطروا للصمت، أملاً بالنجاة من الإزعاجات والتهديدات.

وكم كان الأمر مخادعاً عند وصف معظم المثقفين المعارضين المنحدرين من البيئات الاجتماعية العلوية بأنّهم "علويون"! فهم لم يعارضوا النظام يوماً إلاّ على أساس وطني، وموقف معظمهم بريء من كل طائفية يريد الآخرون، الطائفيون، أن يلصقوها بهم لطمس انتماءهم الوطني، والنظر إليهم من خلال المرآة الطائفية. كان ذلك ضرباً من الإقصاء المتعمَّد بحجّة عدم تأييدهم لـ "الثورة"، التي لم تعد ثورة بالنسبة للثوار المتأسلمين الطائفيين إلاّ بمقدار ما تُسقط النظام وتحملهم إلى سدة الحكم ليمارسوا استبدادهم الأمرّ والأدهى!

من جهة ثانية، بدأ الموالون المرتبطون بالمصلحة مع النظام باستيعاب الصدمة على جرعات والاقتناع بأنّ دوام الحال من المحال، فسوريا ستتغير مهما كان الثمن وممارساتهم الفاشية لن تنفع. في ذات الوقت، وضع البديل المعبَّر عنه على الأرض، والمتمثل بتزايد نفوذ التنظيمات الجهادية، التي وضعت لنفسها هدفاً معلناً هو إقامة الخلافة الإسلامية، وضع الكثير من السوريين في صفّ النظام أو على الحياد، بحكم الضرورة لا القناعة، ولأنّ مفهوم الدولة الحديثة كان شبه غائب عن أهداف معظم التنظيمات المقاتلة التي لا تخضع عملياً لأية مرجعية سياسية، باستثناء مرجعيات التمويل.

أدّت كل هذه التطورات إلى تحييد أغلب العلويين المعارضين للنظام تاريخياً أيضاً، ومعهم كل من لا يرتبط بالنظام بدافع المصلحة، فشعر دعاة الطائفية عندئذٍ بأنّ نظريتهم الطائفية صحيحة، وهتفوا بشماتة: "أرأيتم؟ أن الطائفة العلوية كلها مع النظام، باستثناء قلّة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة!" وما لبثت الاصطفافات الطائفية أن ضيّقت الحصار على العلمانيين جميعهم، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية والقومية".

يأخذ الخوف من الآخر، السنّي تحديداً[٢٠٠]، عند العلويين شكل رُهاب مرضي أحياناً، ولأسباب تاريخية ليس هنا المكان المناسب للخوض فيها، وجاء الإسلاميون ليوقظوا ذلك الخوف ويفتحوا دفتر فتاوى ابن تيمية من جديد. وشيئاً فشيئاً، صار العلويون يشعرون وكأنهم يدافعون

[٢٠٠] معظم ذكريات الاضطهاد تعود للفترة العثمانية، وما كان يتعرض له العلويون في المدن من إهانات، كريفيين أولاً، بهذا يشتركون مع أبناء الريف بغض النظر عن معتقداتهم، وكعلويين ثانياً.

عن وجودهم، وانكفؤوا إلى المناطق التي يسيطر عليها النظام، لكنّ ذلك لم يؤثر على تقبّلهم لمئات آلاف النازحين السُنَّة الذين شاركوهم الحياة في المناطق الساحلية.

وباستثناء القليل من الموتورين الطائفيين، لم يكن المستوى الشعبي العلوي طائفياً، وامتاز دوماً بقدرة كبيرة على التعايش والاستيعاب[٢٠١]، لكنَّ الكثيرين منهم خلطوا بين النظام والدولة، فاعتقدوا أنهم يدافعون عن الدولة السورية التي تمسَّك النظامُ بتلابيبها. كان ذلك الاعتقاد خاطئاً بوصفه خلطاً بين السلطة المستبدة والدولة، لكنه كان صحيحاً في جانبه الذي يدافع عن الدولة بوصفها مؤسسات يجب الحفاظ عليها، ولذلك لم يكن هؤلاء يمانعون أن يذهب أبناؤهم ليقاتلوا في أماكن بعيدةٍ في سوريا، ومعظمهم لم يعودوا إلاَّ قتلى أو جرحى.

يتميز "المجتمع العلوي" بدرجة كبيرة من التسامح الديني، وللفرد أن يختار التعاطي مع التقاليد الدينية العرفانية[٢٠٢] والصوفية[٢٠٣] أو يعيش بعيداً عنها، فلا مرجعية تفرض عليه أمراً لا يريده، وهذا ما يفسر النسبة الكبيرة من العلمانيين في صفوفهم، واعتبار الكثير منهم أنّ "أسرارهم الباطنية" ليست إلا ضرباً من الفولكلور الشعبي. من تجربتي الخاصة، كمعارض للنظام، أعترف بأنني لم أتعرض إلى أية إساءة في منطقتي من الموالين العاديين للنظام، فقد فهم هؤلاء مواقفي كخلافٍ في الرأي، ولم يكن مثل هذا التقبُّل يسرُّ النظام وعملاءه بالطبع، فكان لهم رأيٌ آخر!

لم يؤذِ العلويين في تاريخهم الحديث أكثر مما فعله ارتباطُهم بالنظام؛ إنها اللعنة التي منعتهم من التطور والتمدن بصورة طبيعية، بخاصة فيما يتعلق بالتخلص مما علق بممارساتهم من آثار عصور الانحطاط، واستغلال مشايخهم وزعاماتهم العشائرية لعامَّتهم، وزوال أي مسوغ لاستمرار تقيّتهم في عصر الانفتاح والتواصل وانتقال المعلومات على مستوى العالم أجمع.

كثيراً ما تساءل أمامي بعض الناس الذين قُتل أبناؤهم في الحرب أو أولئك الذين هُجِّروا بسبب التحريض الطائفي، إن كان الآخرون– السُنة– سيتقبلونهم كلاجئين لو كان الأمر معكوساً واضطروا إلى الهجرة إلى المناطق ذات الأغلبية "السنية" طلباً للأمان؟ لم يكن لديّ من شكّ بأنّ السوريين، الذين احتضنوا كل من تعرض للاضطهاد في مراحل تاريخية مختلفة وحتى عهدٍ

---

[٢٠١] ثقافة العلويين الدينية ثقافة مغلقة لا يعنيها التبشير والدعوى، وليس فيها تكفير للآخر الذي تتعامل معه كشريك إنساني، لكن مع بعض الحذر من الآخر "السني" تحديداً لأسباب تاريخية، سياسية دينية، دون أن يؤثر ذلك على اختلاطهم مع البيئة السنية العادية- غير التكفيرية. على حد علمي، لم يظهر التكفير بصورة ممنهجة في الوسط العلوي إلا بوحي من السلطة، وقد استخدمته كسلاح ضد من يعارضها سياسياً من "العلويين" بغية عزلهم اجتماعياً.

[٢٠٢] العرفانية هي حقل من حقول المعرفة التي تحاول تقديم رؤية كونية تتضمن تفسيراً للقضايا الأساسية في الوجود وعلاقة الإنسان بالكون.

[٢٠٣] يعتقد بعض الباحثين والمؤرخين المختصين بعلوم الديانات القديمة بأن التصوف يعود إلى الكلمة اليونانية (سوفيا)، ومعناها الحكمة، وأول من عرف بهذا الرأي البيروني. وثمة اعتقادات كثيرة بأنها تعود إلى الصوف أو الصفة أو الصف أو الصفاء. أركان الدين في التصوف هي الإسلام والإيمان والإحسان. الصوفيون لا يكتفون بأن يوضحوا للناس أحكام الشرع وآدابه بالكلام النظري، بل يأخذون بيد تلميذهم ويسيرون به في مدارج الترقي، ويرافقونه في جميع مراحل سيره إلى الله، يحيطونه برعايتهم وعنايتهم، ويوجهونه بحالهم وقولهم، يذكرونه إذا نسي، ويقوِّمونه إذا انحرف، ويتفقدونه إذا غاب، وينشطونه إذا فتر.

قريب، لم يكونوا ليضنُّوا أبداً بحماية مواطنيهم من العلويين واحتضانهم، إذ لا يمكن الحكم على سوريا والسوريين دون أخذ الظروف الرهيبة التي وجدوا أنفسهم فيها بالاعتبار: القمع والقتل والتطرُّف، وخليطها الوحشي المتفلِّت من كلّ القيم!

الفصل العاشر

محطات ٢٠١٢- ٢٠١٤

بين خياري الحرب الأهلية والتفاوض

مَن استطاع استخدام عقله في أتون سوريا المضطرب في أوائل عام ٢٠١٢ أو النظر إلى المشهد من على مسافة، وصل إلى قناعةٍ مفادها أن الصراع قد اتخذ مساراً آخر؛ ليس ثورة لتنتصر/ ستنتصر، وليس عودة للماضي لتحصل/ ستحصل، كان ثمة احتمالان انطلاقاً من وجهة النظر هذه:

الاحتمال الأول أو الحرب "الأهلية" بين قوى النظام وحلفائه من جهة، والمسلحين الذين ينضوون تحت مسمى فضفاض هو"الجيش الحر" وطلائع الجهاديين من جهة أخرى، وذلك بعد

أن وصل التسلُّح إلى درجة فرضت نفسها في الأماكن الساخنة، التي أصبحت خارج سيطرة النظام عملياً، إلاّ فيما يتعلق بمقدرته على القصف الجوي والمدفعي.

تشكَّل "الجيش الحرّ" من العناصر المنشقّة عن الجيش، ولم تلبث أن انضوت تحت جناحه مجموعات من المسلحين المدنيين، معظمهم من ذوي الاتجاهات الإسلامية الشعبية. تلاقت هذه المجموعات واتحدت، تقاتلت وتنافست، تبعاً لمصالح الممولين الذين ليست أهداف "الثورة" على جدول اهتماماتهم، بخاصة بعد أن عجزت الدول التي انطلق منها التمويل والدعم عن إقناع النظام بأخذ جانب اللّين في التعامل مع الاحتجاجات الشعبية[٢٠٤].

الاحتمال الثاني أو التفاوض، وذلك لاقتناع الأطراف الدولية الفاعلة بأن الحلّ السياسي هو الحلو الوحيد[٢٠٥]. ماطل طرفا "الأزمة" السورية آملين بحسم المعركة على الأرض، تقاسما الانتصارات والهزائم على حساب السوريين الغارقين بدمائهم والنازحين من مكانٍ إلى آخر. وتمثّلت العقبة الكأداء في عدم وجود توافق أمريكي روسي يسمح باستصدار قرار من مجلس الأمن بهدف وضع معالم خارطة طريق لمرحلة انتقالية[٢٠٦].

٥ آذار/ مارس ٢٠١٢

فيما كنّا نمارس رياضة المشي صباحاً في ضاحية قدسيا، سألت صديقي:

– هل تُرشّح شخصاً ما من المعارضة في الوقت الحالي للعب دور قيادي؟

بعد لحظات من التفكير، كمن يريد تمرير فكرة يصعب الاقتناع بها، أجاب صديقي:

– ثمة أحدهم، رجل أعمال يتبرّع للثورة ويدعمها.

– أيمكنك تسميته؟

– .....، وهو ابن أختي[٢٠٧].

---

[٢٠٤] بهذا الصدد، يمكن العودة خاصة إلى زيارات وزير الخارجية التركي ونظيره القطري إلى دمشق في الأشهر الأولى للحيلولة دون وصول الأمور إلى طريق مسدودة، ومن ثم عملت هاتان الدولتان، على نحو خاص، على دعم المعارضة المسلحة ورعايتها. ومن المعروف بأنه كان لهاتين الدولتين مصالح اقتصادية كبيرة مع النظام؛ أكثر من ٥٠ اتفاقية اقتصادية مع تركيا، واستثمارات لشركة الديار القطرية في اللاذقية ودمشق بحوالي ٦ مليارات دولار.

[٢٠٥] تكرَّست هذه القناعة في مؤتمر جنيف ١ صيف ٢٠١٢.

[٢٠٦] ستقوم المعارضة لاحقاً بالتفاوض مع روسيا، ولكن بعد فوات الأوان، كما كان يحدث دوماً في سوريا، سواء بالنسبة لتأخُّر النظام أو المعارضة فيما يتعلق بفهم ومتابعة الوقائع السياسية والاستجابة لها في الوقت المناسب! عاد الروس لإحياء جهودهم لحل المشكلة في نهاية عام ٢٠١٤ من خلال عقد لقاءات تشاورية لم تتمخّض عن شيء يذكر، إلى أن تدخلوا عسكرياً بصورة مباشرة في خريف ٢٠١٥ وفرضوا أنفسهم كلاعب قوي على الأرض لينقذوا النظام و ما تبقى من مؤسسات في سوريا، ويضمنوا حصتهم من الكعكة السورية المخضّبة بالدم.

[٢٠٧] لم أكن لأمانع تماماً لو اختار صديقي لهذا المنصب ابنته الرائعة، الأم والإنسانة، أو زوجته التي عملت ليل نهار كسكرتيرة صابرة في خدمة طموحاته السياسية!

لم يكن "الوريث" المقترح معروفاً خارج الوسط التجاري الدمشقي، ولا يتمتع بأيّة كاريزما من هذا النوع، فضلاً عن عدم مروره بمطلق تجربة سياسية أو وجود ما يوحي بموهبة في هذا الاتجاه. يومئذٍ، أدركت حجم الخراب الذي نعيشه، وضحالة تفكير بعض الأسماء الكبيرة في المعارضة التقليدية. فبعد مضيّ حوالي عامٍ على انتفاضة شعبية محقّة للتخلّص من نير الاستبداد، لم يستوعب البعض حجم التغيير الذي نحتاجه للوصول إلى ما نطمح إليه، ما يشير إلى عدم قدرة ولا أهلية مثل هؤلاء المعارضين لقيادة ثورة شعب من أجل الحرية والكرامة.

اتجه قطار التوريث نحو ابن أخت صديقي لأنّ ابنه لم يكن مهتماً بالثورة ومشتقاتها، ببساطة! إنها مأساة التوريث السورية التي لم توفِّر أحداً أو مكاناً، من أكبر مؤسسة إلى أصغرها، ومن السلطة إلى المعارضة، فلا يترك أحدٌ مكانه إلاّ لوريثه!

***

من جهة ثانية، استمر الخلط بين النظام والجيش والشبيحة والطائفة؛ ففي الوقت الذي كنا نعبر حواجز الجيش النظامي المجاور لسكننا كل يوم من دون إزعاج[٢٠٨]، صار المرور على حواجز "الثوار" يقتضي قبل كل شيء إبراز الهوية الطائفية، ولم يكن بوسع واحد مثلي المرور على هذه الحواجز إلا برفقة طاقم من المرافقين "السنة"، وحتى هذا الطاقم لم يكن ينفع في كل الحالات. ومع أنّ أي شيء يمكن أن يحصل على هذه الحواجز أو تلك، فإن تغليب الطائفي على الوطني– السوري، تدرُّجاً، أعادنا خطوات إلى الوراء، فعلى ماذا سنبني؟

٦ آذار/ مارس ٢٠١٢

في الأشهر الأولى للانتفاضة كان لدينا عواطف جياشة والقليل من التفكير والإمكانات، وكنت، مثل كثير من المعارضين، في حالةٍ من التفاؤل بقرب انهيار مقاومة النظام وتفكُّك جبهته الداخلية، ما يفضي إلى ترتيباتٍ داخل النظام قد ينجم عنها الاقتناع باستحالة الانتصار على المنتفضين بوساطة الحل الأمني، وبالتالي القيام بتنازلات سياسية ملموسة.. كانت مجرد أماني!

كان صديقي مسروراً لنجاحه في اقناعي بالمجيء إلى دمشق من أجل العمل على تشكيل جسم سياسي معارض، وما إن استقرينا في منزله بضاحية قدسيا حتى عرض عليّ مساعدة مادية كقرضٍ أسدِّده لاحقاً. رفضت العرض بتأدبٍ، وطمأنته بأننا ادّخرنا ما يكفي لمثل هذه الظروف، ولم يكن ذلك صحيحاً. لم نعتد العيش إلاّ من كدِّنا وتعبنا، وقد حميت أسرتي من

---

[٢٠٨] ذات مرة، حين عبرنا حاجزاً للجيش، وكنت برفقة ابنة صديقي التي كانت تقود السيارة، تفاجأت بتعاملها الأمومي الطيب مع عناصر الحاجز، وكيف استجابوا لها بمزيدٍ من الارتياح والامتنان. في الواقع، كان التعامل الطائفي استثناءً على حواجز النظام، فيما كان من الصعب المرور على حواجز "الجيش الحر" في ريف دمشق من دون السؤال عن الانتماء الطائفي، في حالة الشك!

التلوث بقنوات الفساد والاستغلال من أية جهة أتت، ضماناً لتعزيز استقلالنا والتحكّم بقراراتنا، فلسنا من تُشترى ولاءاتهم، مع أني أفترض، إلى حدّ كبير، حسن النية فيما طرحه صديقي وقتئذٍ.

في وقت لاحق، شهدنا كيف تُهدر الأموال وتُشترى الولاءات باسم الإغاثة وغيرها[٢٠٩]، وكم تم تشجيع الناشطين والناشطات الذين كان يُفرج عنهم من معتقلات النظام، وغيرهم، على السفر إلى الخارج، وقُدِّمت الأموال لهم بسخاء من أوساط رجال أعمال سوريين ومن "المجلس الوطني"، كما عُرض علينا، كأسرة، السفر أيضاً والعيش في أحد البلدان المجاورة[٢١٠]. لم أكن أتفهّم "تهريب" الناشطين إلى الخارج إلاّ في الحالات التي تتعلّق بحماية حياتهم.

من بين الذين كانوا يتحضرون للسفر إلى الخارج، السيدان جورج صبرا و كمال اللبواني، وذلك بعد إطلاق سراحهما من السجن[٢١١].

التقيت "كمال اللبواني" بعد أسبوعٍ من الإفراج عنه في بيت صديقي، وقد تحدّث أحياناً كشيخ سلفي وأحياناً أخرى كصوت وطني جامع. لم تكن ترافقه ابنته عبثاً، وقد أكّدت عليها أن تبقى بجانبه بعد أن رأيت اضطرابه السياسي والنفسي! ليس من السهل أن يخرج أحدهم طبيعياً من السجن، ويحتاج إلى الكثير من الطاقة الروحية لمواصلة الحياة الطبيعية، لذلك كان ثمة عذر لأمثال هؤلاء الذين حافظوا على شعلة مقاومة الاستبداد في أحلك الظروف.

وجدت "كمال اللبواني" الحالي مختلفاً عن "كمال" الذي عرفته عام ٢٠٠٤ في اللاذقية، خلال اجتماع من أجل التحضير لتشكيل تيار التجمع العلماني الديمقراطي الليبرالي "عدل". تمّ إجهاض الاجتماع الثاني لهذا التيار، والذي كان مخصصاً لإطلاقه، بعد اعتراض المدعوين من قبل الأمن قرب منزل كمال اللبواني، حيث كان سيعقد الاجتماع[٢١٢].

---

[٢٠٩] على سبيل المثال لا الحصر، وفي الذكرى الأولى للثورة، تقرّر القيام بنشاطات متنوعة في الداخل والخارج، وتمّ رصد ٢٠٠ ألف دولار أمريكي لهذه الغاية كما قال لي صديقي. فاجأني حجم المبلغ، سألته عن طبيعة هذه النشاطات، فذكر لي بعض الفعاليات البسيطة مثل كتابة كلمة بهذه المناسبة وطباعة كُتيِّب إعلاني (بروشر)، وتوزيع قصاصات وبالونات مكتوب عليها بعض الكلمات في الداخل، والقيام بنشاط مسرحي في الخارج. حين قمت بحساباتي، وما أجهلني بكل الحسابات، لم أجد أنّ هذه النشاطات تحتاج إلى أكثر من عدة آلاف من الدولارات!

[٢١٠] كان بقائي في الداخل، رغم ظروف الحصار والمخاطر الدائمة، أفضل من الخروج والخضوع لأجندات دولية، فضلاً عن عدم قناعتي بالخلاص الفردي والحديث إلى وسائل الإعلام من الخارج، مفضلاً البقاء في بلدي والعمل في أحلك الظروف، كما فعلت دوماً. إنه نمط حياة ولا علاقة له بالمزاودة، ومثلما لم أقبل إغراءات النظام أواخر العام ٢٠٠٣ على كثرتها، فلن أقبل الخضوع لمعارضين مشكوك في علاقاتهم ومصادر تمويلهم؟

[٢١١] سافر "كمال اللبواني" إلى الأردن ومن ثم إلى السويد، بينما سافر "جورج صبرا" إلى فرنسا وانضم إلى المجلس الوطني. لم تكن ثمة صعوبة في هذه الإجراءات؛ بسبب العلاقة الوثيقة مع السفراء الأجانب من جهة، ولأن النظام كان يغضُّ النظر من جهة أخرى، ربما لرغبته في أن يخرج أكبر عدد من المعارضين إلى الخارج، فيسهل توجيه الاتهامات لهم وتخوينهم. الْتقت مصلحة النظام مع مصلحة "المجلس الوطني" في انتقال أكبر عدد من المعارضين إلى الخارج، وفي الوقت الذي كان النظام يتخلص فيه من معارضيه في الداخل، اكتسب المجلس المزيد من الشرعية من خلالهم، انطلاقاً من توهمه باحتكار التمثيل السياسي كبديل النظام!

[٢١٢] كنت من بين هؤلاء، حيث تم توقيفي من قبل دورية تابعة لإحدى الجهات الأمنية على المفترق المؤدي إلى مكان الاجتماع، وأطلق سراحي بعد تسجيل بيانات هويتي.

بعد عدة أيام من ذلك اللقاء، تلقّينا، أسرة صديقي وأسرة كمال اللبواني وأسرتي، دعوة من السيد "فواز تلو"[٢١٣] لتناول العشاء في منزله بمناسبة خروج كمال اللبواني من السجن. أثناء السهرة أربكنا "كمال" بمواقفه واستفزازاته، علاوة على آراء في غاية التطرُّف عبَّر عنها ابنه الشاب. مع ذلك، احتفظنا بذكرى جميلة عن رقيّ من استضافونا، والفضل الأكبر لربة البيت.

كما زرنا الأستاذ "جورج صبرا" في بيته بمدينة قطنا بعد خروجه من السجن، وكان قد اعتقل بعد مشاركته الفعالة في التظاهرات السلمية في بلدته هذه. ثم التقيته ثانية في بيت صديقي، وصُدمت بطريقته في التعبير عن آرائه وعدم انفتاحه وعبوسه، فابتسمت، ربما نيابةً عنه، وتوقَّفت عن محاورته، وقد أخذت العبرة من أمثال هؤلاء العقائديين من زمان.

تُعدُّ شخصية الأستاذ "جورج صبرا" مثالاً للشخصية التي تعاند الواقع بوصفه ظاهرة متعددة الوجوه، ذلك من خلال الإصرار على اللّون الواحد، فهو يقرِّر ويطلق الأحكام، ويبتعد عن طرح التساؤلات التي تفتح أمامه متاهة تعقيدات الواقع ومختلف جوانب القضية، أية قضية، فيؤثر استخدام قوالبه الفكرية الجاهزة. تجد مثل هذه الطروحات مكاناً لها في أوقات الصراعات الحادة التي تتقاتل فيها الآراء وتتصارع، في حين يحتاج الحوار إلى تعزيز المشتركات واستنباط الحلول.

في هذا السياق، أفادنا السيد جورج صبرا بأنَّ ضابط المخابرات رستم غزالي ناداه، في أثناء جلسة التحقيق، بـ "محمد جورج صبرا"، غامزاً من باب انتمائه الديني، وأنه موجود في المكان الخطأ، وذلك للقول بأن الاحتجاجات ذات طابع مذهبي.

عند عودتنا من مدينة قطنا إلى ضاحية قدسيا، عن طريق بلدة صبورة، أوقفنا أحد الحواجز العسكرية. تمعَّن العسكري في هوياتنا، ثم طلب منّي الترجُّل من السيارة، وبعد أن ابتعدنا مسافة كافية، سألني:

. هل أنت د ...... نفسه؟

. نعم.

. وهل هذا (مشيراً إلى صديقي) هو..... نفسه؟

. نعم.

عندئذٍ، أعاد إليّ هويتي، وعرّف بنفسه كأحد أبناء قريتي.

٨ آذار/ مارس ٢٠١٢

---

[٢١٣] فواز تلو؛ من التيار الإسلامي الديمقراطي في المجلس الوطني لإعلان دمشق، كان معروفاً بخطبه الشعبوية عند زياراتنا المشتركة لأمسيات التضامن مع المتظاهرين بريف دمشق. بعد سفره إلى الخارج، ألمانيا، صار من أبرز دعاة الشحن الطائفي.

مراجعات

ساهمتُ ما بوسعي في مختلف النشاطات المدنية والنظرية المتعلقة بصورة سوريا القادمة التي حلمت بها، وكانت تجربة غنية اصطدمت فيها الأحلام والآمال بالوقائع العنيدة على الأرض. لا يُكتب التاريخ أو يتغير بالرغبات الشخصية، وتصنعه محصلة تصارع إرادات الجماعات، واستطراداً، الأشخاص الذين يحسنون التعبير عن هذه الإرادات في الوقت المناسب.

خلال هذه الفترة جمعتني عدة جلسات عمل بالأستاذ عمر عزيز[٢١٤] ناقشنا فيها موضوع المجالس المحلية التي كان قد أعدّ مسودتها الأولى، وهدفت لتنظيم العمل في المؤسسات الحكومية في حال سقط النظام فجأةً أو انسحب من منطقة ما، وذلك لتجنُّب التخريب والفوضى. لكنّ الهيئات الشرعية للتنظيمات الإسلامية المتطرفة عملت لاحقاً على ابتلاع المجالس المحلية وملاحقة الناشطين فيها، ووصل الأمر إلى الاعتقال والقتل أحياناً[٢١٥]. احتفظتُ بكثير من المشاعر الطيبة تجاه هذا الصديق، واستمتعت بالخلاف معه؛ بسبب طريقته الراقية والمهذبة في تقبل الرأي الآخر ومناقشته بهدوء، وستبقى ذكراه الطيبة في نفسي ما حييت، كأحد أروع المحاورين الذين تعلمت منهم الحدّ من التشنُّج في أثناء الحوار.

كما استفدت كثيراً من اللقاءات التي شاركت فيها مع السفراء الأجانب، وتعرّفت منهم على بعضٍ من أساليب إدارة العلاقات والخلافات الدولية، وبرودة الأعصاب اللازمة لاتِّخاذ القرارات السياسية، لكن على مبدأ الندّ للندّ والاحترام المتبادل، بعيداً عن أي شعور بالنقص.

في ذات الوقت، ترك الشحن الطائفي من طرف مؤيدي "الثورة" مرارةً عميقة في نفسي؛ إنّه السرطان الذي يفتك في الجسد السوري ويهدِّد بالتهامه. قد نفهم أن يعمل نظامٌ في مرحلة الزّوال على تجريب كل ما يساعده على البقاء، لكن أن يروِّج لذلك معارضون لسياساته، منهم من هو محسوب على العلمانية، فذلك لا يساهم إلا بالمزيد من إراقة الدماء، ويطلق رصاصة الرحمة على الثورة ذاتها.

***

بعد أن تبخُّرت الوعود والآمال بتأمين عملٍ في دمشق، وفشل أو تعذُّر العمل السياسي الفاعل، كان لا بد من العودة إلى منزلنا في اللاذقية بأسرع وقت لضمان حصول طفلتينا على

---

٢١٤ عمر عزيز: ناشط سلمي من ريف دمشق، اعتقله النظام بتاريخ ٢٠١٢/١١/٢٠، وتوفي في السجن في ٢٠١٣/٢/١٧ بنوبة قلبية.
https://www.youtube.com/watch?v=DFBuJqtiX4Y

٢١٥ عمل المتطرفون والتكفيريون على ملاحقة كل من يخالفهم الرأي، وكان الانتماء الطائفي أو اتهام الشخص بالعلمانية كافياً للتنكيل به أو قتله http://www.middle-east-online.com/?id=189053

الحد الأدنى من الغذاء[٢١٦] والتعليم. ذهبت زوجتي لتقديم طلب من أجل نقل وظيفتها ثانية من ريف دمشق إلى اللاذقية، ولم نكن قد أنهينا إجراءات النقل إلى ريف دمشق بعد! تبيّن لنا أنّ الانتقال إلى اللاذقية مستحيلٌ بسبب فائض المعلمات في الساحل مقارنةً بعدم كفايتهم في محافظة ريف دمشق، إذ أنّ آلاف المعلمين والمعلمات كانوا يعودون إلى الساحل من مختلف المناطق السورية، بعد أن صار بقاؤهم مستحيلاً في ظروف الصراع المسلّح والتطرُّف الديني لحاملي السلاح. قلت ساخراً: "النظام حرمني من وظيفتي، والمعارضة ستطيح بوظيفة زوجتي!"

شعرت أنني أتسبّب لأسرتي بالكثير من المعاناة، من دون أمل في أن ينتج عن طريقة عملنا في المعارضة ما كنّا نأمله، فضلاً عن شعوري المتزايد بالاغتراب؛ بسبب الطريقة التي تعمل بها الجهة المعارضة التي تعرّفت عليها عن كثب، فاعترتني المخاوف، وأردت النأي بنفسي عن المآل العدمي لتطور الأحداث. كان ثمة إحساس لديّ بأنّا وُضعنا في قفص لتلبية طموح بعض السياسيين، وإظهار المعارضة بأنها تتألف من الطيف السوري كله!

لم أقتنع يوماً إلا بسوريتي، وعملت ما بوسعي من أجلها، بلا مقابل، رغم مرورنا بأصعب الظروف المادية، ولو أنّا تظاهرنا بعكس ذلك. لا منّة لي بالطبع، إنها الفرصة التي جاءتني وحاولت انتهازها لخدمة بلدي.

امتلكت وعياً ونمط حياةٍ قادني للوقوف في وجه الفساد والظلم، واكتشفت مدى قسوة نظام الاستبداد وتبديده للحيوات والطاقات، فعارضته دوماً من منطلقات وطنية وأخلاقية، ودفعت الثمن بأشكالٍ مختلفة، مثلما فعل كثيرون. ليس لديَّ طموح سوى حريّة سورية وتقدّمها، والغاية عندي لا تبرِّر الوسيلة، وسأبقى أعمل من أجل ذلك، من ضمن قناعاتي واعتباراتي هذه.

***

في هذه الأثناء، بدأت تعبيرات الثورة تتوارى تدريجياً وراء ركام من الشحن الجهادي والمذهبي، وصار من الصعب تضييق الحلقة المحيطة بالنظام، لا بل أنها عادت للاتساع. أجريت الحوارات يومياً مع صديقي لكنها صارت أشبه بحوار الطرشان، فكلما تحدثنا عن انحراف في الثورة، وعوضاً عن تحليل جميع الأسباب، يعزو صديقي الأمر لسبب وحيد– النظام، الذي يتحمل المسؤولية الأساس منذ عقود.

لكن، لماذا لا نشير إلى "الانحرافات"، التي هي ثورة مضادة في الواقع، فنضرب عصفورين بحجر واحد؛ معالجة الانحراف والوقوف في وجه ألاعيب النظام في "الثورة"؟ ولماذا نسكت عمّن يقاتل النظام لأهدافه، بما فيها تلك الأوهام القاتلة للرجوع القهقرى إلى غياهب

---

[٢١٦] سنكتشف بعد عودتنا إلى اللاذقية أنّ ابنتينا مصابتان بفقر دمٍ شديد بسبب سوء التغذية!

التاريخ؟ لماذا تعميم مفهوم الشبيحة ليشمل حتى الصامتين من السوريين، لدرجةٍ صار الواحد منّا يفتّش أحياناً في جيوبه مخافة أن يجد شبيحاً مختبئاً فيها؟ لماذا لا نواجه التصريحات العنصرية والطائفية بالفم الملآن؟ لماذا شيطنة الطائفة العلوية ومعها، استطراداً، الأقليات؟ كيف سيطمئن الناس على مستقبلهم بوجود مثل هذه السياسات غير المسؤولة للمعارضة؟ وهل يسمح العالم بذلك أم ينفض يديه من هكذا معارضة ومعارضين؟ وإلام سيقود ذلك كله؟.. ليس بمثل هذه السياسة يمكن مواجهة النظام أو بناء وطن جديد للسوريين!

حاولت النظر إلى الواقع بتجرُّد ما بوسعي، فالنظام لم يسقط كما أملنا، لا على النمط التونسي، ولا المصري، ولا حتى الليبي! فكرت بسيناريو الحالة العراقية في جوانبها المأسوية، رغم اختلاف الظروف التي تعاقبت فيها الأحداث، حيث لم يمنع سقوط النظام ووجود المحتل من اندلاع حرب أهلية شرسة[٢١٧]، وسيحصل ذلك في سوريا سواء سقط النظام أم لا، عندها سينجو الكثير من المجرمين وأمراء الحرب، ويتسيَّدون على ما تبقى من أشلاء بلدٍ لم يتحوّل يوماً إلى وطن ناجز! النظام يريد البقاء ولو بليّ عنق التاريخ فيما المقاتلون مصرون على إسقاطه، ولكلّ طرف مَن يقف وراءه في الخارج. التوافق الدولي، الأمريكي- الروسي، تحديداً، هو ما قد يوقف ذلك الصراع العدمي الذي لن يوصلنا إلى أي مكان غير الخراب والموت، وقد أضحت كلّ الأثمان باهظة.

***

في التحولات التاريخية المعقدة من حياة الشعوب تدعو الحاجة لوجود شخصيات جامعة تمنح الأمل، فالقائد المحنَّك والرمز يمكن أن يساعد، عند التعبير عن الاتجاه التاريخي لمرحلة ما، على تجاوز أصعب الظروف والانتقال بالشعب من حالٍ إلى حال، خاصة إن كان نتاج فريق عملٍ يؤطِّر كل الرغبات في عمل مؤسساتي صائب في السياسة، ويضع نصب عينه المصلحة الوطنية الجامعة، دون أن تعكِّر رؤيَته ضبابيةُ الأحداث.

عوضاً عن ذلك، احتلّ ساحة المعارضة أشخاص عقائديون ضيقو الأفق، علاوة على شخصيات انتهازية وعملاء دول لم يرتقِ أي منهم إلى مستوى الحدث، بل ظهروا على حقيقتهم التي تخفي هي نفسها كل أمراض المجتمع. ويبدو أننا حملنا معارضينا التقليديين أيضاً أكثر من طاقتهم، وقدرناهم بأكثر مما يستحقون، نظراً لما لاقوه من ظلم وسجن على يد الاستبداد الآثمة!

---

[٢١٧] جاءت معظم الخبرات القتالية في "المقاومة العراقية"، بما فيها جماعة الزرقاوي التابعة للقاعدة، التي حاربت القوات الأمريكية في العراق، من انضمام ضباط وجنود الجيش العراقي السابق، والذين تم إقصائهم بقرار حل الجيش تعسفياً من قبل الحاكم الأمريكي بريمر، وتحول تنظيم الزرقاوي لاحقاً إلى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، فيما شكلت الكوادر العسكرية العراقية العمود الفقري لهذا التنظيم المتطرف.

٩ آذار/ مارس ٢٠١٢

في الموالاة والمعارضة، "الأكثرية والأقليات"

انحسر تأييد الكثير من السوريين للحراك، بخاصة مَن ينتمون إلى الأقليات الطائفية والإثنية، نتيجة العسكرة اللامنضبطة والأسلمة، ما أحدث انقساماً اجتماعياً فُرض فرضاً؛ فلا النظام مقنع ولا من يقاتله أيضاً. وتحوّل الكثير من السوريين إلى أسرى أو لاجئين ينشدون الحماية، ومنهم من التجأ إلى المناطق التي يسيطر عليها النظام، بخاصة في المناطق الساحلية، للبحث عن الأمان في حدِّه الأدنى البيولوجي.

أوقفت عدميةُ الصراع الحالي في سوريا عمليةَ التغيير التاريخية وعقدها، وبدا طرفا الصراع الأساسيين، النظام والإسلاميون، كأنهما يجدّفان ضد حركة التاريخ. ففي حين أصبحت سلطة النظام، منذ اللحظات الأولى لخروج سوريين إلى الشارع، خارج السياق التاريخي، فإنه ليس للإسلاميين سوى العنف لمحاولة فرض ما لا تتقبَّله الحياة المعاصرة. مع ذلك، لم يحجب كل هذا الخلط حقيقة أنّ جنين التغيير لا بد أن يولد، ولو مشوّهاً، من رحم المأساة السورية المتبدِّلة فصولاً.

يمكن للثورة أن تنتصر في سوريا مع وجود الكثير من الصامتين، لكنّها لن تنتصر، ولن تكون ثورة، إن اصطبغت بتوجُّهات غير سورية من أي نوع. حتى الأغلبية التي يحاول الاستبداديون الجدد استغلالها لن تقبل، على نطاق واسع، استبدادهم، الذي لا يترك صغيرة وكبيرة إلا ويتدخل فيها، فيما يمكن لأي نظام استبداد مدني أن يحكم بمسوغات سياسية قد يقبلها جزء من الشعب بغض النظر عن الهويات الطائفية والإثنية[٢١٨].

أمام أسلمة "الثورة" وخطابها المذهبي الطاغي، لم يجد أبناء الأقليات بدّاً من تنظيم أنفسهم ومواجهة التطرُّف. لم يفهم "الثوار" المتأسلمون ذلك، لأنّهم ليسوا ثواراً بالأصل، وأصبح دخولهم إلى أماكن الأقليات ضرباً من الاعتداء على أرواح الناس وخصوصياتهم الثقافية[٢١٩].

يمر خط مقاومة الاستبداد عبر كل الطوائف والجماعات وليس بينها، وإن وضع التخوم بين الأقليات والأكثرية، وما ينتج عنه من المحاصصات الطائفية والإثنية، سيُبقي سوريا على موعد مع دورات متتالية من العنف، هذا إن صمدت أمام التقسيم الجغرافي.

---

[٢١٨] بهذا الصدد كتب الباحث محمد ديبو بحق حول دخول الإخوان كقوة تطييف على خط الثورة: ".. ودفع الأقليات مرة أخرى للاحتماء بالنظام رغم خوفها منه، إلا أنّه بين الخوف السياسي والخوف الطائفي تفضِّل الأقليات، التي لها نمط عيش مختلف، الأول على الثاني، لما يرتبط الأمر الثاني، أي الخوف الطائفي، في أذهانهم بالضغط المباشر على حرياتهم اليومية والاجتماعية." (إخوان سوريا حكاية فشل طويل، لوموند ديبلوماتيك، عدد أيار/ مايو ٢٠١٣.)

[٢١٩] في عامي ٢٠١١ و ٢٠١٢، كانت فصائل "الجيش الحر" تتحرك بحرية في قرى متباينة الانتماء الطائفي في ريف اللاذقية الشمالي والشرقي، على قاعدة عدم المواجهة مع السكان المحليين، وبقيت هذه المعادلة حتى جاءت الفصائل الإسلامية وأخلَّت بهذا التوازن الهش (نقلاً عن أشخاص يعيشون في هذه الأماكن.)، إذ أنّ هجوماً مباغتاً لإتلاف ضمَّ خاصة "أحرار الشام" والنصرة على عدة قرى علوية في ٢٠١٣/٨/٦ أطاح بهذا التوازن الهش، وتمّ قتل وسبي الكثير من القرويين الآمنين.

كم سيمر من الوقت قبل أن يدرك الجميع أن لا حلَّ في سوريا إلاّ من خلال البوابة السورية، وإن التحريض الديني يجب أن لا يتجاوز دوره الروحي في شحذ الهمم من أجل خدمة الوطنية في ظروف الصراع مع عدو خارجي فحسب، فالأوطان العصرية هي بيئة الفرد المشخَّص بحقوقه وواجباته، وميدان سيادة القانون، وليست مسرحاً لنزاعات سماوية بهدف التغطية على مصالح قوى أرضية.

من خلال معايشتي لكافة البيئات السورية، التي توصف بتبسيط شديد على أنها موالية أو معارضة، تبيّن لي كم أنّ الواقع معقدٌ بالفعل، وإن الموقف ليس من التغيير بحد ذاته، بل من الاتجاهات التي يمكن أن يسلكها، وعدم اتضاح الوجه المقبل لسوريا. كما أنّ التصرفات الرعناء التي طفت على السطح بعيدة كل البعد عن المستوى الحضاري الوسطي للإنسان السوري. لكنّ المفارقة المؤلمة هي أنّ مستوى التعصُّب كان يزداد تدريجياً كلما صعدنا من المستوى الشعبي إلى المستوى الأكثر تعليماً و"ثقافةً" مع اتخاذه شكلاً مخاتلاً، فيما لم يكن التعصُّب على المستوى الشعبي، يا للمفارقة، سوى ردود أفعال عابرة[٢٢٠].

في هذه المعمعة يموت فقراء سوريا وشبابها، سواء أكانوا من المتظاهرين أو المنشقين أو المسلحين أو من الجيش أو من جماعات الدفاع الذاتي أو المدنيين، فيما يتقاسم أصحاب السلطة والمال النفوذ الأرباح، وتنشأ رؤوس أموالٍ جديدة كاقتصاد حرب ناتجٍ عن أعمال السلب والنهب والاحتكار والابتزاز على الحواجز، ويتبرع بعض رجال الأعمال بالفتات إلى المنكوبين، وعينهم على المكاسب التي سيحصلون عليها في المستقبل.

* * *

حصل الانفجار السوري في وقتٍ قامت فيه الإدارة الأمريكية الجديدة بمراجعة سياسة الإدارات السابقة، ما زاد من فرص لاعبين آخرين لملء الفراغ وجني أكبر قدر من المكاسب، ولو على حساب دماء السوريين وأملهم بمستقبلٍ أفضل. مع ذلك، فإنّ الضغط العربي والدولي متعدد الأشكال، علاوة على استمرار الثورة السلمية في الداخل، كان ليقنع الجميع بحقِّ الشعب السوري في نيل حريته، أمّا الحضور الطاغي للمتطرفين الإسلاميين، فقد جعل من التدخل الدولي أمراً لا مفرّ منه، ليس ضدّ النظام كأولوية، إنّما ضد التطرُّف.

في تلك الأثناء، انكشف ضيق الأفق السياسي والوطني للمعارضة المرتبطة بأجندات الدول الإقليمية، ولم تعد مقنعة كبديل للنظام، بل هي مجرد أداة لتحقيق مصالح الداعمين، فضلاً عن محدودية التأييد الذي تتمتع به في الداخل.

---

[٢٢٠] قد يكون السبب بأن الفئات المتعلمة، الطبقة الوسطى على وجه التقريب، هي التي تتلقى الجرعة الأكبر من ثقافة الاستبداد الرسمية أو وجهها الآخر في الأحزاب الأيديولوجية المعارضة!

يمكن أن يساعد التدخل الدولي والإنساني بتفويضٍ من مجلس الأمن في كسر الاستقطاب وخلق وقائع جديدة على الأرض من أجل حماية المدنيين أو ما تبقى منهم! أما استمرار مسار الأحداث الحالي فسيحوّل سوريا إلى ساحة حرب مفتوحة يتقاسمها أمراء الحرب، وما يرتبط بذلك من تدمير ما تبقى من الاقتصاد الوطني ووسائل العيش والعمل.

تجاوز عدد التنظيمات المسلحة التي تقاتل على الأرض السورية المئات، والتي تضمّ عشرات آلاف الأجانب وتخضع لأجندات مختلفة، حسب تنوع مصادر الدعم بالمال والسلاح، وإذا أضفنا إلى ذلك المسلحين الذين يقاتلون إلى جانب النظام من خارج الجيش النظامي أو من المنضوين تحت النفوذ الإيراني، فسيشكل هؤلاء جميعاً عبئاً كبيراً تنوء بحمله سوريا المستقبل.

جرى الحوار حول هذه الأفكار مع صديقي خلال المشوار الصباحي في ضاحية قدسيا، كان رأيه أنّ البحث في كل هذه الأمور الثانوية يضرّ بالثورة، وأنه من الأفضل تأجيل كل ما عدا ذلك إلى ما بعد سقوط النظام، ورأيت العكس. أعتقد أن صديقي كان يأمل بأنّ "الأصدقاء" سيساعدون المعارضة في التخلُّص من النظام بأقرب وقت، فالحدث الليبي كان ما يزال يدغدغ مشاعر الكثيرين! مع ذلك، ارتاح ضميري بعد التعبير عمّا يعتمل في صدري وعقلي من مخاوف بصدد سياسات المعارضة التي يمثلها "المجلس الوطني" ومن يدور في فلكه.

١٠ آذار/ مارس ٢٠١٢

تحدثنا عن اللقاء الذي سيجريه صديقي مع السيد كوفي عنان في مقرّ قوات حفظ السلام في الجولان، في حيّ المزة الدمشقي. تمنيت أن يكون أكثر مرونة في مقاربته لاقتراحات ممثل الأمم المتحدة والجامعة العربية[٢٢١]، التي لا تختلف عملياً عما طرحته مبادرة الجامعة العربية، وأنه من الأفضل أن نبدو كسياسيين سوريين أكثر من كوننا ثوّاراً، بخاصة عند التعامل مع الأوساط الدولية، وبضرورة التعبير عن رغبة المعارضة، والمجلس الذي يمثل[٢٢٢]، بالحوار مع السلطة حسب مبادرة الجامعة العربية، وإن رفع سقف المطالب ليس أمراً سيئاً على أن يكون مقروناً بالرغبة الصادقة في الحوار، والطلب من الأمم المتحدة والجامعة العربية أن تكونا حاضرتين وشاهدتين على مجرياته، ولنترك النظام يرفض[٢٢٣]. أما "الجيش الحر"، فتتم معالجته كجزء من العملية السياسية لاحقاً، حين توضع الأمور على سكة الحلّ، ويتم تشكيل حكومة

---

[٢٢١] ركزت المبادرة على وقف إطلاق نار فوري وإجراء حوار مباشر بين النظام والمعارضة.

[٢٢٢] كان صديقي وقتها عضواً في المكتب التنفيذي للمجلس الوطني عن الداخل، لكن بصورة سرية أو شبه سرية، لأسباب أمنية بالطبع.

[٢٢٣] هذا ما اقتنع به الائتلاف في جنيف ٢ من حيث المبدأ، وهو ما كان على المعارضة أن تفعله منذ تشكيل "المجلس الوطني"، وقد جاء في وقت صار فيه للخارج الكلمة الفصل؛ إنه اكتشاف متأخر للسياسة!

انتقالية وإعادة هيكلة الجيش. كما رأيت ضرورة عدم وضع متاريس نهائية بين قوى النظام والمعارضة بحيث يستحيل على أحد الطرفين التراجع، ما يشكل وسطاً ملائماً لانتشار القوى المتطرفة، ويزيد من حالة الفوضى في المناطق التي يسيطر عليها "الجيش الحر."

من جهة ثانية، كان البعض يريد للثورة أن تنتصر وللنظام أن يسقط دون مراجعة أخطائه وسياساته، من خلال ترديده للازمة الغبية حول "أن النظام جرَّنا" إلى هذه الحالة أو تلك! أمام مثل هذا الهراء، وفي أثناء لقاءاتنا، لاذ السفراء الأجانب بالصمت، أو عزّزوه بمطّ شفاههم السفلى وتحريك رؤوسهم من جانب إلى آخر، كدليل على حيرتهم أيضاً!

***

في ذات الوقت، كنّا نعيش، كأسرة، تحت ضغوط شديدة في محاولاتنا الفاشلة والمتكررة لإيجاد عمل ما يساعدنا في تأمين الحد الأدنى للعيش الكريم، علاوة على الأخطار الأمنية المحدقة بنا طوال الوقت، لكنّا كسبنا الكثير أيضاً من خلال التعرُّف على مختلف الأوساط السياسية والاجتماعية[٢٢٤].

٥ نيسان/ أبريل ٢٠١٢

التقيت بناشطين في فعاليات الثورة، معظمهم من الشباب المفعم بالحيوية، كان بعضهم يتكلم بالطائفية كوصف لممارساتٍ دون أن يقصد الإساءة بحدّ ذاتها، ولم تكن الحال كذلك دوماً، خاصةً بين صفوف السياسيين!

منذ أيام، اجتمعنا في بيت صديقي بستة من المحامين معظمهم من ريف دمشق، وقد ظهر على بعضهم الترف والتأنُّق الرسميين. ادّعى هؤلاء قربهم من الحراك الشعبي وقدرتهم على التأثير فيه، وتكلم بعضهم بصورة طائفية ونكدية. قال أحدهم إنهم سينظِّفون تنسيقيات دمشق وريفها من أبناء الأقليات! حاولت محاورتهم بلطف، ولم يفهم بعضهم من حديثي سوى أنني أتحدّث كابن طائفة محددة يفقدهم ذكر اسمها صوابهم، وهاجمني أحدهم بصورة فظة، فتوقفت عن الحوار مع مَن اعتبرتهم النموذج الأسوأ والأكثر تسلُّقاً من بين من الْتقيتهم في تلك الفترة.

وعلى الرغم من استنكار بعض الحاضرين ودفاع صديقي عن معنى الثورة كثورة ضد الاستبداد، فقد كان المشهد قاتماً بعض الشيء. لست متأكداً، لكنّ تصرُّف هؤلاء كان أقرب لما

[٢٢٤] من مفارقات الحياة السورية وجماليتها أن تتواجد وتتعايش مختلف أنماط الحياة في ذات الوقت، فتجعل من التنوع السوري حقيقةً واقعة. ففيما كان صديقي يعيش نمط حياة ليبرالياً منفتحاً على الجميع، كان أحد أخوته، الذي جاء بزيارة إلى بيتهم، يسبق زوجته الملفّعة بالسواد حوالي عشر خطوات، ولم يكن قادراً على النظر بوجه امرأة غريبة دون يهتز كيانه بطريقة ما، مع العلم أنه ينتمي إلى فئة رجال الأعمال ذاتها كأخيه الليبرالي- صديقي! ومع نمط حياتنا المختلف أيضاً، صار من الواضح كم أنَّ الواقع السوري متنوع، ولا يغري للعيش فقط، إنما للعبث فيه أيضاً! إنها سورية الجميلة، سوريا التي أثخنتها الجراح!

فعله "الإخوان المسلمون" في تلك الفترة بغية الهيمنة على المنتفضين من خلال ضخّ الأموال عبر المساعدات المشروطة.

حضرت لقاءات أخرى مع بعض الشباب المشاركين في تظاهرات ريف دمشق، وكان ثمة تعدد في المواقف؛ أصرّ البعض على استمرار الثورة ضد الاستبداد وتعزيزها، بينما مال البعض الآخر إلى تصعيد اللهجة الطائفية والتحريض ضد العلويين في دمشق؛ بحجة استخدام النظام لبعض المراهقين من أحيائهم في قمع التظاهرات. كان من الصعب الحديث عن أية عقلنة في تلك الظروف، وأنّ الأمور ستتجه في منحى يُخرج أمثالنا إلى هامش الأحداث.

***

بعد مؤتمر اسطنبول لأصدقاء سورية واعتراف الدول المشاركة فيه[٢٢٥] بـ "المجلس الوطني" ممثلاً للشعب السوري، يحتار المرء في الحكم على هذه الخطوة في الوقت الذي يتصرف فيه المجلس بصورة إقصائية، ويزداد خوف السوريين من غموض مستقبلهم ومستقبل بلادهم.

آذار/ مارس ٢٠١٢

التمهيد للقطيعة السياسية

في أواخر شهر آذار/ مارس ٢٠١٢ صارحني صديقي بموضوع رسالةٍ على برنامج "السكايبي"، أرسلها إليه عضو المكتب التنفيذي للمجلس الوطني أحمد رمضان، طالباً فيها تحديد نوعية الأسلحة التي يحتاجها "الجيش الحر"[٢٢٦]. شعرت بنوعٍ من الصدمة، تعجّبت كيف يمكن أن نتورّط في مثل هذه الأمور، وبطلب من أناس في الخارج لا يهمهم سوى الاستثمار في الدم السوري، أشخاص ليس لهم أية مصداقية وطنية، ويحاولون ركوب الثورة ودفعها إلى الجحيم، خدمةً لأجندات قوى إقليمية ودولية.

اعترضت بشدة على هذا الإجراء واعتبرته ضرباً من اللّعب بمشاعر الناس وآلامهم، فعدم قدرتنا على تغيير منحى سير الأحداث لا يعني بأية حال المشاركة في دفعها في الاتجاه التدميري، خاصةً بغياب أي نوع من التنظيم أو المرجعية السياسية، ما سيحوّل مناطق التظاهرات إلى ساحات قتالٍ مع النظام بادئ الأمر، ومن ثم سيحتدم التنافس بين مجموعاتٍ

---

[٢٢٥] انعقد المؤتمر الأول لأصدقاء سوريا في تونس في ٢٤ شباط/ فبراير ٢٠١٢ كرد على الفيتو الروسي الصيني الثاني في مجلس الأمن في الرابع من الشهر نفسه، واعترف المؤتمرون بـ "المجلس الوطني" ممثلا للشعب السوري شريطة توسيعه ليشمل حميع أطياف الشعب: www.dw.de/p/149dd. انعقد المؤتمر الثاني في اسطنبول بتاريخ الأول من نيسان/ أبريل ٢٠١٢ وتم فيه الاعتراف الكامل بـ "المجلس الوطني": http://www.doualia.com/2012/04/01/مؤتمر-أصدقاء-سوريا-يعترف-بالمجلس-الوط.

[٢٢٦] استخدم مصطلح "الجيش الحر" دائماً لتغطية عملية تسليح شاملة للقوى الإسلامية، ذلك بسبب سمعته كمجموعة من المنشقين الذين آثروا عدم المشاركة في قمع التظاهرات، وحازوا على احترام المتظاهرين وتقديرهم.

مسلحة مرتهنة للخارج لحاجتها للتزوُّد بالمال والسلاح، وما ستحمله معها من أجندات تطيح بكل ما قام السوريون من أجله، فيتحوّل الصراع ضد النظام الاستبدادي إلى حرب أهلية معقدة من الصعب التكهُّن بمآلاتها.

انتفض صديقي بشدة، قال لي حرفياً: "ما العمل إذا كان النظام يواجه المتظاهرين بالدبابات؟" أجبته بأنّنا لن ننتصر على النظام كمشروع بديل ديمقراطي إلاّ بالوسائل التي لا يمكنه التعامل معها بفعالية، وهي الأساليب المدنية السلمية والتفكير الوطني الجامع، كنقيض لسياساته، وأنّ أية حالات مقاومة مسلحة يجب أن تكون محدودة ومبرّرة بحاجات الدفاع عن النفس، وتخضع للتقييم السياسي المتواصل. فكيف يمكن أن نشارك في تحمُّل مسؤولية مثل هذا التوجُّه الذي قد يرفع عدد الضحايا إلى مئات الآلاف، ويضع سوريا كلَّها على كفّ عفريت، سواء سقط النظام أم لم يسقط؟

كان رأي الصديق عمر عزيز، الذي اطلع لاحقاً على الموضوع، مخالفاً لرأيي أيضاً، لكن بصورة أكثر دبلوماسية، وقال بأنْ لا حلّ آخر أمام جنون النظام وحلّه الأمني، وسيتعلّم الشعب دروساً من مقاومته وأخطائه. حينئذٍ، اعتذرت عن المضي قُدماً، رافضاً كل أشكال التعاون في هذا الاتجاه، ومعتبراً أنّ الخوض في هذا الأمر من قبل جهة سياسية دليل على انعدام الرؤية والتبعية التامة لأجندات الممولين الإقليميين وعبثهم بالواقع السوري.

مثَّلت تلك اللحظة علامة فارقة وخطيرة بالنسبة لي، مع الإشارة إلى أنّ التسلُّح كان قد بدأ يتقدَّم بصورةٍ حثيثةٍ على الأرض، مستنداً إلى دعمٍ خارجي حمل معه المشاريع المتطرفة إلى المجتمع السوري، على رأسها الطائفية البغيضة. للمرة الأولى، منذ بداية الحدث السوري، عشت مثل هذا الفراغ والإحباط واليأس، كأنّه انكسار لحلم، ولم تبقَ سوى "شعرة معاوية" صامدة في علاقتي السياسية مع صديقي، بعد حوارات صاخبة ويومية لأكثر من شهر.

مؤتمر المنبر الديمقراطي السوري في القاهرة

في هذه الأثناء، وصلتني دعوة لحضور مؤتمر المنبر الديمقراطي السوري في القاهرة، في الفترة ما بين ١٢ و ١٧ نيسان/ أبريل ٢٠١٢[٢٢٧]. كنت في أمسّ الحاجة لأجد نفسي في مكان ما أقرب إلى توجهاتي السياسية بعد إحساسي بأنني أتزحلق على جدار هوة عميقة، ويجب أن أخرج منها بأسرع ما يمكن. غادرت عن طريق مطار دمشق مساءً، ووصلت قُبيل منتصف الليل إلى أحد الفنادق مقابل أهرامات الجيزة.

---

[٢٢٧] كان المنبر قد عقد اجتماعاً تأسيسياً في الفترة من ١٦ إلى ١٨ شباط/ فبراير ٢٠١٢.

مثَّل الحاضرون تنوعاً سورياً مقبولاً، لكن بدرجة أقلّ بالنسبة للإسلاميين. وعلى مدى ثلاثة أيام جرت نقاشات كثيرة وصدرت عدّة وثائق[٢٢٨]، كما حدث جدلٌ بين جيل الشباب وجيل السياسيين المعارضين، وأخيراً جرى التوافق في سهرةٍ عاصفة استمرت حتى الصباح.

في نهاية المؤتمر، انتخبت لجانٌ عدّة، منها اللجنة السياسية التي ضمت خمسة أعضاء، ثلاثة من الخارج، واثنان من الداخل؛ الشيخ رياض درار[٢٢٩] وكاتب هذه السطور. وبسبب صعوبة التعبير الحر عن الرأي من الداخل، خاصة عند التعامل مع وسائل الإعلام، استقلتُ بعد عدة أشهر، وصار يتم التعبير عن رأي المؤتمر من خلال أعضائه الأكثر حريةً في الخارج، كما خرج الشيخ رياض من سوريا في وقتٍ لاحق.

لم يعتبر المنبر الديمقراطي السوري نفسه تشكيلاً سياسياً جديداً، إنّما تجمعاً لأشخاصٍ يعملون في الشأن العام وموجودين في المنبر باسمهم الشخصي، ولهذا يمكنهم أن يكونوا أعضاء في المنبر وفي التشكيلات السياسية الأخرى في الوقت ذاته.

تمثَّل هدف المنبر السياسي في تخفيف التجاذب الإعلامي والشخصي والميداني بين مختلف أطياف المعارضة، ومن ثم تقريب وجهات النظر فيما يخص آليات التغيير، والدعوة إلى مؤتمر وطني للخروج برؤية تتفق عليها كافة أطراف المعارضة، وكانت وثيقة العهد الوطني[٢٣٠] في القاهرة بتاريخ ٣ تموز/ يوليو ٢٠١٢ ثمرة هذا التوجه.

لم يكن من المستغرب التعتيم التام على مجريات أعمال المنبر من قبل وسائل الإعلام التي تدعم "المجلس الوطني" الإقصائي، لا بل أنّ محاولة تشبيحية فاشلة واتهامات لا أساس لها من قبل ناشطَين مقرَّبين من "المجلس الوطني" جرى وأدها في اليوم الأول للمؤتمر[٢٣١].

لم يسقط المنبر الديمقراطي السوري تحت نفوذ أيّ من الدول على حدّ علمي، وتموّل من بعض أعضائه في الخارج، ومثَّل تطلعات بعض السوريين للخروج من التجاذبات الحادة ونبذ

---

[٢٢٨] جاء في موقف المنبر من كلٍّ من الجيش الحر والجيش النظامي: "يدعم المنبر الجيش الحر بقدر ما يساند هذا الأخير سلمية الثورة ويندرج في إطارها ولا يتعارض معها. وبالمقابل فإن المنبر لا يعتبر الجيش السوري النظامي الذي لم يتلوث بدماء السوريين جيشاً للنظام، بل هو جيش الدولة السورية الذي استلبه النظام، ومهمة الثورة استعادته بأكمله واستعادة دوره الوطني، وبالتالي ليس الموضوع هو صراع بين جيشين، بل هو بين الاستبداد والثورة التي ندعو جميع أبناء سورية من مدنيين وعسكريين إلى الانضمام إليها."
/http://syriandemocraticforum.org

[٢٢٩] الشيخ رياض درار؛ باحث إسلامي ديمقراطي يدعو إلى العلمانية وحيادية الدولة ومدنيتها، سجين سابق من "إعلان دمشق"، وكان عضو المكتب التنفيذي في هيئة التنسيق الوطنية أيضاً.

[٢٣٠] وقعت على هذه الوثيقة معظم القوى الفاعلة في المعارضة السورية وتم تعديلها والتأكيد عليها لاحقاً في عام ٢٠١٤.
https://www.facebook.com/Follow.up.Committee/posts/336206329806871

[٢٣١] واجهت الناشطَين المشاغبَين بنفسي، وكنت على معرفة افتراضية بأحدهما. سألتهما، على سبيل المثال، إن كنتُ من أعوان النظام كما يدعون؟ فاعتذرا مني ومن آخرين أيضاً وانكفأ بعيداً!

التطرُّف. كما عمل نشطاء منه في الإغاثة، سواء في الداخل أو في مخيّمات النزوح، ثم مضى كتجربة فاشلة أخرى من تجارب الانتظام السياسي السوري المفقود[٢٣٢]!

مؤتمر البحر الميت أو مؤتمر "المواطنة والدولة المدنية الديمقراطية[٢٣٣]

دُعيت بعض الشخصيات مباشرةً من مؤتمر المنبر الديمقراطي السوري في القاهرة للمشاركة في هذا المؤتمر الذي انعقد بين ١٧ و ١٩ نيسان / أبريل ٢٠١٢ بحضور ٦٠ شخصية سورية مثَّلت مختلف ألوان الطيف السياسي والمدني السوري، علاوة على بعض المستقلين. انعقد المؤتمر تحت شعار وحدة المعارضة على أساس "المشتركات والجوامع" فيما يتعلق بطبيعة النظام السياسي وعلاقة الدين بالدولة وحقوق الأقليات.

في ختام المؤتمر، تم تشكيل لجنة لصياغة خلاصة النقاشات والتوافقات، لكنّ أكثر من نصف الأعضاء، وعلى رأسهم خمسة أعضاء من "الإخوان المسلمين" وممثِّلَين عن تيار بناء الدولة، رفضوا التوقيع على البيان النهائي الذي أُطلق عليه "إعلان البحر الميت". في نهاية المطاف، وقع البيان ٢٣ عضواً فقط، وكنتُ من بينهم[٢٣٤].

ما كان يجتذبني ليس ما يقوله الأشخاص فحسب، إنّما ارتباط أقوالهم بممارساتهم على اختلافها؛ الملبس والمأكل وأدقّ تفاصيل التعامل. ففي قاعة طعام فندق الانتركونتينانتال على شاطئ البحر الميت، جلست على طاولة طعام واحدة بجانب صديقي العلماني، مقابلنا جلس صديقنا الإسلامي وزوجته. كان الإسلامي يتكلم باسترسال من دون أن يتوقف عن تناول الطعام، فيما كان العلماني ينصت بانتباه[٢٣٥]، وقد توقّف عن الطعام وأشعل سيجارة ليركّز على المعاني ويطرح تساؤلاته، التي كانت تنفذ بصعوبة عبر سيل جمل اللغة العربية الفصحى التي يتفوّه بها صديقنا الإسلامي.

---

[٢٣٢] اندمج المنبر الديمقراطي السوري لاحقاً مع حركة النداء الوطني ليتشكل المنبر الديمقراطي الوطني في بداية آذار/ مارس ٢٠١٤، ولم يعنِ ذلك إضافة سياسية تذكر!

[٢٣٣] http://www.alqudscenter.org/arabic/pages.php?local_type=128&local_details=2&id1=1028&menu_id=10&cat_id=4

[٢٣٤] تضمن البيان دعوةً لوحدة المعارضة، والحفاظ على سلمية الحراك وطابعه السوري الشامل، ورفض التدخل العسكري، وضبط السلاح وإخضاعه للمرجعية السياسية للمعارضة الموحدة، ودعم المبادرات العربية والدولية الهادفة لحل المسألة السورية. في مداخلتي توجّهت إلى الإسلاميين من الإخوان وآخرين، تبيّن لاحقاً أ بعضهم من ممثلي حركة "أحرار الشام" علاوة عن بعض الطائفيين، وطلبت منهم التفكير بمصلحة السوريين جميعهم لنستطيع الخروج من المأزق بأقل الخسائر ثم نقدم برامجنا السياسية لاحقاً ونتنافس ديمقراطياً، لكنّ كلامي كان بلا صدى بالنسبة لهم، مع أنه لاقى الكثير من الاستحسان، عرفت ذلك من تقدم بعض المؤتمرين والحضور الأجانب للحديث معي في استراحة القهوة. أما ردّ فعل "الإخوان المسلمين" فتمثّل بدعوتي لأكون وسيطاً بينهم وبين النظام. قال أحدهم بالحرف الواحد: "نحن الفاعلون على الأرض والنظام يمتلك السلطة، ويمكننا الحوار حول تقاسم السلطة." تحدّث معي "الإخوان" وكأني كنت ممثِّلاً للنظام في المؤتمر بسبب قلة إدراكهم لما هو غير طائفي، فشعرت بخيبة أملٍ عميقة ليس من موقفهم فحسب، إنّما من صورة المستقبل القاتمة التي استشرفتها.

[٢٣٥] هذا توصيف لحالة وهو غير قابل للتعميم بالطبع.

أتذكر هذين الرجلين الآن بعد أن أيقنت أن ما يجمع بينهما هو الصدق والشفافية والوطنية، إذ لم يكن وقوفهما مع استحقاق التخلُّص من الاستبداد تمثيلاً ولا ارتزاقاً، بل سلوكاً منسجماً مع القناعات. لم أشارك في الحديث آنذاك، وأنصتُ إلى الحوار فيما كنت أتناول طبق السمك أمامي[٢٣٦]، وفعلت ذلك زوجة الإسلامي.

كنت أفكرّ في الآفاق الإنسانية لتعامل البشر، ربما حرّض أفكاري ما لمسته من رقيّ المرأة المُعبَّر عنه بسلوكيات بسيطة. وفيما كان الصديقان يتحاورن بلا تكافؤ، قررّت إجراء حوار صامت ومباشر مع المرأة، التي لم أعرفها من قبل؛ قطعت التفاحة الوحيدة التي في الطبق إلى نصفين، حملت أحدهما على طبقٍ من ورق وأنا بالكاد أبتسم، تناولته المرأة بشكر وشبه ابتسامة أيضاً. قضم كل منّا نصف ثمرته بهدوء، تكامل حوار التفاحة هذا مع حوار صديقيّ، وكان طيف سوريا الجميل يرفرف من وراء النافذة.

القطيعة وبداية مرحلة جديدة

في صباح يوم جميل من أواخر شهر نيسان/ أبريل اجتمعنا كأسرتين حول مائدة الفطور. بدأ الحديث استكشافياً وهادئاً، ثم ما لبث أن تحوَّل إلى هجوم حادّ من قبل صديقي، وأخجل من سرده احتراماً لصداقتنا! كان مستاءً وكأنّه خسر صفقة ما، صفقة لم ينجح من خلالها باستيعابي في "المجلس الوطني" أولاً، أو كحليف شخصي يأخذه معه أين يشاء، مثلما يعامل البعض من حوله. ومع أنني أقدِّر مدى الثقة التي منحني إياها صديقي، فقد أخطأ في فهم شخصيتي المستقلة ونمط حياتي على كافة الصُّعد، إذ كان عليه أن يفكر بتكامل جهودنا في عملٍ مؤسساتي وليس بأي شيء آخر. في ذلك اليوم، تعمَّق شرخ المواقف بيننا، وصار افتراقنا السياسي جليّاً.

ورغم شعوري بالخيبة من موقف صديقي، كنت في أعماقي مرتاحاً؛ لأنني لم أسمح لأي شخص أو قوة أن تتحكَّم برأيي، وإنّ قناعاتي المبنيّة على ما أراه مصلحةً وطنية هي ما يتحكَّم بمواقفي ويحدد موقعي السياسي في أي ظرف. في تلك اللحظة، انتهت غربتي الكئيبة في العمل مع هكذا معارضة، وكان لا بدّ من مراجعة متأنية لهذه التجربة، خاصةً وأنّ حقيقة واحدة كانت قائمة في سوريا؛ عدمية القتل والدمار تحت أنظار العالم كله!

***

[٢٣٦] أمام عشرات أصناف الطعام لم يكن يعنيني سوى طبق السمك وبعض الخضار. ارتبكت دائماً بوجود العديد من الأصناف، وكان ارتياحي يتناسب طرداً مع قلّتها وبساطتها.

بقيت عدة أسابيع على نهاية العام الدراسي قبل أن نعود إلى بيتنا في اللاذقية، وعلينا التحضُّر لمحاولات بعض الجيران من المؤيدين للنظام إلحاق الأذى بنا، فخيار السفر إلى الخارج والعمل مع المعارضة كان قد أصبح خارج النقاش، بعد ما رأيته وخبرته! قبل ذلك بأيام، كنت قد لخّصت تجربتي السياسية والميدانية في ندوةٍ على إحدى صفحات التواصل الاجتماعي[٢٣٧].

يمكن إبداء الملاحظات التالية فيما يتعلق بالعلاقة مع صديقي والجهة التي يمثلها:

١. اختلافنا بشدة حول سياسة "المجلس الوطني"، التي تلخّصت بانتظار التدخل العسكري الغربي ليحمل "سياسيوه" إلى سدة الحكم[٢٣٨]. كان ذلك موقفاً صبيانياً يعتقد أصحابه أنه بإمكانهم إملاء مصالحهم على العالم ليتبناها!

٢. سياسة تجميع موالين بكافة الوسائل ليكونوا تابعين[٢٣٩]، عوضاً عن بناء التحالفات مع كافة القوى لتحقيق الهدف المتمثل بالتصدي لعملية التغيير في سورية بمسؤولية.

٣. درجة كبيرة من عدم تقبُّل الخلاف في الرأي، والابتعاد عن الممارسات الديمقراطية.

٤. التغاضي عن الخطاب الطائفي والعنصري لبعض المعارضين والتنسيقيات المحسوبة على الثورة[٢٤٠]!

---

[٢٣٧] يمكن الاطلاع على ماورد في هذه الندوة الالكترونية: الثورة والمعارضة وما بينهما.
https://tagasod.wordpress.com/2012/04/22/منير-شحود-انطباعات-عن-المعارضة-السور
و
file:///E:/%D8%A3%D8%A8%D8%AD%D8%A7%D8%AB/%D9%85%D8%AE%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA%20%D9%84%D9%84%D9%85%D8%B0%D9%83%D8%B1%D8%A7%D8%AA/%D9%85%D9%86%D9%8A%D8%B1%20%D8%B4%D8%AD%D9%88%D8%AF%20%D8%A7%D9%86%D8%B7%D8%A8%D8%A7%D8%B9%D8%A7%D8%AA%20%D8%B9%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%A7%D8%B1%D8%B6%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9%20%D9%88%D9%85%D8%A7%20%D8%A8%D9%8A%D9%86%D9%87%D9%85%D8%A7%20_%20%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AC%D9%85%D8%B9%20%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%20%D9%85%D9%86%20%D8%A3%D8%AC%D9%84%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%85%D9%88%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%8A%D8%A9%20-%20Syrian%20Gathering%20for%20Democracy.htm

[٢٣٨] حتى أن البعض كان يوزع المناصب، وكانت إحدى الوزارات من نصيبي!

[٢٣٩] طلب مني صديقي التوسط مع حركة "معاً" لانضمامها إلى "المجلس الوطني" من أجل تمثيل أفضل للعلويين والمسيحيين كما قال، أو كما يريد السفراء الأجانب الذين ألحوا على ذلك، في حين كان "زعماء" "المجلس الوطني" يعضون على نواجذهم ويشتمون هؤلاء السفراء على "تضامنهم" مع الأقليات، التي لم تشارك في الثورة! وكدفعةٍ أولى، تم إرسال عدة مئات من آلاف الليرات السورية إلى فريق حركة "معاً" للإغاثة في اللاذقية، على أن تكون حصصاً شهرية دائمة، وتمّ قطع هذه الإعانة بصورة غير مقنعة حين لم توافق الحركة على الانضمام بصورة جماعية إلى المجلس. في هذه الأثناء، تصرف أحد أعضاء الحركة بصورة غير نزيهة، الأمر الذي أفقدني صوابي، ليتبين لي أنّ الأمر يتعلق أساساً بشراء الولاءات من خلال المال المقدم، أكثر منه بغاية تقديم الدعم لمحتاجيه!

[٢٤٠] تنسيقية الميدان وضواحيها على سبيل المثال لا الحصر، وباعتبار أن لصديقي علاقة وثيقة بها، كما فهمت.

٥. التوقف عن دعوتي للقاء السفراء الأجانب بسبب رأيي المختلف، مع أنّ بعضهم كان يسأل عنّي ويطالب بحضوري. لم أكن أريد إحراج صديقي في الحضور، فأتحجّج ببعض المشاغل.

٦. التعامل مع أشخاصٍ انتهازيين لمساعدته في صياغة مواقفه السياسية ودعمه ضد منافسيه، وكان بعضهم أشبه بمرتزقة.

٧. تأكَّدت، بالتجربة الملموسة، من شكوكي بخصوص "المجلس الوطني"؛ أي ارتهانه لمصالح الدول الأجنبية ومتاجرته بالدم السوري.

قبل انتهاء العام الدراسي بأيام، قال صديقي بأنّ أحفاده بحاجةٍ إلى البيت، فأكّدت له أننا راحلون فور إغلاق المدارس[٢٤١]. حينئذٍ، شعرت بقهرٍ لا حدود له، والتمست لصديقي بعض العذر حين عرفت، لاحقاً، بأنّه كان سيسافر إلى الخارج، لكن كيف أعذره على عدم قول ذلك بوضوح؟

في مساء اليوم الأخير لوجودنا في دمشق، وضّبنا أغراضنا الشخصية في السيارة، ثم اجتمعنا معاً للوداع. شربنا الشاي، شكرنا أصدقاءنا على الضيافة، ولمَّحت إلى خطأ حساباتنا السياسية في ظروف متحركة ومحفوفة بالمخاطر، في محاولة منّي لاستبعاد أية مؤثرات شخصية. بعد عودتنا بأسبوعين أو ثلاثة، سافر صديقي ومن يرتبط به، بالقرابة أو بالسياسة، إلى ألمانيا، وعلى مراحل. بدورنا، عدنا إلى بيتنا في الدريكيش، كتمهيد لعودتنا إلى اللاذقية. كنت بحاجةٍ ماسة للتفكير بهدوء ومراجعة ما حدث، بموضوعية وعلى كافة الصُّعد.

لقاء مع السيد كوفي عنان

تولّى السيد كوفي عنان مهمته في سوريا كمبعوث للأمم المتحدة والجامعة العربية في ٢٣ شباط/ فبراير ٢٠١٢، وأعلن مبادرته لحل الأزمة السورية، كما أشير سابقاً. في الزيارة الثانية التي قام بها إلى دمشق بتاريخ ٢٨ أيار/ مايو ٢٠١٢، تمت دعوة وفد المنبر الديمقراطي السوري، من بين وفودٍ معارضة أخرى، للقائه في فندق الميريديان، ضم الوفد الأستاذين حبيب عيسى وفايز ساره وكاتب هذه السطور.

دخلنا من باب مرآب الفندق، في الجهة الخلفية المحاذية لشارع بيروت، لتجنُّب عدسات المصورين، وقادنا أحد المرافقين عبر دهاليز التمديدات الصحية حتى وصلنا غرفة الاجتماع. تم تخصيص نصف ساعة للقاء كلٍّ من الوفود المعارضة، واتفقت وزميليَّ، مسبقاً، على أن يتحدث

[٢٤١] كان ذلك تصرفاً في منتهى الغرابة؛ لأن صديقي كان يلمس مدى شوقنا للعودة إلى بيتنا في نهاية العام الدراسي، وقد أصبحنا شبه رهائن لحوالي عام! سخرت مرة من الأمر قائلاً: "ثمة من يريد أن يضعنا في أقفاص أقلّوية ليعرضنا، حين اللزوم، كالسعادين على السفراء الأجانب، ذلك كدليل على أن الثورة تشتمل على جميع مكونات الطيف السوري!"

كل منا مدة ٧ دقائق لعرض أحد جوانب الموضوع، واستغلال الوقت المتبقي لمعرفة وجهة نظر الأمم المتحدة.

جرت الأمور بدقة[٢٤٢]. في نهاية اللقاء، أثنى السيد كوفي عنان على تنظيمنا للوقت، وعبّر، في معرض حديثه، عن رغبته بالاستقالة، نظراً لانسداد آفاق الحل، الذي يرتبط بضرورة إصدار قرار مُلزم من مجلس الأمن، الأمر الذي من غير المرجّح حدوثه في المدى المنظور؛ بسبب الخلاف الأمريكي– الروسي. كما نقل لنا كوفي عنان ما دار بينه وبين الرئيس بشار الأسد صباح ذلك اليوم، معبِّراً عن تشاؤم إضافي تجاه موقف النظام، الذي لا يرى في الأمر أكثر من صراع مع مجموعات إرهابية.

الدريكيش، ١١ حزيران/ يونيو ٢٠١٢

مثقلين بالإحباط، لُذنا ببيتنا الريفي بعد سنة لم نعرف فيها دفء البيت وحرية العيش، رغم كل ما فعله أصدقاؤنا لنشعر باستقلالنا. على شاشات القنوات الفضائية تتصدر المشهد أخبار المأساة السورية وصور الدمار والقصف والمعارك. ولا يمرُّ يومٌ من دون أن تعبر قوافل شهداء الجيش على الطريق المحاذية لبيتنا، يتقدّمها شبّانٌ يركبون الدراجات النارية وتلحق بها السيارات تعبيراً عن واجب التضامن! هل هي الحرب الأهلية؟ وهل يمكن أن ينجم عن جنون الحل الأمني الذي اعتمده النظام، وما استتبعه من جنون مقابل، غير ذلك؟

بعد عدة أيام من وصولنا إلى الدريكيش، اتصل صديقي من دمشق أكثر من مرة، طالباً منّي فتح بريدي الالكتروني لأمر هام جداً! لم يكن بوسعي التواصل عن طريق شبكة الانترنت في المنطقة، فسافرت إلى مدينة طرطوس، ووجدت في بريدي الالكتروني دعوةً من الحكومة التركية لحضور مؤتمر يتعلق بسوريا والمعارضة[٢٤٣]!

---

[٢٤٢] من الاقتراحات التي قدمناها لممثل الأمم المتحدة في أثناء اللقاء:

١. زيادة عدد المراقبين الدوليين وانتشارهم في مناطق التوتر، وتزويدهم بما يستلزم لقيامهم بمهام المراقبة، خاصة فيما يتعلق بحماية المدنيين؛

٢. طلب قوات فصل أممية في مناطق التداخل والنزاع الأهلي مثل حمص؛

٣. البدء بتطبيق وقف إطلاق النار في المناطق الأقل تعقيداً وتداخلا مثل دير الزور وريفها؛

٤. حظر السلاح الوارد إلى طرفي الصراع؛

٥. العمل على أن يترافق أي بدء للحوار بحرية العمل السياسي في المناطق التي يسيطر عليها النظام لتمكين الناس من التعبير عن رأيهم؛

٦. ربط مبادرة السيد كوفي عنان بقرار من مجلس الأمن لضمان استجابة الطرفين؛

٧. أن تترافق هذه الإجراءات مع التحضير لبدء العملية السياسية في أسرع وقت ممكن.

[٢٤٣] لم يكن صديقي يلح عليَّ كل هذا الإلحاح لو لم يتعلق الأمر بطلبٍ أحد السفراء الأجانب، إذ كان السفير التركي في دمشق وراء الدعوة، ذلك في محاولة منه لتجنيد معارضين لخدمة أجندات دولته، كما كان يحدث في معظم الحالات، لا بل أنّ السفراء الأجانب صاروا، أحياناً، وسطاء في حلّ الخلافات المستعرة بين المعارضين السوريين!

جرجرت قدماي صوب البحر، جلست على صخور الشاطئ أفكِّر لساعات، لم تكن تلك الموجات التي تضرب جلاميد الصخر قادرةً على منحي السكينة، وكان الوطن الذي حلمت به يتسرّب من بين أصابعي كحباتٍ من الرمل!

٢٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٢

كم كان وضعنا في الداخل محرجاً عند الحديث إلى وسائل الإعلام! عدم الوضوح في إبداء الرأي وتصنُّع الاعتدال أحياناً كان يستغلّه البعض للتشكيك بالمواقف، فإن كان الحديث لوسائل الإعلام المؤيدة للنظام تعرضنا للاتهام بالتواطؤ معه[٢٤٤]، وإن كان لوسائل الإعلام المعادية للنظام يعرِّضنا لتخوين أنصاره، فضلاً عن إشارة هذه الوسائل إلى الصفة الطائفية للمتحدِّث، إنْ كان ينتمي بالمولد إلى مجتمعات الأقليات! بعد عدة محاولات مرتبكة، رأيت أنّه من الأفضل الصمت، ولم يكن ينقص شاشات الفضائيات محلّلين لمصائبنا، سواء من الداخل أو الخارج!

مؤتمر جنيف ١

انعقد مؤتمر جنيف ١ أواخر شهر حزيران/ يونيو ٢٠١٢، وكان من أبرز مقرراته اقتراح تشكيل حكومة انتقالية واسعة الصلاحيات، فيما بقي موضوع مصير الرئيس غامضاً. مثَّل هذا المؤتمر إطاراً لحلّ المشكلة السورية، لكن من دون إرادة دولية حقيقية للمضي قدماً في تحقيق الحلّ المنشود. كان العالم متّفقاً على إدارة الأزمة السورية وليس حلّها، في المدى المنظور على الأقل، فتواصلت الحرب في سورية بلا أي أفقٍ لحسم الصراع، ودخلنا في نفق كارثي مفتوح على كافة الاحتمالات.

تعايش سوري

نزح مئات آلاف السوريين من مناطق الاشتباكات، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى المناطق الساحلية، بخاصة بعد اجتياح المسلحين للمناطق الشرقية من حلب[٢٤٥]، فضلاً عن

---

[٢٤٤] تلقيت أيضاً دعوة من أحد المؤيدين للنظام في الخارج للمشاركة في حوارات على شاشات القنوات الرسمية بضمانته، لكني اشترطت قول رأيي كاملاً والحصول على ضمانات أمنية مكتوبة وعلنية!

[٢٤٥] بدءاً من شهر تموز/ يوليو ٢٠١٢.

عودة آلاف العائلات العلوية التي كانت تقطن في مناطق ذات أغلبية سنية بسبب التهديدات المباشرة من حملة السلاح، خاصةً التكفيريين منهم.

في البداية، كان بعض النازحين من مناطق الاشتباكات إلى الساحل من الموالين للنظام، ومن ثم اتسع نطاق النزوح ليصل إلى أكثر من مليونين خلال سنة، وتوزعوا على كافة المدن والبلدات والقرى الساحلية.

تابعت أحوال المهجرين، مباشرةً أو من خلال بعض مجموعات الإغاثة، ودُهشت لتعامل الناس معهم ومساعدتهم على المستويين الرسمي والشعبي، ومن دون أية اعتبارات أخرى. فحين وصل المهجرون من حلب إلى الدريكيش تم تأمين من لا يمكنهم اكتراء البيوت في بعض المدارس وفي معمل الحرير، وقدم أهالي القرى لهم المواد الغذائية بسخاء، رغم حالات الفقر المزرية. تدريجياً، بدأ أصحاب المهن منهم بالعمل بعد أن جلبوا ما أمكنهم من المستلزمات أو ما تبقى من ورشهم، وساهموا في إعادة إحياء السوق السورية بعد أن وصلت الأمور إلى حالة سيئة في نهاية عام ٢٠١٢ وبداية عام ٢٠١٣[٢٤٦].

لم تسجل أية حوادث تذكر في تقبُّل هؤلاء المهجرين، رغم الازدحام الخانق في مختلف الأماكن، وهذا ما لا يفهمه المحرضون الطائفيون، أو أنهم لا يريدون فهمه. وكان للأجهزة الأمنية، التي تعاملت بارتباك مع الموضوع في بداياته، اعتباراتها وحساباتها، لكن النظام، على وجه العموم، كسب هذه الجولة ضد المتشدِّدين من خصومه، الذين رفعوا شعار "الحرب ضد النصيرية" وبما يرقى إلى التطهير العرقي، فيما كان "النصيريون" يتقبَّلون أخوتهم كسوريين قبل كل شيء!

أشاعت أجهزة النظام، بطريقة أو بأخرى، أنه من غير المسموح إطلاقاً حدوث أي نشاط معارض في هذه الأماكن، تحت طائلة الانتقام القاسي التي تكفّلت به تلك القوى غير النظامية، والتي شكّلت لاحقاً "جيش الدفاع الوطني"، واحتوت بعضاً من خريجي السجون والمهمشين اجتماعياً، الذين ذهبوا للسّلب والنّهب (التعفيش) في باقي المناطق السورية أكثر منه للقتال.

بمرور الوقت، تعزَّزت علاقات المصالح على اختلافها، وكانت ثمة حاجة ماسة لليد العاملة للتعويض عن الشباب الذين يخدمون في مختلف الأنشطة العسكرية أو الذين استشهدوا أو جرحوا في الحرب. كما أصبح التعايش والاختلاط حقيقة، كما كان دوماً في سوريا، وتكيّف المهجَّرون، إلى حدّ معقول، مع الأجواء الاجتماعية المنفتحة، بخلاف بيئاتهم الأصلية.

---

[٢٤٦] حتى في قريتي النائية بريف الدريكيش، بدأت عائلة حلبية من الصفر في صناعة المنظفات، وعمل رب الأسرة مع ابنتيه بجد ليُقلع بورشته، التي تحولت بعد أشهر إلى معمل يُنتج جميع أنواع المنظفات. لا أعرف بالضبط إن كان قد تم استغلاله من قبل رب عمله الذي أمّن له المكان والمستلزمات. حين قابلته أول مرة لطمأنته، كان الرجل مرتبكاً، لكن، بعد عدة أشهر، جلسنا نتحدث ضمن مجموعة من الأشخاص، وكأنه عاش في هذه البيئة من زمن طويل.

على وجه التوكيد، ليست الصورة وردية بالنسبة لأولئك الذين هجروا بيوتهم وأعمالهم، لكنّ الأمر يتعلّق ببعض الأمان في زمن الموت الذي كان يذكِّر بنفسه يومياً في مختلف أنحاء سوريا المكلومة[٢٤٧].

بقيت المناطق التي يسيطر عليها النظام تُدار بالطريقة المستبدة ذاتها، ومنها المناطق الساحلية. مع ذلك، كانت الحياة هي التي تتغير هذه المرة، فاتّسعت درجة التعبير عن الرأي على المستوى الشعبي، نظراً لفداحة المأساة التي طالت الجميع[٢٤٨].

١٨ تموز/ يوليو ٢٠١٢

تم اغتيال أعضاء ما سمي بخلية الأزمة في مبنى الأمن القومي بدمشق، في أهم وأكبر عملية ضدّ الكوادر العليا للنظام، ورغم تبنّي "جيش الإسلام" وأحد فصائل "الجيش الحر" للعملية، فقد اكتنفها الكثير من الغموض[٢٤٩].

٣٠ آب/ أغسطس ٢٠١٢

استمر نزيف الدم في سوريا، وتفاقم الصراع دون أي أفق لمخرج سياسي؛ نظامٌ فقد مبررات وجوده، لكنه يمتلك القوة والحلفاء، وفي المقلب الآخر، مسلحون ليس لهم أي هدف معلن سوى إسقاط النظام، يدخلون المدن ليحرروها، فيصبح سكانها لاجئين، وتتدمَّر من دون أن تتحرّر!

---

[٢٤٧] سعينا قدر الإمكان، وبإمكانات محدودة، لمساعدة المهجرين في الساحل السوري. قبل عيد الفطر بأيام صيف ٢٠١٥ قدمت هدايا العيد إلى حوالي ٨٠ طفلا من مهجري حلب في الدريكيش، وقد تبرعت بثمنها إحدى فاعلات الخير من السوريات المقيمات في الإمارات العربية المتحدة. حينئذٍ رأيت كيف أن القبضة الأمنية ما زالت تمنع التواصل بحرية مع المهجرين، فضلاً عن الواقع الصعب للذين يسكنون في مراكز الإيواء، ومنه تشتت الأسر والمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق المرأة. مع ذلك، كان التعامل الإنساني هو المفتاح السري الذي يدخل البهجة إلى القلوب في أصعب اللحظات. كما كان التواصل الاجتماعي بين المهجرين وأبناء المنطقة عادياً، برغم جنائز الشهداء الحاضرة يومياً. من المفارقات أن أبناء بعض الأسر النازحة كانوا يقاتلون النظام في حلب، في حين كان أبناء آخرون مجندين للقتال إلى جانب النظام.

[٢٤٨] مع وعي فداحة الظلم والمأزق الذي وضع النظام مؤيديه فيه، تصاعدت الاحتجاجات في المناطق الساحلية، إلى أن وصلت إلى حالة نوعية بقيام مظاهرة في اللاذقية في ٩ آب ٢٠١٥ بعد قتل أحد أبناء العائلة الحاكمة لأحد ضباط الجيش بسبب خلاف مروري. طالبت المظاهرة باعدام القاتل، ورافقتها اعتصامات في كل من حمص وطرطوس واللاذقية، قام بها أهالي العسكريين المحاصرين في أماكن مختلفة في سوريا، لكن المضي قدماً في هذا الاتجاه كان من شبه المستحيل؛ بسبب تصاعد التطرف الإسلامي.
all4syria.info/Archive/244821
http://alhayat.com/Articles/10493082/%D8%AA%D8%B8%D8%A7%D9%87%D8%B1%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%A7%D8%B0%D9%82%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%B7%D8%A7%D9%84%D8%A8-%D8%A8%D8%A5%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D9%85-%D8%B3%D9%84%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%AF

[٢٤٩] قتل في التفجير وزير الدفاع داوود راجحة ونائبه آصف شوكت ورئيس مكتب الأمن القومي هشام اختيار ورئيس خلية إدارة الأزمة حسن تركماني.

كنت ما أزال أرزح تحت شعور مرير بالخيبة من المعارضة السياسية، التي لم تكن على مستوى الحدث، وبالتالي، لم يكن بمقدورها المساهمة في إخراج سوريا من النفق المظلم الذي ولجته، فتقدَّم الإسلاميون بحلِّهم العسكري في مواجهة الحلّ الأمني للنظام. في ذات الوقت، كان السيد الأخضر الإبراهيمي يعدُّ العدّة لمواجهة أزمة مستعصية، بأمل ضئيل، بعد أن حلَّ مكان السيد كوفي عنان كمبعوث دولي وعربي في التعامل مع الحدث السوري.

العودة إلى اللاذقية

صباح يوم الخامس من أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢ وصلنا إلى بيتنا في مدينة اللاذقية، وعلى الفور استعد بعض جيراننا لاستقبالنا بالغمز واللمز والاستعداد للأذى. بالفعل، ما إن جاء المساء حتى اشتغل جهاز الإنذار في السيارة، وقررت أن أفعل شيئاً. نزلت إلى الفسحة أمام البناء للحديث إلى الشباب المتجمعين في المكان. حيّيتهم وقلت لهم أن موضوع السيارة غير مهم، وقد سامحتكم عمّا مضى، لكنّي أودّ التحدث معكم في السياسة وعن المعارضة! كان رد فعلهم مزيجاً بين الدهشة والحذر؛ تفوَّه أحدهم ببعض السخافات، في حين بدا أنّ البعض منهم على استعدادٍ، ولو بحياء، للاستماع والحوار.

تركت لهم الفرصة لطرح الأسئلة وأجبت عنها باقتضابٍ ووضوح مهما بدت استفزازيةً، وبقينا نتحاور لعدة ساعات. كانوا حوالي عشرة شبان في البداية، ثم انسحب معظمهم حتى بقي اثنان فقط. هدأ الحوار لاحقاً بعد أن "اكتشفوا" أنني معارض "طبيعي"، وعبروا عن مخاوفهم، كما تخلَّوا عن بعض مسلماتهم، والأغلب أنّهم تظاهروا بذلك.

في نهاية الحوار الصعب، شعرت أنّ جبلاً قد انزاح عن صدري، وأنّي قمت بما يلزم عليّ القيام به. لم يرق اللقاء مع الشباب لبعض جيراني من الكبار، الذين تشبَّعوا بالحقد والضغينة والإقصاء، كأبناء نجباء لمقولة حزبهم: "أنا بعث وليمتْ أعداؤه..![٢٥٠]"

مؤتمر آخر وخيبات أخرى!

في ١٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢، تمت دعوتي لحضور مؤتمرٍ في القاهرة بهدف توحيد القوى الديمقراطية. وصلت مساء اليوم السابق لعقد المؤتمر إلى مطار دمشق، أنهيت الإجراءات

---

[٢٥٠] بقيت بعض حالات التحرش المنفردة، فعملت على معالجتها مع الأهل، واستعصت عليّ حالتان؛ أبناء أسرتين من أمهات روسيات، الذين أظهروا المزيد من الحقد، ربما كخلطة مميزة من الاستبداد المحلي والعقيدة الستالينية التي لا تعرف سوى تدمير الخصم، وكان لا بد أن ينفجر الوضع في وقت لاحق.

ودخلت قاعة الخروج إلى الطائرة. من خلال الزجاج، لمحت وفد هيئة التنسيق الوطنية الذي كان قادماً من زيارةٍ إلى الصين برئاسة الدكتور عبد العزيز الخير[٢٥١]، وبدا مع زملائه في حالة ارتباكٍ واضحة.

حين وصلت القاهرة، سمعت أنه قد تمّ خطف عبد العزيز الخير واثنين من رفاقه[٢٥٢] على طريق المطار. لم تعترف السلطات السورية باعتقالهم حتى لحظة كتابة هذه السطور، واتهمت "العصابات المسلحة" بالقيام بذلك. لاحقاً، زعمت مصادر هيئة التنسيق أنهم معتقلون في أحد سجون المخابرات الجوية، ولم تفلح جميع الوساطات في الكشف عن مصيرهم على وجه التوكيد.

كان من في الداخل من المعارضين أشبه برهائن يتم تحجيمهم متى رأى النظام أنهم يمثلون تهديداً له، مع حرصه على أن يترك لهم هامشاً من الحرية من أجل العزف على أوتار المعارضة الداخلية. في الواقع، كان الأمر بالنسبة للمعارضين في الداخل، وما يزال، في غاية الصعوبة، ولم يكن الالتحاق بالمعارضة في الخارج حلاً أيضاً؛ بسبب ارتباطاتها ومشاكلها، ويا له من حصار!

لماذا أُخفي عبد العزيز الخير؟ هل لأنّ حجمه وعلاقاته الدولية، خاصة مع حلفاء النظام، قد يجعل منه بديلاً ما في مرحلةٍ انتقالية؟ هل كونه "علوي" ومن القرداحة نفسها أمر مهمّ أيضاً؟ وما هي الخطوط الحمر التي تجاوزها؟ أسئلة كثيرة ولا إجابات واضحة.

***

خلال حضوري لهذا المؤتمر تعرّفت على بعض الشخصيات السورية المعارضة موضع الجدل، وعلى مواقف بعض العشائر السورية. كما اطلعت على بعض مجريات مؤتمر آخر عقده معارضون إسلاميون سوريون في أحد فنادق القاهرة الفخمة، وخرجت بعد وقتٍ قصير لأني وجدت نفسي في أجواء غريبة!

في أثناء تسكعي في شوارع القاهرة، اتّخذت قراري النهائي؛ لن أحضر أي مؤتمر بعد الآن، لا في الخارج ولا في الداخل، في المدى المنظور على الأقل، إذ ليس ثمة من أمل يلوح في الأفق، وبُتنا كصبية يلعبون على هامش الحريق السوري!

---

[٢٥١] طبيب وسجين سابق من قيادات حزب العمل الشيوعي، نال سمعة طيبة في السجن لعلاجه كافة المعتقلين من دون تمييز. في خريف ٢٠١١ هاجمه معارضون في القاهرة وتعرض للضُرب ورُميَ بالبيض، وكان ذلك بداية التشبيح "الثوري" من قبل أنصار "المجلس الوطني".

[٢٥٢] ماهر الطحان وإياس عياش.

تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٢، معارك حلب

يعدُّ هجوم المسلحين من الريف الحلبي الشمالي على مدينة حلب، ابتداءً من صيف ٢٠١٢، وما رافقه من نهب وحرق وقصف لأغنى مدينة سورية وأكثرها ازدهاراً من الناحيتين الصناعية والتجارية، يُعدُّ من أكبر الكوارث التي حصلت خلال هذه الفترة، ولن يغفر الحلبيون لمن تسبب لمدينتهم بالخراب، مثلما لمست من جلٍّ من تحدّثت إليهم. لعلّ في هذه الرسالة التي أرسلتها طبيبة في المشفى الجامعي، طالبتي السابقة في كلية الطب بحلب، ما يلقي الضوء على الجحيم الذي عاشته المدينة. تركتُ الرسالة كما هي باللهجة الحلبية، مع القليل جداً من التحرير[vi].

كما وصلت رسائل من أحد الأصدقاء؛ طبيب أسنان من طرطوس كان قد استقر في حلب الشرقية الخاضعة للمسلحين بعد أن اعتقل من قبل النظام في الأشهر الأولى، تحدّث فيها عن انطباعاته عما آلت إليه الأمور[vii].

الاستدعاء إلى فرع المخابرات الجوية في اللاذقية

في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، بعد أسبوع من العمل على جني محصول الزيتون، وفي الوقت الذي كنت أستلم فيه أوعية الزيت الأربعة من المعصرة، ترجّل أحدهم من سيارة دفع رباعي رُكنت قرب المكان، ثم تقدَّم بصورة مريبة من المحاسب وسأله عن أسعار الزيت، وحين قُدت سيارتي باتجاه البيت تبعتني السيارة حتى توقَّفت على مدخله.

تقدَّم الرجل نحو قريبي الذي كان يساعدني في إفراغ عبوات الزيت، لظنّه بأنّه هو الدكتور الذي يبحث عنه، كون ثيابه أقل اتّساخاً من ثياب العمل التي كنت أرتديها، وعرّف عن نفسه كعنصر من مفرزة المخابرات الجوية بطرطوس، فأحاله القريب إليّ.

طلب العنصر لقائيَ منفرداً، وبقي زميله واقفاً على أتمِّ استعدادٍ، ويده على مسدّسه المرئي بوضوح على خصره! أبلغني العنصر بضرورة مراجعة فرع المخابرات الجوية في اللاذقية صباح اليوم التالي، وطلب مني التوقيع على ورقة التبليغ، مضيفاً بأنني سأجد فاكساً باسمي عند مراجعة الفرع المذكور، وسأتحمل المسؤولية كاملةً إن لم أحضر غداً.

حين استفسرت عن الأمر، قال العنصر بأنّ ثمة تقارير حولي، منها ما يتحدّث عن أنني أرفع علم الثورة على سطح بيتي، وثمة صورة تؤكد ذلك! علاوة على أمر آخر يتعلق بسكني في بيت صديقي بدمشق. لم يكن عنصر الأمن وديّاً في حديثه، وأصرَّ على أن يسمعني تهديداتٍ

مبطَّنة. كنتُ تعباً، تحدّثت معه بشيء من العصبية، فقد استفزتني تهمة رفع العلم؛ لما تتضمَّنه من تحريض واضح.

في اليوم التالي سافرت إلى اللاذقية، وتوجهت إلى مقرِّ فرع المخابرات الجوية في المشروع السابع. لم أكن خائفاً، ولم تصبني تلك القشعريرة المقيتة التي لازمت اقترابي من هذه الأماكن في استدعاءات سابقة، فما الذي يمكن أن يحدث؟ حتى الموت أصبح سخيفاً ومبتذلاً. ما كان يقلقني هو ذلك الفشل الكبير على كافة الصعد، واستمرار الموت والدمار وسط صمت العالم.

كان ثمة شابٌّ في مكتب الاستقبال يتحدّث إلى امرأة ترتدي جلباباً أسود في العقد الرابع من العمر. سألت المرأة الشاب عن سبب عدم خروج ابنها المعتقل رغم صدور مرسوم العفو الرئاسي الأخير، أجابها الشاب أنّ الابن السجين قد طلبته جهة أمنية أخرى للتحقيق، وسيتم الإفراج عنه لاحقاً! أراحني التصرف الطبيعي للشاب مع المرأة، ولم أكن قد رأيت مثل هذه المعاملة عند المثول للتحقيق في المرات السابقة.

حين استفسر الشابّ في مكتب القبول عن أمري، قلت له بأنني معارض سياسي، ومطلوبٌ بسبب تقارير. اندهش الشاب لهذه الجرأة، حدّق في وجهي لثوانٍ، ثم رفع سماعة الهاتف مبلغاً عن حضوري. وصل المحقِّق بعد لحظات وطلب لي كرسياً، ريثما يتفرَّغ للتحقيق معي.

بعد حوالي الساعة، قادني أحدهم إلى غرفة صغيرة تحتوي على أرائك من الجلد الممزَّق. جلس المحقق بلباسه العسكري، بلا رتبة، وراء الطاولة، وشرع يقرأ في أوراقٍ أمامه.

كالعادة، بدأ المحقق باستعادة سيرة حياتي منذ الولادة، بما فيها كافة مراحل التعليم، ثم الوظيفة والفصل منها، وصولاً إلى الوضع الحالي. تمحور التحقيق حول المعارضة الداخلية والخارجية وموقفي وعلاقاتي. سألني المحقق عن بعض الأشخاص، لكنْ من دون تفاصيل محرجة، وعبّر، بدون مناسبة، عن ارتياحه لموقف روسيا وفيتواتها في مجلس الأمن، واصفاً الرئيس الروسي بوتين بـ "بو علي تين"، فيما حاولت إخفاء شعوري بالاشمئزاز!

أخيراً، كان عليّ إعادة كتابة التحقيق الذي أجراه المحقق معي. وبعد أن قرأ المحقق ما كتبته، أضاف إليه أنّ الجيش يحارب "عصابات إرهابية"، ثم جاء بورقةٍ مطبوعة فيها جمل فضفاضة حول "الإصلاحات" التي قاموا أو يعتزمون القيام بها للخروج من "الأزمة"، وطلب مني التوقيع عليها، فسألته مبتسماً:

– أين تمَّ تطبيق هذه الإصلاحات التي سأوقع عليها؟ وما الذي تغيَّر؟

أجاب المحقق بتعب:

– في حال حصلت، هل أنت معها؟

قرّرت التوقيع؛ لأن المحقق يريد أن يثبت أنه قام بعمله فحسب، ولا معنى لوجودي في عهدة المخابرات الجوية إن كان التوقيع على هذه الورقة، التي لا تلزمني بشيء عملياً، سيخرجني من هذا المكان.

أعطاني المحقِّق هويتي وترك لي الخيار لمراجعتهم إن أحببت، كما يفعلون دائماً في مثل هذه الحالات، ولم أجب بشيء. ركض الشاب الذي كان في استقبالي وودعني، ويبدو أنني تركت لديه انطباعاً جيداً خلال الدقائق التي قضيتها في مكتب الاستقبال، فيما كان زميله الآخر ينظر إليّ بما ينمّ عن شعورٍ بحبِّ الانتقام، مستغرباً خروجي من الفرع بعد عدة ساعات فقط. في كل الأحوال كان الباب الخارجي قد فُتِح، فانطلقت لا ألوي على شيء!

١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢

اتصل بي نائب السفير الإيراني بدمشق يدعوني لحضور مؤتمر الحوار الوطني السوري الذي تنظِّمه الحكومة الإيرانية في طهران، وعرض عليَّ خدماته لتذليل العقبات المتعلقة بسفري، منها تأمين الحصول على جواز سفر والخروج من المطار! ومع أنّي طلبت منه مهلة ٢٤ ساعة، متظاهراً بالحاجة للتفكير في الأمر، فإنّ قراري كان قد اتُّخذ سلفاً بعدم المشاركة في أية لقاءات إقليمية أو دولية في هذه المرحلة، والتي قد يُفهم منها اتِّباع أجندات الدول المنظِّمة لمثل هذه المؤتمرات. وهكذا، حين عاود نائب السفير اتصاله بعد انقضاء هذه المدة، اعتذرت منه عن الحضور، متذرعاً بظروف خاصة.

٧ أيار/ مايو ٢٠١٣ ، رائحة الموت

بعد أشهر من الانكفاء واليأس، والحد الأدنى من العلاقات الاجتماعية، هزّني ما حصل في قرية البيضا ومدينة بانياس[٢٥٣]، حيث قامت قوى غير نظامية من اللجان المحلية و"الدفاع الوطني" بهجوم راح ضحيّته العشرات من الأبرياء، كما حُرقت عشرات المنازل أيضاً. كان لا بد من فعل شيء، ومواساة من نكبوا في هذا العمل البربري.

لم تكن هذه المجزرة هي الوحيدة في هذه الحرب، ولن تكون، فقد قام/ اتُّهم أنصار النظام بارتكاب العديد من المجازر[٢٥٤] التي راح ضحيتها المئات في مختلف المدن والبلدات

---

[٢٥٣] روت لنا إحدى الناجيات من مجزرة رأس النبع في بانياس، في أثناء توزيعنا لمواد الإغاثة في مركز الهلال الأحمر، أنّ حواجز الجيش الثابتة في المدينة ساعدتهم على الفرار بأن غطتهم بالنيران وطلبت منهم الانحناء والزحف.

٢٥٤ على سبيل المثال لا الحصر:

السورية المنتفضة، كما اتّهم/ قام التكفيريون بمجازر وأعمال خطف بحق المدنيين في حربهم ضد "النصيرية!"[255] انطلاقاً من فتاوى طائفية بغيضة.

استيقظت ابنتانا منذ الصباح الباكر لتجمعا من حاجاتهما حقيبةً من أجل المنكوبين، وسالت دموعهما معاً حين أخبرتهما مساءً حول الأمر، بمقدار ما سمح به استيعاب الطفلتين. قدتُ سيارتي إلى مدينة طرطوس، التقيت هناك بعدد من الناشطين والناشطات الذين نظموا حملة إغاثةٍ من خلال جمعية العاديات وبمساعدة الهلال الأحمر. حضر عناصر المخابرات لتسجيل بيانات هوياتنا، ثم انطلقت القافلة محملةً ببعض السلع الضرورية، التي تم جمعها بصورة عينية أو شراؤها من التبرعات، ورافقتنا عدة سيارات تحمل مساعداتٍ أخرى مقدَّمة من الهلال الأحمر.

في مركز الهلال الأحمر ببانياس تم توزيع المساعدات على المتجمعين. لم تكن قد مضت عدة أيام على المجزرة[256]، وارتسمت على الوجوه ملامح من الوجوم والحيرة والرعب. غرق الرجال في الصمت، فيما لم يكن بوسع النساء كبح ألسنتهن رغم الخوف، فتحدّثن إلينا عمّا حصل في حيّ رأس النبع ببانياس، وعن البيوت التي تم حرقها والجرحى الذين لم يكن بالإمكان إنقاذهم بسبب عدم استقبالهم في المستشفيات. اختلط البكاء بالكلمات والاستغراب، وشاركت الناشطات اللواتي يرافقننا النسوةَ بذرف المزيد من الدموع.

- مجزرة كرم الزيتون، وقعت في في ٢٠١٢/٣/١١.
- مجزرة داريا، وقعت في الفترة بين ٢٠ – ٢٥ أغسطس ٢٠١٢م في مدينة داريا بريف دمشق.
- مجزرة الحولة، وقعت يوم ٢٥ مايو ٢٠١٢م في قرية الحولة بريف حمص.
- مجزرة القبير، وقعت يوم ٦ يونيو ٢٠١٢م في قرية القبير قرب مدينة حماة. **http://www.sasapost.com/syrian-army-massacres/**
- في ٢١ /٢٠١٣/٨ ارتُكبت مجزرة الكيماوي في غوطة دمشق، والتي راح ضحيتها المئات من المدنيين وبخاصة الأطفال. أكدت لجنة الأمم المتحدة المشكلة للتحقيق في القضية استخدام السلاح الكيماوي لكنها لم تحمل أي طرف المسؤولية. http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2013/08/130821_syria_many_killed_chemical_weapons
- .... الخ.

[255] مثل:

- مجزرة قرية عقرب في الريف الغربي الجنوبي لمدينة حماه في ٢٠١٢/١٢/١١، http://www.yemeress.com/aljnoobmedia/57216
- مجزرة قرية معان بريف حماه بتاريخ ٢٠١٤/٢/١١، assafir.com/Article/337428/RelatedArticle
- وفي ٦/٨/ ٢٠١٣ هاجم متطرفون إسلاميون (أحرار الشام وجبهة النصرة) ٨ قرى آمنة في الريف الشمالي لمدينة اللاذقية فارتكبوا المجازر بحق المدنيين واختطفوا عشرات النساء والأطفال. http://www.alhadathnews.net/archives/93331
- مجزرة اشتبرق، جسر الشغور، ٢٥ نيسان ٢٠١٥. al-akhbar.com/node/231746.
- مجزرة الزارة، ريف حماه، ١٣ أيار ٢٠١٦ www.al-akhbar.com/node/257784 .. الخ.

[256] بدأت العملية صباح يوم الخميس في ٢/٦/ ٢٠١٣.

بقي القرار الأصعب، ألا وهو الوصول إلى قرية البيضا المنكوبة والمعزولة نسبياً[٢٥٧]. قدت سيارتي بصحبة صديق وثلاث شابات[٢٥٨]، ورافقتنا شاحنة صغيرة محمّلة بالمساعدات. تخطينا الحواجز العسكرية والأمنية، رافعين راية الهلال الأحمر وملصقات جمعية العاديات بطرطوس، حتى وصلنا إلى كنيسة قرية "المران".

توقفنا في باحة الكنيسة، التي كانت تعجُّ بالنساء والأطفال، قدمنا لهم بعض ما لدينا، وسلّمتُ إحدى النسوة ما قدمته طفلتيّ من ألبستهما وأحذيتهما وألعابهما للطفلات النازحات من بيوتهنّ. عمل القيّمون على الكنيسة ما في وسعهم لإغاثة منكوبي قرية البيضا وتقديم الطعام والحاجات الأساسية إليهم.

توجهنا بصحبة عدة أشخاص إلى ساحة قرية البيضا، منهم شيخ القرية الجديد، الذي حلَّ مكان شيخ الجامع الشهيد السابق[٢٥٩]. بدت القرية خاليةً ومقفرة بعد حرق حوالي ربع بيوتها، ولم تبدُ آثار معركة عنيفة، باستثناء بعض الطلقات الرشاشة التي أصابت عدة منازل في مدخل البلدة.

أبلغنا شيخ القرية بأنه دوَّن أسماء ١٤٦ شاباً وصبياً، ثم صلى عليهم، وتمّ دفنهم في مقبرة جماعية، فيما فرَّ حوالي ٧٠٠ شخص إلى البساتين المجاورة، وما زال العديد منهم في عداد المفقودين. أضاف الشيخ بأن مراجعاته للدوائر الأمنية في اليومين التاليين للمجزرة لم تسفر عن معرفة مصير المفقودين، وأنهم طلبوا منه التريث والانتظار. في هذه الأثناء، كان قد تجمع حوالي عشرون رجلاً وفتىً حولنا، وجلُّهم لم يكونوا موجودين وقت المجزرة.

انقسمنا إلى مجموعتين، اتجهت كل منهما إلى حارة من حارات القرية للاطلاع على الوضع عن كثب. كان دليلَ مجموعتي شابٌ جامعي يدرس الهندسة، كان قد نجا بسبب اختبائه تحت "الصوفا" في حين قُتل أخوه في العملية، كما قال. دخلنا البيوت ووجدنا آثار الأواني والحاجات المحروقة. عزّينا كلّ مَن صادفناه من الأهالي، الذين كانوا ما يزالون في مرحلة الصدمة، وقال أحد مرافقينا بأن "الوضع ما قبل مجزرة البيضا لن يكون على حاله بعدها."

قبل المجزرة بأيام، كان أحد قادة ميليشيا "الدفاع الوطني[٢٦٠]" قد هدّد، في شريطٍ مصوَّر، المسلحين في هذه القرية، وظهر برفقته بعض الأشخاص، منهم رجل دين أيضاً[٢٦١].

---

[٢٥٧] في هذه الزيارة، سمعت من مصادر عدة، أهلية ومن الجيش والأمن العسكري، بأن جماعات "الدفاع الوطني" هم من قاموا بالمجزرة، وأن الأوامر صدرت من القيادات العليا في الجيش ليلاً للانسحاب من القرية، وهذا يعني أنهم لم يكملوا مهمّتهم!

[٢٥٨] شكلت بعض الفتيات من حي القصور، ذي الأغلبية العلوية، جمعيةً أسمينها "تواصل" من أجل إغاثة جيرانهم المنكوبين، وكنّ أول من وصل إلى حيّ رأس النبع لإسعاف المصابين، وتعهدن أمامنا بمتابعة موضوع قرية البيضا قدر الإمكان.

[٢٥٩] الشيخ عمر البياسي الذي استشهد في المجزرة.

[٢٦٠] ع. ك. قائد ميليشيا "المقاومة السورية".

في الواقع، كان من المتوقَّع أنّ فتح أية معركة عسكرية[٢٦٢] في منطقة الساحل سيتسبَّب بانتقام رهيب، إذ كان يجري تمرير التحذيرات بين وقت وآخر، ليس في بانياس فقط، بل وفي كل المدن الساحلية، بخاصة بعد احتدام الصراع في باقي أنحاء سوريا.

بالطبع، لا يمكن تبرير هذه الجريمة البربرية على الإطلاق، لكن، في ذات الوقت، لا بدّ من إدانة سلوك هؤلاء المسلحين المغامرين الذين لم يدركوا خطورة الوضع على المدنيين العُزَّل في مثل هذه الظروف.

***

في ٢٥ أيار/ مايو ٢٠١٣ عدنا إلى قرية البيضا، ووزعنا المساعدات بمؤازرة الهلال الأحمر أيضاً. اجتمعنا في ساحة البلدة مع مجموعة من الأهالي الذين كانوا قد استعادوا رشدهم بعد هول الصدمة، ومن ضمن ما سمعناه أن أحد عناصر الأمن العاملين هناك قام قبل المجزرة بأيام بتوزيع السكاكر في ساحة البلدة بعد أن رُزق بصبي، وذلك كإشارةٍ لعدم علاقة هؤلاء بما حدث وتحميل المسؤولية الكاملة لعناصر "اللجان الشعبية." كما حدَّثنا عسكري على أحد الحواجز أنهم شاهدوا النيران تندلع ليلاً في بيوت القرية فأبلغوا قياداتهم العسكرية، وبعد ساعتين انسحب المسلحون، وكانت الساعة حوالي الثانية بعد منتصف الليل.

كان ثمة إصرار على تحميل "اللجان الشعبية" من القرى المجاورة المسؤولية، ومع أنهم هم بالفعل مَن ارتكب المجزرة، فقد أراد الأهالي تطمين أنفسهم والحصول على بعض الأمان من خلال الإيحاء بأنّ ثمة قوى نظامية، بخاصة الجيش، يمكن أن تحميهم من هؤلاء "المنفلتين" الذين لم يهبطوا من كوكبٍ آخر بالطبع، وربما كانوا يؤدون في نهاية المطاف أدوارهم المرسومة لهذه الدرجة أو تلك!

في ختام جولتنا، زرنا كنيسة قرية البيضا على منحدر حادٍ أعلى القرية. صادف ذلك وصول شاحنة تنقل مساعدات من جمعية خيرية مسيحية في حلب، ولم يتوقّف العاملون في هذه الكنيسة أيضاً عن مساعدة جيرانهم في القرية منذ اللحظات الأولى للمأساة.

مؤتمرات الطوائف؛ مؤتمر "كلنا سوريون" في القاهرة[٢٦٣]

---

[٢٦١] www.youtube.com/watch?v=9AVi87aRnuc.

[٢٦٢] قبل يومين من المجزرة، هُوجمت حافلة تقل عناصر من اللجان الشعبية فقتل وجرح حوالي ثلاثين عنصرا منهم. http://en.trend.az/world/arab/2146620.html

[٢٦٣] **http://orient-news.net/?page=news_show&id=2614**

عملت قوى الإسلام السياسي، مدعومةً من قبل حلفائها الإقليميين، على صبغ الصراع في سوريا بصبغةٍ طائفية وتحويله إلى صراعٍ أهلي، مستندةً إلى مفهوم الغلبة العددية الطائفية والتحريض الشعبوي، وذلك من أجل تسلّقهم على آلام البسطاء ودمائهم، وتشييد بنيان استبدادي جديد، بعيداً عن روح المواطنة ومصلحة الشعب السوري بكامله في الانتقال إلى الدولة المدنية الديمقراطية.

منذ تشكيل "المجلس الوطني"، كتعبير سياسي مزعوم عن الثورة السورية، عمل المتحدثون باسمه على زرع بذور التفرقة بين السوريين. ونزولاً عند طلبات السفراء الأجانب، حاولوا تلوين بنيتهم السياسية، التي يهيمن عليها الإسلاميون، بمزقٍ من الأقليات؛ أي بأشخاص يتبعونهم كعملاء، لينسجم ذلك مع تبعيتهم للدول الإقليمية والأجنبية. في هذه الأثناء، اتَّخذ الصراع في سوريا مظهراً طائفياً خادعاً، إذ لم يكن في الواقع سوى صراع مصالح لدول إقليمية تستخدم المكونات السورية لتحقيق مآربها، وقد تنبَّه معظم السوريين إلى خطر التحريض الطائفي من كافة الأطراف.

في هذه الضبابية السياسية، تم إقناع بعض أبناء الأقليات بتشكيل كيانات طائفية لتبرِّر طائفية الإسلاميين. ولأنّ معظم المثقفين "العلويين" هم من العلمانيين، فقد سموا مؤتمرهم "كلنا سوريون" كحالة توفيقية، متغافلين، بحججٍ واهية[٢٦٤]، عن حقيقة أنّ حلول المشاكل الطائفية لا يمكن أن تكون إلا بالمواطنة، وبلا مواربة.

رفضت حضور هذا المؤتمر، الذي انعقد بتاريخ ٢٥ آذار/ مارس ٢٠١٣، ودخلت في حواراتٍ مريرةٍ رفضاً لهذا التوجه القاضي بعقد مثل هذه المؤتمرات الطائفية أو شبه الطائفية، خاصة بعد أن خبرتُ طائفية متأسلمي المعارضة وأتباعهم من الليبراليين والعلمانيين الباحثين عن فتات الشهرة والمال. عُقد المؤتمر بنسخته الثانية في اسطنبول بتاريخ ١١/١٢/ ٢٠١٣، وأصدر بياناً أكثر تواضعاً[٢٦٥].

صدر في نهاية المؤتمر بيانٌ عبّر عن "ضرورة إخماد الحريق السوري أولاً، ومن ثم إسقاط النظام مهما كانت التخوفات من البديل القادم (!) وتوجه المؤتمرون إلى السوريين جميعهم لإنقاذ سوريا، بخاصة إلى القادرين منهم على الفعل، وحثوا الجيش على الإجهاز على عصابة الحكم الفاسدة، والموالين للابتعاد عن النظام، والمعارضة لوقف سفك الدم والتعاون من أجل إسقاط النظام، وأنّ سوريا القادمة لن تكون إلا على جثّة هذا النظام." إنها مجموعة من جمل اللغو السياسي التي تفتقد لآليات تحققها!

[٢٦٤] منها مثلاً القول بأنّ سورية تحتاج إلى عقد جديد لمكوناتها كما حدث عام ١٩٣٦ إبان الانتداب الفرنسي، حينما تشكلت سوريا الحالية من الدويلات التي أنشأها الفرنسيون؛ أي دويلات حلب ودمشق والدروز والعلويين. لاحقاً، فطن معظم المشاركين في هذا المؤتمر، بنسختيه، إلى هذه "اللعبة"، ماعدا بعض المنتفعين من مثل هذه الارتباطات، والذين أصبحوا تحت رعاية المخابرات التركية بصورة سافرة (باعتراف إحدى المشاركات)، وعقدوا مؤتمراً آخر في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٥ http://lebwindow.net/177780.

[٢٦٥] وردت في البيان الختامي، هذه المرة، شكوك حول "إمكانية توحيد الجيش الحر مع الكتائب الاسلامية؟" وأن "بعض الأطراف تريد تدمير سوريا من خلال إنهاء حالة الجيش الحر بقوة بعض الإسلاميين وداعميهم." وهكذا تغيرت لهجة المؤتمِرين بصورة واضحة في أقل من سنة، كأنهم قد استيقظوا من غفلتهم، وقد تحقّقت معظم هذه التخوفات بالفعل، وبسرعة قياسية http://syria-nass.com/?p=7633.

تلك الرصاصات "الطائشة!"

في الأول من حزيران/ يونيو ٢٠١٣ كنتُ أقود سيارتي على مشارف مدينة الدريكيش حين دوّت، على حين فجأة، عدة طلقات نارية، تلاها صوت ارتطام قوي في سقف السيارة، فوق رأسي تماماً. التفت إلى الوراء لأطمئنّ على طفلتيّ في المقعد الخلفي، فاختل توازن السيارة وخرجت عن الطريق. استعدت التوازن بصعوبة وتابعت القيادة بسرعة، بعيداً من المكان، وعدت إلى البيت من طريقٍ آخر. حين ترجّلت من السيارة، وجدت أنّ ثمة طلقةً بندقية كلاشينكوف قد اخترقت سقف السيارة بصورةٍ مائلة واستقرت داخل السقف.

حتى الآن، لا أعرف إن كان ما حدث مجرّد صدفة؛ بسبب فوضى استعمال السلاح أم أنه أمر آخر؟ في كل الأحوال لم يكن ثمة من مهرب، استسلمت لقدري وتابعت حياتي، وكأنّ شيئاً لم يكن، لكنّي بقيت أتحرك وحيداً في السيارة لعدة أشهر. كان ثمة أكثر من سبب يمكن افتراضه لما حدث، بيد أنني عقدت العزم أن أبقى في الحطام السوري مهما حصل، انسجاماً مع مواقفي وقناعاتي!

قبل عدة أيام من هذه الحادثة، عرّجت لزيارة أحد زملاء [٢٦٦] الدراسة من الأطباء في عيادته بمدينة طرطوس. استقبلني الزميل بارتباك وخوف، على غير عادته، وطلب مني، وهو يلتفت في كل الاتجاهات، أن أتوارى وأكبح نفسي، فـ "الأمور خطيرة جداً" كما قال، ولم يقدّم لي أية إيضاحات إضافية. ما الذي كان يحدث يا تُرى؟

١١ حزيران/ يونيو ٢٠١٣، تشكيل الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة

في هذه الأثناء، وصل "المجلس الوطني" إلى طريق مسدودة، ولم تعد كافة وسائل التلميع قادرةً على تجميل صورته، التي لا تشبه سوريا في شيء، فتم تشكيل الائتلاف الوطني السوري، بالتنسيق بين صديقي والسفير الأمريكي السابق في دمشق "روبرت فورد"، كما تناقلت الأخبار.

---

[٢٦٦] سُجن صديقي هذا ظلماً لثلاث سنوات بسبب مواقفه ضد الفساد، منها ثمانية أشهر في زنزانة منفردة، وتحلّى طوال حياته بموقفٍ أخلاقيّ كإنسانٍ وطبيب، بيد أنه خضع، بعد خروجه من السجن، وربما تحت ضغط الوحدة واليأس، لتأثير بعض المنافقين من مُدعيّ التدين، فزادت غربته غربة، لكن، ربما، منحه ذلك بعض السكينة والخدر. كان صديقي هذا قد أسرّ لي، في محاولة لإظهار فضل التديّن عليه، بأنّ ما أبقاه حياً في رطوبة الزنزانة هو قراءة كتابي القرآن ونهج البلاغة، وقد هرَّبهما له أحد السّجانين.

لم تتبدل هيكلية "المجلس الوطني" ولا طبيعة ارتباطاته، فحمل الائتلاف الجديد إشكالات "المجلس الوطني" وأضاف إليها إشكالاتٍ جديدة، منها دخول السعودية، من خلال كتلة الجربا- كيلو "الديمقراطية[٢٦٧]"، بقوة على خطّ النفوذ القطري- التركي، الذي احتكر السيطرة على "المجلس الوطني" منذ نشأته.

بقيت المعارضة التي يمثلها الائتلاف على حالها، من حيث قلة فعاليتها على الأرض، واحتدام التناقضات البنيوية، سواء بين أطرافها أو بين الدول والمصالح التي ساهمت في تشكيلها. الفرق السياسي الأساس بين المجلس والائتلاف كان التفكير بطريقة ما لحلّ الصراع السوري، بعيداً عن آمال تكرار الحالة الليبية[٢٦٨]، التي قام على أساسها "المجلس الوطني" السابق كتقليدٍ للمجلس الوطني الانتقالي المؤقت الليبي[٢٦٩].

المدنيون بين فكيّ كماشة المتحاربين

اضمحلّ الفرق تدريجياً بين ممارسات الطرفين المتصارعين؛ فكلاهما يستعملان ما لديهما من أسلحة بلا تردُّد، فيما عَلِق المدنيون بين تقاطع النيران[٢٧٠]وفرّوا إلى أيّ مكانٍ آمنٍ، نسبياً. استخدمت الفصائل المسلحة القذائف البدائية والتفجيرات بالسيارات المفخخة ضد المراكز العسكرية والمدنية على حد سواء، فيما استخدم النظام البراميل المتفجرة شبه العشوائية[٢٧١] لإمطار المدن التي يحتشد فيها المسلحون، وفي كلتا الحالتين، كان جلّ الضحايا من المدنيين.

أزمة الترسانة الكيماوية السورية

[٢٦٧] اتحاد الديمقراطيين السوريين: عقد مؤتمره التأسيسي في ٢٨ و ٢٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣ وانتخب السيد ميشيل كيلو رئيساً له.

[٢٦٨] انظر:
http://www.crisisgroup.org/~/media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/Iraq%20Syria%20Lebanon/Syria/146-anything-but-politics-the-state-of-syria-s-political-opposition-arabic.pdf

[٢٦٩] تشكل في ٢٧ شباط/ فبراير ٢٠١١ بعد عشرة أيام من اندلاع الثورة الليبية.

[٢٧٠] عبر أحدهم بسخرية عما حدث له في هذه الحرب المجنونة:
(أنا من إحدى بلدات محافظة إدلب وأسكن في حي الزراعة باللاذقية منذ ثلاثين سنة. في إحدى المرات، سقط صاروخ على منزل العائلة في البلدة ودمره، فجاء في الشريط الإخباري للإخبارية السورية، "تدمير أحد الأوكار الإرهابية في..."، قلت لزوجتي: ها قد أصبحنا إرهابيين يا امرأة. بعد عدة أشهر، سقط صاروخ على مدخل بنايتنا في حي الزراعة باللاذقية، ولم تمضِ دقائق حتى كان إعلام محطة أورينت "الثوري" يبث: "الثوار يدكون معاقل الشبيحة في حي الزراعة باللاذقية"، عندها قلت لزوجتي: وها قد أصبحنا الآن شبيحة يا امرأة، ومن حسن الحظ إننا أنجبنا أولادنا قبل "الأزمة/ الثورة" وإلا لكانوا "بدون" أو...!).

[٢٧١] لم يخل الأمر من بعض المفارقات؛ حدثني أحد أبناء المنطقة بأن أحد الطيارين، وهو من قرية علوية مجاورة، كان يرمي البراميل المتفجرة في مقلع حجارة مهجور بريف إدلب حتى انكشف أمره.

بعد توجيه التهمة للنظام بارتكاب مجزرة الكيماوي في ريف دمشق، صعَّدت الإدارة الأمريكية من لهجتها وهددت بضرب مراكز قوى النظام، فما كان من وليد المعلم، وزير خارجية النظام، إلى أن طار إلى موسكو، معلناً من هناك قبوله بتسليم الأسلحة الكيماوية وما يتعلق بها[٢٧٢]. كان التخلُّص من الترسانة الكيماوية السورية هدفاً ملحاً للإسرائيليين والأمريكيين، ولم يفوتوا هذا الهجوم الكيماوي لتحقيق هدفهم. اتّضح، وبما لا يقبل الشك، بأنّ النظام لا يفهم غير لغة القوة. في ذات الوقت، كانت إسرائيل تراقب من مراصدها في هضبة الجولان تلك الوقائع المتسارعة على الأرض السورية، وكأنها في حلم جميل!

من جرائم التكفيريين

زحف التكفيريون في كل اتجاه، قتلوا الحياة والرموز والتماثيل[٢٧٣]، وساهموا في إعادة سوريا إلى عهد البربرية، وردّوا على الجنون "العصري" بجنونهم الغابر. كم هالني قتلهم لأحد الأطباء[٢٧٤] الذي كان طالبي في جامعة حلب خلال العام الدراسي ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥، بتهمة علمانيته! عمل الطبيب بعد تخصصه في الجراحة العظمية في مستشفى تابع لمنظمة أطباء بلا حدود بريف حلب الشمالي، ووجدت جثته بتاريخ ٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣ مرميةً في العراء قرب المستشفى الذي عمل فيه. كان الراحل قد أرسل لي عدة رسائل[٢٧٥] تحدّث فيها عن أولئك الغوغاء الأجانب الذين يدخلون إلى الجوامع ويكفِّرون الأفراد والجماعات، انطلاقاً من فتاوى تاريخية لم تجلب للمسلمين سوى الفتن.

كان الشهيد محمد من أكثر الطلبة قرباً منّي، وطرح عليَّ الكثير من الأسئلة الاجتماعية والسياسية بكل لطفٍ وتهذيب، كما كان متديناً سمحاً ولا يستفزّ مخالفيه في الرأي. لاحقاً، أوضح لي بعض أصدقائه أنّ ثمة من حرَّض عليه من زملاء الدراسة، ليلقى مصيره المأسوي هذا!

[٢٧٢] تم توقيع الاتفاق بين النظام والمجلس التنفيذي لمنظمة حظر الأسلحة الكيماوية بتاريخ ٢٠١٣/٩/٢٧، والذي تبناه مجلس الأمن بالقرار رقم ٢١١٨.

[٢٧٣] في الإشارة إلى تحطيم تمثال المعري في ١١ شباط/ فبراير/ ٢٠١٢، وكان ذلك مجرّد بداية! ومع ذلك، اجتهد "مثقفون" في التبرير؛ بالقول مثلاً أنّ التمثال ليس هو النسخة الأصلية، وكأنّ الظلاميون يهمهم نوع المادة المنحوت منها وليس الرمزية الحضارية لكل فكر وعقل! لم يستثنِ الانحطاط الأخلاقي الذي رافق الحدث السوري "إلاّ من رحم ربي"، وتسارع الانزلاق نحو الهاوية، في الوقت الذي كان فيه مئات آلاف السوريين يفرون، ليس إلى شعاب مكّة، إنّما عبر قوارب الموت، إلى حيث تُحترم كرامة الإنسان وحريته، مطلبهم الأساس الذي فجّر كل هذا الحضيض!

[٢٧٤] الدكتور محمد أبيض.
http://www.msf-me.org/ar/news/news-media/news-press-releases/msf-surgeon-killed-in-syria.html

[٢٧٥] للأسف، مرة أخرى، حال الحذف المتكرّر للرسائل بسبب المخاطر الأمنية دون الاحتفاظ بالكثير من المواد التوثيقية.

١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣

أعلنت معظم الفصائل المقاتلة عدم اعترافها بالائتلاف كممثل للمعارضة، وتشكلت "الجبهة الإسلامية" في سوريا في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣[٢٧٦]. ترافق ذلك مع تزايد متصاعد لدور الجهاديين من تنظيمي "داعش" و"النصرة" الإرهابيين.

باستثناء شعار إسقاط النظام، الذي استبدله لاحقاً شعار إسقاط الرئيس، سيجري القتال بدون سياسة. حتى هذا الشعار لم يكن يعني الكثير بالنسبة للجهاديين التوّاقين لبناء إماراتهم "الإسلامية" وممارسة استبدادهم الفصامي على أية بقعة من سوريا، سقط النظام أم لم يسقط! في ذات الوقت، تنامى تدخل حزب الله في سوريا، علاوة على عناصر إيرانية أو تلك التي تعمل بإشراف إيراني مباشر، ما أعطى الصراع مظهر حرب إقليمية سنية– شيعية، مع أنّ نتيجة الصراع لن تكون سوى تقاسم المصالح، والتي ستتحدَّد تبعاً لحجم التغيرات الجيوبوليتيكية في خريطة المنطقة.

متعلمون و"مثقفون"![٢٧٧]

في هذه الأثناء، حفلت مواقع التواصل الاجتماعي بانفلات غريزي طائفي، وتعمق الصّدع الاجتماعي كانعكاسٍ لحدّة الصراع على الأرض. كما وقع معارضون كُثر في فخِّ النظام بسبب تماثل منهجي التفكير، وليس لأنَّ النظام "جرّنا"[٢٧٨] كما كانوا يدّعون!

في كثير من الأحيان، اشتغل الطائفيون من المنتمين إلى فئات "المثقفين"، وبعضهم معروف على نطاق واسع، اشتغلوا بحماس لشيطنة الطائفة العلوية، فحصلوا على التأييد من قبل جمهور غرائزي، واستثمروه في ربح سريع، مضحّين بخراب "تجارتهم" المبنية على مثل هذه الأحقاد. لم يكن الأمر في مثل هذه الحال على المستوى الشعبي، وبقي ضمن الحدود المقبولة من التعايش، على سبيل المثال، ما إن كانت تنقضي فترة التعارف الحذر لوفود النازحين في

---

[٢٧٦] http://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=23112013&id=6be186ce-105e-47cd-802d-f8dc19b6bc49

[٢٧٧] في عام ١٨٩٩ ورد في رسائل الكاتب الروسي أنطون تشيخوف إلى أخيه: " ليس الحاكم وحده مذنباً، إنما الصفوة المثقفة بأثرها. وأنا لا أؤمن بالصفوة المثقفة، المنافقة، الكاذبة، المهووسة، قليلة الأدب، الكسولة، إنني أثق فقط في أشخاص بعينهم". http://diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=11114

[٢٧٨] تكررّت هذه العبارة "النظام جرّنا" على ألسنة معارضين كثر، التي قد تكون صحيحة على المستوى الميداني، لكن كم تبدو بائسة حين يتحدث بها سياسي معارض؛ لأنها تكشف شعبوية مثل هؤلاء المعارضين وتعاملهم في السياسة بردود الأفعال وانفصامهم عن الواقع، واستطراداً، عدم القدرة على التأثير فيه.

المناطق الساحلية، حتى يعيش الناس مع بعضهم بصورةٍ طبيعية. لعلّها أحد مفارقات الحالة السورية، حيث يتخلّف المثقفون عن الوعي الشعبي، أو أنهم يأخذون بأسوأ ما فيه ويعمّمونه[٢٧٩].

ظاهرة تخلُّف المتعلمين والمثقفين وتعصبهم، مقارنة بعامة الناس في سوريا، تستحق المزيد من الدراسة والتمحيص لاستجلاء هذه المفارقة؛ لعلّهم كانوا أكثر الفئات التي رضعت من ضرع ثقافة الاستبداد ومناهجها التعليمية المتخلّفة، فضلاً عن ركام مديد من ثقافة الخنوع المتجذِّرة في العقول، سواء تعلّقت بالتدين الطقوسي أو الباطني على حدّ سواء، ولم يشكل ما جمعته معظم "النُّخَب العلمانية"، من ثقافة عامة وكتابات استشراقية، أكثر من قشرة رقيقة لم تصمد أمام المحن.

مؤتمر جنيف ٢

بدعوةٍ من الأمين العام للأمم المتحدة انعقد مؤتمر جنيف ٢ في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤، وفشل في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في مؤتمر جنيف ١ فيما يتعلق، خاصةً، بتشكيل حكومة انتقالية واسعة الصلاحيات. للمرة الثانية لم تكن ثمة إرادة دولية لفرض الحلّ السياسي على الطرفين، لأن ذلك سيتطلّب توافقاً سياسياً روسياً– أمريكياً، وربما تدخلاً واسعاً على الأرض، الأمر الذي لم تكن الأطراف الدولية الفاعلة متفقةً عليه أو مستعدةً للقيام به، بما في ذلك التصدي للإرهاب بالجدية المطلوبة. أما النظام، الذي أغرته بعض الإنجازات العسكرية بدعم من حلفائه، فقد عاد للركض وراء سراب الانتصارات!

شباط/ فبراير ٢٠١٤، مخفر الشرطة

يُقال "الجار قبل الدار"، لكن ما العمل إن كان جيرانك يعتقدون بأنّ حياتك مستباحة باعتبارك تعارض النظام الذي يوالونه، وفي بلد لم تعرف أجيال فيها معنى المعارضة إلا كنبتة ضارة يجب اجتثاثها[٢٨٠]!

كنا قد دعونا صديقين عزيزين للعشاء حين افتعل الجيران مشكلة سخيفة، ووجب علينا العضّ على النواجذ والتظاهر بأنّ "الأمور طبيعية". وبعد ليلةٍ من القلقِ والأرق، قررت تقديم شكوى لمخفر الشرطة؛ لأن الأمور أوشكت أن تخرج عن السيطرة، وأنّ مقولة "داروا سفهاءكم"، التي نصحني بها صديقي المحامي، لم تعد تجدي نفعاً. اكتشفت أن جيراني قد سبقوني إلى

---

[٢٧٩] يحتاج هذا الأمر إلى بحث علمي رصين لتفحُّص طرائق التعليم السائدة في عهد الاستبداد، فضلاً عن المؤثرات الثقافية الأخرى.
[٢٨٠] جاء في نشيد بعثي: "أنا بعثٌ وليمت أعداؤه... عربي عربي عربي".

التشكي، مع تركيزهم على أنني جار معارض ولديّ "مشاكل مع الدولة"، التي هي السلطة بنظرهم!

ما أودُّ الإشارة إليه من هذه الحادثة هو أن المخفر انقسم إلى فريقين: فريق يريد أن يحل المشكلة من دون تصعيد وبقيادة رئيس المخفر[٢٨١]، وفريق ثانٍ كان متحفِّزاً للانتقام من المعارض.

هنا يكمن جوهر إحدى القضايا الرئيسة في سوريا، إذ أنّ الخلط بين مؤسسات الدولة السورية والتسلُّط الأمني عليها جعل السوريّ يكفر بهذه المؤسسات ويعتبرها مظهراً من مظاهر السلطة المستبدة وحسب، كما يشير، في الوقت ذاته، إلى أهمية التمسك بمؤسسات الدولة والعمل على تخليصها من براثن السلطة لتتمكّن من العمل بصورة طبيعية وقانونية. في هذه الحالة، تصرف رئيس المخفر بحيادية وقانونية؛ وقعنا على تعهدات متبادلة بعدم الاعتداء وحُلَّت المشكلة شكلياً.

مساعدة أم رشوى؟

في ذلك الحين، اقترح أحد أعضاء الائتلاف البارزين على إحدى صديقاتي أن تختبر ردة فعلي بخصوص تقديم مساعدة مادية. لم أعرف إن كانت تلك المساعدة مبادرةً شخصية من هذا العضو، أم من الائتلاف نفسه. مهما يكن فقد رفضتُ الأمر رفضاً قاطعاً، وقلتُ إنّ من يودّ الخير لي ولأسرتي يمكنه المساعدة في تأمين عملٍ شريف أعيش منه بتعبي وكدّي، وكنا نعيش وقتها، جزئياً، من أعمال الترجمة.

اخترنا، كأسرة، عدم الخروج من سوريا مادام ثمة مكان شبه آمن للعيش فيه، مع أنّ علاقاتنا، في أثناء وجودنا بدمشق، كانت تسمح بحصول مثل هذا الخيار كلجوء سياسي أو إنساني بسهولة. الأرض أرضنا، ومن بقي من هؤلاء الناس هم أهلنا، مهما حصل، ولا مبرر أخلاقي لعدم مشاركتهم معاناتهم اليومية[٢٨٢].

آذار/ مارس ٢٠١٤

[٢٨١] أصرّ رئيس المخفر، الذي كان يتحدّث بلهجة المناطق الشرقية من سوريا، على ممارسة صلاحياته دون الالتفات لما عداها، ووضع حداً للاستفزازات، فهل فعل ذلك انطلاقاً من مهنية وحيادية، أم أنه كان متعاطفاً معنا، كما ادّعى خصومه؟ الجواب ليس سهلاً لاستحالة التلميح أو التصريح بذلك، لكنّ الجوهري في الأمر أنه تعامل معنا كمواطنين، وضمن إطار القانون.

[٢٨٢] ربما كان لتجربة التهجير إلى دمشق، ومعاناتها على كافة الصُعُد، بما فيها ممارسات بعض أوساط المعارضة، دوراً مهماً أيضاً في اتخاذ مثل هذا القرار.

وصلتني رسالة على الفيسبوك من أحد رجال الأعمال المعارضين في الخارج، ينبهني فيها إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر عدة أيام؛ بسبب معلومات عن التهديد بتصفية معارضين في الداخل. شكرته وطلبت منه الانتباه لنفسه، ولم أحرك ساكناً!

في هذا الشهر أيضاً حصل هجوم مفاجئ وكبير على منطقة كسب في ريف اللاذقية الشمالي، فيما سميّ بمعركة "الأنفال"[٢٨٣]. كانت الأراضي التركية هي الخلفية الرئيسة التي انطلق منها المهاجمون، على رأسهم جبهة النصرة وأنصار الشام (بزعامة الشيشان المدعومين من تركيا)، ومن ثم تتابعت الكتائب ذات المسميات المختارة من قواميس التاريخ الغابر!

ظهر قادة "النصرة" و"أنصار الشام" على قناة الجزيرة وهددوا "النصيرية" بالطبع، فكان أن حصل تضامن اجتماعي ملموس لمواجهة المهاجمين الغرباء، وتطوعت النسوة لتحضير الطعام وإرساله إلى الجبهة، وتم استيعاب الهجوم خلال أيام. قطف النظام ثمرة جديدة في دعوى الحرب على الإرهاب، وخسرت المعارضة الطائفية الداعمة للكتائب الإرهابية جولةً أخرى في مساعيها لإسقاط النظام بوساطة منظمة "القاعدة" وتفريعاتها السورية.

بموازاة ذلك، تساقطت القذائف العشوائية على مدينة اللاذقية، كما على المدن الأخرى، وسقط بعضها في محيط منزلي، ما يذكِّر بقذارة الحرب، أي حرب. ثم تكيّف الناس، كعادتهم، وصار سقوط قذيفة يدفع بالقليل من المارّة للالتفات إلى مكان سقوطها، والمكابرة على الخوف أو محاولة استبطانه!

في يومٍ من أيام المعارك العنيفة، من أجل استكشاف الوضع عن كثب، ذهبت مع أحد الأصدقاء في جولةٍ على طريق كسب، ووصلنا إلى مقربة من سدّ بلوران. ما لفت انتباهي هو الخوف الذي كان يبدو على محيّا شباب في مقتبل العمر، سواء أكانوا على الحواجز أم أولئك المتجهين إلى جبهات القتال، خاصة وأن طبيعة البيئة تجعل الموت حاضراً في كلّ منعطفٍ وزاوية. كيف لهذه الغابات الساحرة أن تصبح مكاناً للحرب؟ وكيف ماتت الحياة في سوريا الجميلة وتدنّست أرضها بغزاةٍ من كافة الأصقاع؟ ومن مهّد الطريق لكلّ هذا الخراب والموت؟

أيار/ مايو ٢٠١٤

في ٣ أيار/ مايو ٢٠١٤ جرت "المصالحة" في حمص القديمة، وقد سبقتها عشرات المصالحات، بخاصة في ريف دمشق، وصمد معظمها بسبب وصول المعاناة إلى درجات

---

[٢٨٣] ٢٠ آذار/ مارس ٢٠١٣ www.youtube.com/watch?v=C-ngB4fOZOw
www.aljazeera.net/.../ما-سر-تحول-**الأنفال**-من

يصعب تخيلها[٢٨٤]. كان الأمر أقرب إلى الهِدن الحربية منها إلى المصالحات، وقد عجز المتقاتلون عن تحقيق نتائج حاسمة على الأرض، فوجد الاستعصاء مخارج له بهذه الطريقة.

وفي منتصف هذا الشهر، أصدرت الجبهة الإسلامية "ميثاق الشرف الثوري[٢٨٥]" الذي يتبنى مشروع الدولة المدنية عوضاً عن الخلافة، ورفضته جبهة النصرة. ربما كان ذلك ضرباً من استشفاف حرب قادمة ضد الإرهاب، فكانت محاولة من الكتائب "المعتدلة" للنأي بالنفس، ولو قليلاً، عن "النصرة" و "داعش." أثار الميثاق مزيداً من اللغط، إذ كيف لمن يتبنّى مشروع الدولة الإسلامية أو دولة الخلافة أن يجمع بينها وبين مشروع الدولة المدنية الحديثة، وما يفترضه ذلك من قبول الآخر؟

ومع أنه يجب الترحيب بمحاولة أمثال هؤلاء للخروج من شرنقة الأفكار المسبقة والانفتاح على العالم من حولهم، فإن مثل الانفكاكات والتحالفات لم تكن سوى انعكاس لإرادات الممولين الخارجيين في التراجع أمام الضغوط الدولية المتزايدة على تمويل الإرهاب، سواء أكانت مصادره دولاً، أو جمعيات تابعة لدول، أو مجموعات دينية أهلية[٢٨٦].

في ذات الوقت، اتسعت رقعة المعارك بين المسلحين، واندلعت حرب شرسة في ريف دير الزور بين داعش من جهة وجبهة النصرة والجبهة الإسلامية من جهة أخرى للسيطرة على آبار النفط في تلك المنطقة، وبالتالي ضمان مصادر تمويل العمليات القتالية والمشاريع السياسية المرتبطة بها، وستكون هذه المعارك بداية تمدُّد "داعش" وفرض نفسها كأقوى وأخطر تنظيم يعمل على الأراضي السورية.

٢٢ أيار/ مايو ٢٠١٤

وصلت قوات نظامية إلى سجن حلب المركزي وفكَّت عنه الحصار الخانق الذي استمر حوالي ١٣ شهراً. كان صمود المدافعين عن السجن، ملحمة تستحق الكتابة عنها كدراما بشرية معقدة وفريدة من نوعها، تشابكت فيها علاقات السجناء والسجينات وحامية السجن في الدفاع

---

[٢٨٤] جرت هذه المصالحة برعاية الأمم المتحدة. ربما تعود هذه المصالحات، جزئياً، لتخوف المتقاتلين السوريين من تزايد العناصر الأجنبية وتطرفها، وهذا ما لم يدركه من ينظر إلى المشهد من بعيد. في ٢٦ آب ٢٠١٦ حدثت مصالحة مشابهة في داريا، حيث تم نقل ٧٠٠ مسلح إلى إدلب بأسلحتهم الفردية ومع عائلاتهم، في حين تحول آخرون إلى اللجان الشعبية. مثّلت داريا رمزاً للثورة السلمية في الأشهر الأولى، ولم يدخل إليها المتطرفون الإسلاميون.

[٢٨٥] www.aljazeera.net/.../عبود-ميثاق-الشرف-الثوري-هدفه-إسقاط-نظام-الأسد

[٢٨٦] في مؤتمر الرياض المنعقد بتاريخ ٨- ١٠ ديسمبر ٢٠١٥، حضرت حركتا "أحرار الشام" و "جيش الإسلام" وصدر البيان النهائي الذي تضمن الكلام عن مفهوم الدولة المدنية الغامض، ولم يتّضح إن وافقت الحركتان عليه أم لا، لكن من المؤكد أنهما تعرضتا لضغوط من الطرف المضيف بعد تهديدهما بالانسحاب.

عن النفس واقتسام كل كسرة خبز، وتحدي الموت من أجل سحب بعض الذخائر أو أرغفة الخبز التي أسقطتها الطائرات في محيط السجن.

كانت حالة الحصار هذه واحدة من حالات حصار كثيرة ومأسوية عانى فيها، على نحو خاص، المدنيون في العديد من البلدات والمدن، والتي لم يكن لهم فيها أيّ خيار في زمن سطوة السلاح بكافة ألوانه وأشكاله.

حزيران/ يونيو ٢٠١٤، انتخابات رئاسية جديدة ولا جديد

لم يكن ترشيح سوريَّين اثنين إلى جانب الرئيس لخوض الانتخابات الرئاسية في هذه الظروف[٢٨٧] سوى خطوة روتينية، اللهم إلا فيما يتعلق بتخفيض النسبة المئوية التي سيفوز فيها الرئيس!

بدا الانتخاب الصوري مفارقة تاريخية مؤلمة في الوقت الذي كان فيه نصف السوريين مهجرين في الداخل والخارج، ومؤشراً لاستمرار الأمور في الانزلاق نحو الهاوية، وجرعة مُسكرة إضافية، وتشويهاً آخر لكلمة الديمقراطية، ذلك من ضمن عملية التزييف التاريخية التي طالت الكثير من القيم والمصطلحات والكلمات.

ربما دفع اليأس بقسم من السوريين؛ بسبب عدم تبلور بديل مقنع والانفلات الأمني المعادي لمفهوم الدولة، للذهاب إلى الانتخابات. بالطبع، يصعب التحقق موضوعياً من أي شيء حول هذا الأمر أو غيره، طالما لم يتم إجراء استبيانات موثوقة. الثابت هو استنقاع الحالة السورية وتحولها إلى حرب عبثية متعددة الأطراف، وغياب الحلول التي تصبّ في مصلحة السوريين.

في تلك الأيام، عدتُ للانعزال في بيتي بالدريكيش، محاطاً بغمامة من الإحباط واليأس. زاد من شعوري هذا تفاقم إصابتي المفصلية التي حدَّت كثيراً من حركتي، فكنت أتجوَّل في الجوار مستنداً على عكازي، وأريح عينيَّ من خلال النظر في المدى الأخضر الجميل.

العصر الداعشي!

[٢٨٧] أُجريت الانتخابات في ٣ حزيران وأعلنت النتيجة في اليوم التالي. فاز الرئيس بشار الأسد فيها بنسبة تفوق ٨٧%. بعد ذلك سادت هيستيريا حقيقية وإطلاق نار في المناطق التي يسيطر عليها النظام، بما يشبه الرقص فوق أشلاء سورية وجثث أبنائها، دون أي وعي للمستنقع الذي نغوص فيه جميعاً. www.alalam.ir/news/1599997

عرضت "داعش[٢٨٨]" المزيد من فيديوهات الرعب عن الذبح وقطع الرؤوس، ما يذكر بأسوأ مراحل العنف في التاريخ الإسلامي[٢٨٩]، فتجاوزت حليفتها منظمة القاعدة وفرعها النصرة في سوريا فيما يتعلق بهذا النوع من الإجرام، الذي تحدث مشاهده على مرأى من الجمهور، بما فيهم الأطفال، وفي لوحةٍ جديدة– قديمة للتداخل بين السياسة والعنف الديني[٢٩٠].

نشرت "داعش" الرعب أينما حلت؛ سبت واغتصبت، باعت واشترت، حتى الجنود كانوا يفرون أمامها أحياناً من دون قتال، تفادياً للموت بقطع الرؤوس، كما قتل البعض أنفسهم وعائلاتهم حتى لا يقعوا في أسر متطرفين آخرين[٢٩١].

في الثاني عشر من شهر حزيران/ يونيو ٢٠١٤ حصل هجوم واسع ومفاجئ لمئات من عناصر "داعش" على مدينة الموصل العراقية. انهارت قطعات الجيش العراقي، فكشف ذلك عن هشاشة البنية السياسية والطائفية لنظام حكم نوري المالكي المدعوم من إيران. استمر تقدم "داعش" على نحو سريع في سوريا والعراق، ما دفع لتشكيل التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لمحاربة هذا التنظيم، وبدء القصف الجوي على العراق ثم على سوريا[٢٩٢].

***

في ذلك الحين، بدأ التململ في صفوف الجيش النظامي والقوى الحليفة، وازداد عدد الفارين من الخدمة العسكرية، بالتوازي مع زيادة الاعتماد على الفصائل الشيعية والمرتزقة من إيران وباكستان وافغانستان. كما تحول بعض الفارين من الخدمة العسكرية إلى مجموعات "الدفاع

---

[٢٨٨] داعش: مختصر الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام.

[٢٨٩] كان قد حدث مثل ذلك في أوروبا المسيحية في القرون الوسطى، قبل أن يحلّ عصر التنوير وتتراجع المسيحية إلى كهنوتها وكنائسها.

[٢٩٠] ذكر يوسف زيدان في كتابه " اللاهوت العربي وأصول العنف الديني- دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩ " قصة مقتل الجعد بن درهم على يد الأمير خالد بن عبد الله القسري بجامع واسط بالعراق، حيث، وبعد انتهائه من صلاة عيد الأضحى، نزل من على المنبر وذبح الجعد بسكينه معتبراً ذلك تضحيته بهذا العيد، ولم يستنكر أحد من الحاضرين هذا الفعل كما قال الإمام! ونقل عن الإمام الدرامي: "الجعد ذبحه خالد بواسط (العراق) يوم عيد الأضحى، على رؤوس من حضره من المسلمين، لم يعبه به عائب، ولم يطعن عليه طاعن، بل استحسنوا ذلك من فعله، وصوبوه.." (الرد على الجهمية ص ١٧٦).
كما تم استلهام بعض الحوادث التاريخية في صدر الإسلام وتقليدها في القرن ٢١، إذ قام أحد المسلحين، ويدعى أبو صقار من كتائب الفاروق في ريف حمص الغربي، بفتح صدر جندي من الجيش النظامي وأكل كبده، في محاكاة لما حدث في أثناء غزوة أُحُد، حيث قامت هند زوجة أبي سفيان وصاحباتها بالتمثيل بجثث الهاشميين، ومنهم سيد الشهداء حمزة عم الرسول، بأن شققن صدره وأخرجن كبده ومضغنها حقداً وتشفياً (مصادر تراثية مختلفة). https://www.youtube.com/watch?v=HtLnhGGEjZo
https://www.youtube.com/watch?v=7HgdP2hR63Q

[٢٩١] بتاريخ ٢٠١٣/١٢/١١ هاجمت مجموعات متطرفة مدينة عدرا العمالية بريف دمشق وتم اختطاف المئات، وربما الآلاف، من المدنيين، بمن فيهم الأطفال والنساء، كما حصل القتل والفرز على أساس طائفي، وذكرت الأخبار حالة أحد الضباط الذي قتل عائلته ونفسه كي لا يقعوا في أيدي التكفيريين. لاحقاً، قام جيش الإسلام بوضع الأسرى من النساء في أقفاص حديدية ونشرها في أماكن مختلفة من مدينة دوماً، في محاولة لردع النظام عن قصف المدينة! https://ar.wikipedia.org/wiki/مجزرة_عدرا

[٢٩٢] بدأ قصف التحالف الدولي في العراق بتاريخ ٢٠١٤/٨/٨، وفي سوريا بتاريخ ٢٠١٤/٩/٢٣، ودون تحقيق نتائج حاسمة، باستثناء كبح تقدم داعش نحو مناطق الأكراد في الشمال السوري، لكن زخماً دولياً جديداً انصب في هذه الحرب في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٥ بعد التدخل الفرنسي والروسي المباشر في سوريا، والذي جاء بعد هجمات باريس الدامية في ١٣ تشرين الثاني ٢٠١٥، وقبلها إسقاط الطائرة المدنية الروسية فوق شبه جزيرة سيناء المصرية في ٣١ تشرين الأول ٢٠١٥.

الوطني" شبه المستقلة، وذلك لتوفير الحماية لهم، وبخاصة للرواتب العالية التي كانوا يتقاضونها، كما كان يحدث في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام. ومع أنّ الحرب قد أفرزت بعض القادة الميدانيين، فقد بقيت قنوات الفساد في الجيش على حالها، لا بل أنها استفحلت، فلكل قضية سعر، بما في ذلك التهرُّب من الخدمة.

كما تحوّل الهمس تدريجياً إلى أصوات مسموعة حول أنّ المقاتلين يدافعون عن أهلهم وأنفسهم وبلدهم وليس عن النظام أو رئيسه، وأنّ ثمة سوءاً في إدارة "الأزمة"، ولكن إلى أين المفرّ؟ وفي بعض المناطق، صار عملاء النظام من البعثيين يمرون خلسة إلى خيم العزاء ليضعوا صور الرئيس حتى لا يصطدموا بالحضور أو ذوي الشهداء! واستباقاً لما يمكن أن يحدث، كان الجنود الذين يرافقون الجنازات يطلقون شعارات التأييد للرئيس مرة أو مرتين كضربٍ من الواجب قبل أن يوارى الشهيد الثرى، لكنهم لم يعودوا يلاقون أية استجابة من الحضور[٢٩٣]. وتحدث أولياء الدم همساً وعلانيةً، هنا أو هناك، محتجين على الطريقة التي قتل فيها أبناؤهم وعدم توفير الحماية لهم، وأدرك كثيرون منهم، ولو متأخرين، أنّ الإنسان كان "البضاعة" الأرخص في سوريا، وما يزال[٢٩٤].

---

[٢٩٣] هذه الملاحظات مبنية على تجارب الكاتب الخاصة ومشاهداته وحواراته في منطقته- الدريكيش- بصورة أساسية.

[٢٩٤] فيما يلي رسالة من جندي نُشرت على صفحة "شبكة أخبار اللاذقية" على موقع الفيسبوك بتاريخ ٣١ كانون الثاني ٢٠١٦. ويبدو أنه تم حذفها لاحقاً:
"عالاغلب هاد آخر شي بكتبه هون لأن تعبي زاد فوق الحد لدرجة ما قادر ضل واعي ومتزن
لان تعبت شوف امهات عم يبكوا لان ما بيعرفوا شو يطبخوا اليوم لان الاب ما معه مصاري يطعمي ولاده
الحياة بتطحن ...
الكل أناني وعنده لؤم مرعب
أيام يلي كانت الأم تشيل اللقمة من تمها تعطيها لابنها راحت.
أيام يلي الاب يضل بنفس القميص و البنطلون كذا سنة ويشتري تياب لابنه راحت ...
حتى الامهات والاباء يلي عاشوا مرحلة العطاء صاروا مظلمين وعندهم حب ذات فوق الطبيعي
الأرواح صارت مظلمة ولا في بصيص نور ....
ما حدا متحمل حدا ... ما حدا بيعمل خير الا لغاية
ما بقا في ذكاء اغلب المجتمع احمق وساذج مدعوس كالقطيع والفقر اكل من لحمه ...
واذا في حدا ذكي فهو وحشي انتهازي
شو بيعمل الشب بهالزمن وهالبلد اللعين كيف ممكن يعيش ويعمل شي مو للمستقبل خيو لبعد بكرا ...
او البنت شو ما عملت ما بعتب عليها " وعد شرف "
اذا ضل في شرف ...
لهلق في تفرقة ... واسطات ...رشاوي بالهبل
الرجل الغير مناسب بالمكان العر.... والرجل المناسب عم يتعلم كيف يصير رجل غير مناسب
لهلق في طبقية... فوقية ... ثقافة ومثقفين تبع ال٥ ورقات وعمر المراهقة صار بيوصل لل٣٥
يحرم عليه في طيبة وحنية بلا سبب ...
يحرم تلاقي شخص حنون بس لانه حنون
وقيادتنا الحكيمة ضايعة متلنا واكتر وصدقا توب الوطن شبع ترتيق ولهلق ما طلع ولا عرصا يقلنا الوضع بخري ولازم نفير عام اجتماعي وعسكري وسياسي والاااا ....
بضل الوطن بس لابن فلان وابن الوزير فلان وابن الزنا فلان والضرب البراني للوزير او التاجر فلان ...
ونحنا منموت ونندفن ونصير سماد مشان يعمر وينزرع < البركة مي وخمس بحصات وكمشة تراب > " الوطن "
ما بقى فيني شي عم يشتغل بطريقة مزبوطة بعد ٥ سنين احتياط لخدمة ابناء الوزراء والساسة والتجار و السودان الشقيق و العروبة وزمبابوي تل والفيزونات والسبانكي والسبايكي والجامعات والمعارض والجمعيات الخيرية وبهاء اليوسف وعرصات روتانا افاميا الشاطئ وكل مقهى ومطعم ومعرصة بهالوطن الغالي ...
والسلام عليكم ورحمة الرب العادل الرحيم وبركاته ...."

في هذه الأثناء، عمل انتشار السلاح على الحدّ من سلطة النظام المركزية، وبدا كأن النظام يفكك نفسه بنفسه. فقط مقاتلو حزب الله أو العاملين معهم كان يُفرض عليهم نظام صارم من الانضباط، إلى جانب هدفهم الثابت في الدعاية المبتسرة للتشيُّع[٢٩٥].

وفي هذا الشهر أيضاً، تسربت وثائق مخيفة عن معاناة السجناء في سجون النظام وتعرضهم لمختلف أشكال التعذيب والموت[٢٩٦].

الفصل الحادي عشر

**رسالة من أحد شباب الجيش السوري احتياط ٥ سنين و متصاوب ٧ مرات و رفض يذكر اسمه بناءً على طلبه .... (تعليق من محرر الصفحة).

[٢٩٥] ذكر لي أحد المقاتلين السوريين مع عناصر حزب الله أن قائدهم كان يتحدث عن فضائل "أهل البيت"، في الوقت الذي يقوم فيه برفع عقب السجائر من على أرض الموقع الذي يعسكرون فيه، وبطريقة دعائية مكشوفة.

[٢٩٦] http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/1/23/%D8%B5%D9%88%D8%B1-%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D9%84%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%B0%D9%8A%D8%A8-%D8%A8%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D9%88%D9%88%D8%A7%D8%B4%D9%86%D8%B7%D9%86-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%B9%D9%84%D9%85

مواقف دولية

الموقف الإسرائيلي

راقبت إسرائيل ما يحصل في سوريا بانتشاءٍ وحذر، ومصلحتها في استمرار الهدوء على الحدود السورية، لتبقى آمنةً كما كانت طوال سنوات "الممانعة والمقاومة". وقد عملت في وقتٍ لاحق، بعد سيطرة المسلحين على الشريط الحدودي، على تقديم العون الطبي لهم وإخلاء مئات الجرحى ومعالجتهم في المستشفيات الإسرائيلية، كضرب من مدّ الجسور مع القوى التي تساهم بتدمير ما تبقى من الجيش السوري ومعداته، ولو أنها ليست من الغباء لتعتقد أن قوى مثل جبهة النصرة قد تحلّ مكان النظام الحالي مستقبلاً. في ذات الوقت، لم يتوقف العدو الإسرائيلي عن تدمير كل ما يعتبره خطراً على أمنه من أسلحة هامة في سوريا أو تلك التي كان يتم إرسالها إلى حزب الله في لبنان. ما خلا ذلك، التزمت إسرائيل الصمت المطبق في معظم الأحيان، بيد أنّها لم تكن منسيةً من حلفائها الأمريكان. كما نسّق الروس، بعد دخولهم سوريا، مع الإسرائيليين، سواء على صعيد المواقف أو الطلعات الجوية. بقيت إسرائيل الطرف المدلل دولياً، والتي بوسعها فعل أي شيء بلا حسيب أو رقيب!

الموقف الأمريكي

لم تكن إدارة أوباما مستعجلة؛ اكتفت بالمراقبة وجمع المعلومات، وكان الدرسان العراقي والأفغاني ما زالا بليغين. وباستثناء مطالبة الرئيس الأسد بالتنحي[٢٩٧]، لم تقدم الولايات المتحدة أية وعود للمعارضة بالتدخل، وكل الخيبات التي عبّر عنها، لاحقاً، معارضون من جماعة "المجلس الوطني وغيرهم، ليست سوى أحلام أطفال يرغبون بحصول ما كانوا يتمنونه؛ أن تحملهم الدبابات الأمريكية إلى سدّة الحكم، كما حصل في العراق، مع اختلاف ألوان الرايات بالطبع!

بالفعل، كانت تركة مغامرة بوش الابن ثقيلة، والعراق ما يزال في وضع قابل للانفجار؛ بسبب المحاصصة الطائفية "غير العادلة"، مع العلم أنه من غير المنطقي تحميل الأمريكان

---

[٢٩٧] ...www.aljazeera.net/.../679A1172-8CB3-476C-83EE-E2A8EE205A33.ht

مسؤولية صراعاتنا البنيوية ومشاكلنا المؤجلة والمزمنة، إنما من باب التّمني بأن تقوم أمريكا بدورها، كقوة عظمى، في الحدّ من النزاعات.

كما يمكن القول أيضاً بأنّ الأمريكان كانوا يتلطَّون أحياناً خلف الموقف الروسي الداعم للنظام وفيتواته في مجلس الأمن"[٢٩٨]، أو أنّهم لم يكونوا جادين، أقلّه، مفضلين الانتظار حتى تصل الوقائع على الأرض إلى حالة يمكنهم فيها التدخل للمساهمة في إعادة تشكيل ليس سوريا وحسب، بل والشرق الأوسط برمته، وكأن حلم المحافظين الجدد الأمريكيين وإدارة بوش السابقة لم يمت بعدُ، لكن بطريقة أكثر حكمة وحصافة.

لم يكن ذلك اعتيادياً على الأقل بالنسبة لطيف واسع من الأحزاب السياسية في منطقتنا، والتي استقر العداء للسياسات الأمريكية في عقول أفرادها المؤدلجة، كونها تقف بجانب إسرائيل، ومن دون عميق تمحيص.

مع ذلك، لم يكن بوسع الأمريكان مراقبة الأحداث وإدارة "الأزمة السورية" إلى ما لا نهاية، وبخاصة في حال تهدّدت إسرائيل، أو انتشر الخطر إلى دول الجوار، أو وصل الإرهاب إلى حدود لم تعد تُحتمل. أما بالنسبة لدور وواجب الدول العظمى وقضايا حقوق الإنسان، فقد نامت في أدراج المصالح الوطنية الأمريكية ثلاث سنوات، قبل أن تبدأ أمريكا حربها على داعش في العراق وسوريا أواخر صيف ٢٠١٤.

الخطوة الأمريكية الأكثر جدية كانت الضغط على النظام للتخلص من أسلحته الكيميائية بعد الهجوم على غوطتي دمشق في ٢١/٨/ ٢٠١٣، ما أفضى إلى رضوخ النظام التام للتهديدات الدولية، متّبعاً نصائح الحليف الروسي على ما يبدو.

لم تكن الضغوط الخارجية على النظام، بما فيها الضغوط الأميركية، في المستوى الذي يجعله يقتنع بتقديم تنازلاتٍ حقيقية، وهو العصي على التغيير على نحوٍ ذاتي، خاصة وأن جبهة حلفائه صارت تتعزّز وتقدِّم له كل أشكال الدعم الدبلوماسي والعسكري، وفي ظروف تفاوتت وتعارضت فيها وجهات النظر الدولية حول الحدث السوري.

الموقف الروسي

[٢٩٨] اعتقد "المجلس الوطني" أن الدول الغربية تقف وراءه كالبنيان المرصوص في رفضه أيّ حوار مع الروس. لكن، في ربيع ٢٠١٢، وفي لقاءٍ مع بعض مؤيديه في الداخل السوري، صارح السفير الأمريكي فورد "المجلس الوطني" بضرورة محاورة الروس، وقال بأنّ ذلك هو الحل الوحيد! بعد الاجتماع مباشرةً، جاءني صديقي بحالةٍ من الحيرة والصدمة وأخبرني بما قاله السفير الأمريكي، وأعرب عن رغبته بمقابلة السفير الروسي في دمشق، طالباً مني القيام بدور المترجم. لم تفلح عدة محاولات في أخذ موعد لمقابلة السفير، الذي تعامل مع هذه الجهة المعارضة باستعلاءٍ وصلف!

حصل النظام على الحرية شبه المطلقة باستخدام الحل الأمني العدمي، متَّكئاً على الموقف الروسي، الذي يهدف إلى ردّ الاعتبار لروسيا كدولة عظمى من خلال المأساة السورية، واستمرار بيع الأسلحة، وضمان عدم منافسة الآخرين[٢٩٩] بخصوص إمداد أوروبا بالنفط والغاز الروسيين.

في تلك الأثناء، تداولت أطراف المعارضة معلومات حول محاولة القطريين والسعوديين شراء الموقف الروسي من خلال تقديم ضمانات لروسيا فيما يتعلق بمصالحها في سوريا، بعد أن تعرض كبرياؤها في ليبيا للإهانة[٣٠٠]، لكنّ ذلك كان مجرّد أوهام.

ليست مصالح روسيا في سوريا قليلة، وتتعلق بوجود آلاف الخريجين الجامعيين وخريجي الدراسات العليا، بم فيهم الكثير من الضباط، علاوة على تسليح الجيش ضمن المدى المنظور[٣٠١]. تُضاف إلى ذلك مخاوف الروس من عودة الإرهاب إليها من خلال عودة الشيشان الذين يقاتلون في سوريا. كما أنّ استخدام القاعدة البحرية في طرطوس لتموين الأسطول الروسي في البحر المتوسط قد يساهم في تفسير بعض التعنُّت الروسي والوقوف بجانب النظام كليةً[٣٠٢].

خلال ثلاث سنوات من عمر المأساة السورية، استخدمت روسيا الاتحادية والصين حق الفيتو في مجلس الأمن عدة مرات[٣٠٣] لإفشال مشاريع قرارات في مجلس الأمن، بحجة احترام القانون الدولي. كان ذلك يبعث على السخرية، فآخر ما كان يهم روسيا أو أمريكا هو القانون الدولي.

---

[٢٩٩] أشير إلى مخطط قطري لنقل الغاز عبر سوريا ومنه إلى أوروبا عبر تركيا لمنافسة الغاز الروسي على السوق الأوروبية والتركية، ما يؤثر أيضاً على مشروع نقل الغاز الروسي إلى تركيا عبر البحر الأسود.

[٣٠٠] لم يشارك الروس، وربما لم يُستشاروا، في موضوع إسقاط القذافي في ليبيا، وهذا ما أثار حنقهم، ولكن استنقاع الحالة الليبية وتزايد التطرُّف في هذا البلد عزز من الموقف الروسي.

[٣٠١] قال أحد المعارضين النافذين في أحد اللقاءات أنّ موضوع أسلحة الجيش غير مهم، فهي مجرد خردة سيتم استبدالها بأسلحة غربية. اعتبرتُ ذلك كلاماً غير واقعي ولا مسؤول في المدى المنظور، بخاصة بعد ما حصل للجيش العراقي الجديد، وعدم تسليحه بصورة جدية من قبل الأمريكان، ما كان أحد أسباب هزيمة هذه الجيش بصورة مخزية أمام عدة آلاف من مسلحي "داعش" في الموصل في ٢٠١٤ /٠٦/١٢.

[٣٠٢] تبدل الموقف الروسي جزئياً بعد قرار الروس سحب الجزء الأكبر من قوتهم الجوية من سوريا بتاريخ ١٦ آذار ٢٠١٦، وذلك بعد حوالي ٥ أشهر من القصف الذي نجم عنه إعادة التوازن على الأرض وتدخل الروس في موضوع المصالحة مع القوى المعتدلة. عندئذٍ، ظهرت بوادر خلافات بين النظام وروسيا، وبخاصة بين هذه الأخيرة وإيران، والتي تمثلت بالانتقادات الشديدة لعدم تدخل الروس لقصف المسلحين في بعض المعارك، كما في استعادة المسلحين لبلدة خان طومان بتاريخ ٦ أيار ٢٠١٦ بريف حلب الجنوبي، على سبيل المثال لا الحصر. في هذه الأثناء، اتضح أكثر التعاون المشوب بالتنافس وتقاسم الهيمنة الأمريكي- الروسي على الأرض والقوى المقاتلة في سوريا.

[٣٠٣] كان الفيتو الأول ضد مشروع قرار يدين النظام السوري لانتهاكه حقوق الإنسان في أثناء قمع الانتفاضة بتاريخ ١٠/٥/ ٢٠١١، وفيتو ثانٍ في ٢٠١٢/٢/٤ من أجل دعم مبادرة الجامعة العربية، وفيتو ثالث في ٢٠١٢/٧/١٩ لفرض عقوبات على سوريا بموجب الفصل السابع، وفيتو رابع في ٥/٢٢/ ٢٠١٤ ضد قرار لإحالة الملف السوري إلى محكمة العدل الدولية.

ثم فاجأ الروس الجميع، ربما باستثناء الأمريكان، بتدخلهم المباشر في سوريا في مطلع خريف عام ٢٠١٥[٣٠٤]، حيث فرضوا أنفسهم كلاعب أساسي، خاصة بغياب الموقف الأمريكي وتردده، كما قاموا بإجراء المصالحات مع فصائل مقاتلة عديدة وهمّشوا دور النظام المهمّش أصلاً.

الموقف التركي

أثارت التصريحات التركية في بداية الحدث السوري الكثير من الجدل، وحاول الأتراك تحقيق مصالحهم في سوريا مع النظام، ومن دونه، فكانت مواقفهم تتوس بين التهديد والمهادنة، وبصورة أربكت الشارع السوري أكثر من مرة[٣٠٥]. المبدأ شبه الوحيد في السياسة التركية كان منع قيام كيان كردي في شمال سوريا، وما يمكن أن يتركه من تأثير على وضع مواطنيهم الأكراد.

أمّن الأتراك، في وقتٍ مبكِّر، ملاذاً للاجئين السوريين على أراضيهم، وأطلقوا تهديداتهم التي لا يمكن ترجمتها إلى وقائع؛ بسبب ارتباط القرار التركي بمقتضيات العلاقة مع الحلف الأطلسي، فضلاً عن الحسابات التركية الداخلية، ومنها حدوث انقسامات اجتماعية، كرد فعل على انحياز قيادة حزب العدالة والتنمية للتيارات الإسلامية، ومحاولة تصدير النموذج الإسلامي التركي، ممثّلاً بتجربة حزب العدالة والتنمية الحاكم، إلى أرضٍ ليست جاهزة لتقبُّله في الوقت الحاضر.

كما عبر السيد أردوغان، رئيس حكومة حزب العدالة والتنمية، عن رغبته بوصول الإسلاميين "المعتدلين"[٣٠٦] (الإخوان المسلمين) إلى السلطة في سوريا، متناسياً أنّ الإسلاميين الأتراك جاؤوا إلى الحكم على أرضية تركيا العلمانية وبطريقة ديمقراطية، في حين لم تتأسّس العملية الديمقراطية دستورياً في معظم البلدان العربية.

---

[٣٠٤] في خطوة مفاجئة، وبطلب رسمي من النظام، الذي بدا غير قادر على الاستمرار رغم الدعم الإيراني، بدأت طلائع القوى الروسية بالوصول إلى مطار حميميم في اللاذقية أواخر شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥، وفي الثلاثين من الشهر نفسه بدأت الضربات الجوية لمناطق المسلحين على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم تحت راية الحرب على داعش. رفض الأمريكان التدخل الروسي بنعومة واعتبروه إطالة للحرب، لكنهم سارعوا للتنسيق مع الروس تفادياً لحدوث صدامات غير مقصودة في الأجواء السورية، وصولاً إلى الاتفاق بين الدولتين على وقف إطلاق النار في سوريا بتاريخ ٢٧ / ٢/ ٢٠١٦، والذي ما لبث أن انهار نهائياً بعد عدة أشهر.

[٣٠٥] يمكن بهذا الخصوص مراجعة تصريحات المسؤولين الأتراك من حزب العدالة والتنمية في الأشهر الأولى للثورة.

[٣٠٦] لا يمكن اعتبار حزب الإخوان المسلمين الطائفي قوةً معتدلة إلاّ بالمقارنة مع التيارات الإسلامية المتطرفة كالقاعدة، وفي كل الأحوال فهو يحمل الفكر ذاته ويشكل الحاضنة التي تفرخ تلك الجماعات، وذلك برغم بعض التعديلات الطفيفة التي أجراها على توجهاته في عام ٢٠٠٥ (....) و ٢٠١٢ (عهد وميثاق)، بما في ذلك الحديث عن دولة مدنية مبهمة المعالم.

دعمت تركيا "الإخوان المسلمين" في عبثهم بمجريات الثورة من خلال "لجنة العمل الوطني من أجل سوريا"[٣٠٧]. قامت هذه اللجنة بإدخال السلاح إلى سوريا علاوة على مساعدات طبية وإغاثية أخرى مشروطة، في محاولة مكشوفة من الإخوان لركوب موجة الاحتجاجات واستغلال المطالب الشعبية المشروعة لفرض نموذجٍ استبدادي أكثر تخلفاً، مع العلم أنّ "الإخوان" كانوا دوماً على استعداد لاقتسام كعكة السلطة[٣٠٨] مع النظام برعاية حزب العدالة والتنمية، وزاودوا على هذا الحزب فيما يتعلق بتسويق آمال العثمانيين الجدد باستعادة الخلافة[٣٠٩]!

كما ساهمت تركيا بإدخال الكثير من الجهاديين عبر حدودها نكاية ربما بالموقف الغربي، إلى أن استفحلت مشكلة الإرهاب وانقلبت على الجميع في عام ٢٠١٥. لكنّ التدخل الروسي في سوريا كان الضربة القاصمة للمشاريع التركية في سوريا، وخاصة بعد حادثة إسقاط الطائرة الحربية الروسية في ريف اللاذقية الشمالي بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ٢٠١٥، واستغلاله الناجح من قبل الروس بنشر منظومة صواريخ س. س ٤٠٠ وإغلاق المجال الجوي السوري أمام الطيران الحربي التركي[٣١٠].

تبدّل الموقف التركي على حين فجأة بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في ١٥ تموز ٢٠١٦ وتتوَّج بلقاء قمة بين الرئيسين الروسي والتركي في ٩ آب ٢٠١٦. ثم أسفر الاتفاق الروسي التركي عام ٢٠١٦ عن انعقاد مؤتمر أستانة بتاريخ ٢٣ كانون الثاني ٢٠١٧، الذي حضره، أيضاً، ممثلو فصائل مقاتلة مدعومة من تركيا.

الجامعة العربية

تأخرت ردود الفعل العربية على ما يحصل في سوريا بصورة ملفتة، فالأنظمة العربية التي لم تصلها رياح "الربيع العربي" لم تكن بمنأى عنها بالطبع، وبالتالي كانت تنظر في

---

٣٠٧ تشكلت هذه اللجنة في ١٨ شباط/ فبراير على خلفية اندلاع أحداث "الربيع العربي" في تونس ومصر من عناصر إسلامية ليبرالية ذات علاقة ملتبسة مع "الإخوان المسلمين" برئاسة أحمد رمضان، وكانت أساس تشكيل "المجلس الوطني السوري" في ٢ تشرين الأول/ أوكتوبر ٢٠١١.

٣٠٨ قال لي أحد المقربين من الإخوان المسلمين في مؤتمر البحر الميت عام ٢٠١٢: "انسوا برهان غليون و"المجلس الوطني"، ونسقوا معنا في كل شيء، نحن الفاعلون على الأرض." لكن، إلى أية درجة كان هذا الكلام يلامس الواقع؟ أما القول الموجه إليّ فهو يعكس طائفية الإخوان البغيضة، إذ استنتجوا من كوني بنظرهم "علوياً" أن بوسعي مساعدتهم في التنسيق مع النظام لاقتسام كعكة السلطة، وكأنني كنت ممثل النظام في المؤتمر!

٣٠٩ ارتفعت أصوات تطالب، ليس بالتنسيق مع تركيا وحسب، بل وبالاتحاد معها أيضاً! وصولاً إلى تشكيل أحزاب إسلامية "سورية" تقليداً لحزب العدالة والتنمية، مثل حزب العدالة السوري!

٣١٠ عادت العلاقات الروسية- التركية إلى سابق عهدها بعد الانقلاب التركي الفاشل في ١٥ تموز ٢٠١٦، ربما بسبب ما قيل عن تحذير الرئيس بوتين لنظيره التركي من حدوث الانقلاب والوقوف بجانبه. وفي ٢٤ آب دخلت الدبابات التركية مدينة جرابلس لمنع تمدد "قوات سوريا الديمقراطية"، المؤلفة بمعظمها من الأكراد، غرب نهر الفرات، دونما اعتراض من قبل الأمريكان أو الروس.

اتجاهين مختلفين: إنقاذ الأنظمة القائمة، ولو من خلال إجراء الإصلاحات الشكلية، وترويض الشعوب الثائرة.

اعتبرت مبادرة الجامعة العربية[٣١١] حلاً مقبولاً في خريف العام ٢٠١١، وشكّلت الأساس الذي سيجري بوساطته تدويل الموضوع السوري من خلال تحويلها إلى مبادرة عربية- دولية في شهر شباط/ فبراير ٢٠١٢[٣١٢]. ثم انتهى دور الجامعة العربية إلى غير رجعة!

الموقف القطري

عملت حكومة قطر دوماً على جذب الانتباه لها من خلال التدخل في محاولة حلّ الأزمات وعقد المصالحات، بخاصة تلك التي تتعلق بقوى الإسلام السياسي[٣١٣]. في ذات الوقت، استُخدمت قناة الجزيرة الفضائية، شبه الحكومية، كمنبرٍ إعلامي إسلامي أكثر احترافيةً قياساً للقنوات الفضائية الدينية المذهبية الخالصة.

منذ بداية الحدث السوري عملت قطر على نصح النظام من باب تآزر حكم القلّة وتحقيق المصالح[٣١٤]، وحين لم ينفع ذلك في شيء، جمعت المعارضة السورية في الدوحة في منتصف شهر أيلول ٢٠١١. لكنّ تركيا، منافستها في خطب ودّ الإخوان المسلمين، سرقت منها الأضواء واختطفت المشاركين من الإسلاميين (بخاصة أعضاء لجنة العمل الوطني من أجل سوريا) لتعلن عن تشكيل "المجلس الوطني" في اسطنبول. لاحقاً دعمت قطر المقاتلين بالتنسيق مع تركيا، وتعرضت الدولتان لانتقادات الأميريكيين، أحياناً، لهذا السبب.

الموقف السعودي

---

[٣١١] وضعت الجامعة العربية خطةً قضت بسحب الجيش من المدن وإطلاق سراح المعتقلين وإجراء مفاوضات مع المعارضة في ٢٠١١/١٢/١٩ . وافقت الحكومة السورية على مبادرة السلام العربية وسمحت للمراقبين العرب بالدخول إلى سوريا، والذين وصلوا إلى دمشق بتاريخ ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١. قبل انتهاء فترة تفويض المراقبين، طرحت الجامعة العربية مبادرتها السياسية في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، والمتمثلة بتشكيل حكومة وطنية وتسليم السلطة لنائب رئيس الجمهورية فاروق الشرع.

[٣١٢] كان ذلك في شهر شباط/ فبراير ٢٠١٢، حيث تبنّت المبادرة الدولية بنود المبادرة العربية وأصبحت تدعى المبادرة الدولية- العربية.

[٣١٣] احتضنت قطر خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس بعد إبعاده من الأردن، مثلما لجأ إليها أيضاً الشيخ القرضاوي الإخواني المنفي من بلده مصر، والرئيس الشيشاني المنفي سليم خان ياندرابابيف الذي اغتيل هناك عام ٢٠٠٤، وزوجة صدام حسين ساجدة خير الله عام ٢٠٠٤، والرئيس الموريتاني ولد طايع بعد الإطاحة به في عام ٢٠٠٥، والنائب العربي في الكنيست الإسرائيلي عزمي بشارة عام ٢٠٠٧، علاوة على افتتاح حركة طالبان مكتباً لها في الدوحة في حزيران ٢٠١٣.. الخ.

[٣١٤] تضمنت قائمة المصالح القطرية في سوريا حوالي ٦ مليارات دولار، ومن بينها بناء عدة مشاريع إعمارية في اللاذقية ودمشق من قبل شركة الديار القطرية. www.elwatannews.com/news/details/184865

بقي الموقف الرسمي السعودي غائماً في المراحل الأولى من الحدث السوري، وتمثل بدايةً بالدعم الإغاثي للمهجرين السوريين. أما القوى الدينية الوهابية السعودية فكان لها دور بارز في أسلمة الثورة وربط الدعم المالي بالتوجهات الدينية المذهبية. حصل أول تدخل سعودي رسمي فاعل عند تشكيل الائتلاف الوطني السوري، ومن خلال كتلة جربا- كيلو الديمقراطية، فصارت السعودية شريكة في النفوذ على الائتلاف، وعلى قدم المساواة مع تركيا وقطر. من أهم تجليات هذا التحالف لاحقاً توحيد فصائل المسلحين في الشمال السوري تحت مسمى جيش الفتح، الذي حقق نتائج كبيرة على الأرض واحتل معظم مساحة محافظة إدلب. حصل الزخم الجديد في الموقف السعودي بعد وفاة الملك عبد الله وتسلم وليّ العهد سلمان مقاليد الحكم في ٢٣ كانون الثاني ٢٠١٥، وترافق ذلك مع انطلاق ما سمي بـ "عاصفة الحزم" التي قادتها السعودية في اليمن. وصار وزير خارجيتها الجديد، عادل الجبير، يردد في كل مناسبة عبارته الشهيرة بإسقاط بشار الأسد سلماً أو حرباً.

الاتحاد الأوروبي

لم تنفصل المواقف الأوروبية عن المواقف الأمريكية، إنّما استتبعتها، مع أن التمايز في المواقف كان يحصل أحياناً، كما في افتراق الموقف البريطاني عن الأمريكي في مسألة السلاح الكيماوي السوري[٣١٥]. عبَّرت المواقف الفرنسية "الحردة" عن درجة من التنافس مع الموقف الأمريكي، ووقعت في شرك الارتباك و/ أو التردُّد الأمريكي الذي طبع سياسة أوباما تجاه سوريا وغيرها. أما الموقف الألماني فقد بقي أكثر حذراً في التعامل مع المشهد السوري المعقَّد. لم تكن مواقف الدول الأخرى في الاتحاد الأوروبي سوى رجع الصدى لمواقف الدول الفاعلة فيه؛ أي بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

---

٣١٥ رفض مجلس العموم البريطاني مساندة الحكومة البريطانية في تحالفها مع أمريكا لضرب النظام السوري في أواخر شهر آب ٢٠١٣.

نساء الثورة والحياة

لم تنتظر المرأة إذناً من أحد لتخرج إلى جانب الرجل في التظاهرات ضد الاستبداد[٣١٦]، و"هي من خلقت مساحة مشاركتها"[٣١٧] للتعبير عن مناهضته، فكان ذلك تجاوزاً للأطر الاجتماعية الضيقة باتجاه رحابة الحياة وتنوعها. شاركت المرأة في الانتفاضات العربية السلمية كلها بدرجات مختلفة، بما يتناسب مع وجود آفاق تنويرية سابقة يمكن البناء عليها، كما في المجتمع التونسي خاصةً، حيث حققت المرأة درجة متقدمة من التحرُّر والمساواة القانونية مع الرجل[٣١٨].

تعدُّ المشاركة الفاعلة للمرأة في التحولات التاريخية من أهم مقاييس التنوير والتقدم الاجتماعيين، كما ينطبق ذلك على فترات الاستقرار أيضاً. أما في الحروب والنزاعات، التي هي، على الأرجح، امتدادات لثقافة المجتمعات الذكورية وعدوانيتها، فغالباً ما تتعرض مكتسبات المرأة، إن وُجدت[٣١٩]، لانتكاسات خطيرة. هذا ما حدث حين تحوّلت الانتفاضات والتظاهرات إلى أعمال مسلحة في معظم بلدان "الربيع العربي"، فعانت المرأة من ويلات الحرب، بما فيها القتل والتهجير والاعتقال والاغتصاب والسبي والاستغلال الجنسي، فضلاً عن الأعباء الإضافية المتعلقة برعاية الجرحى والمعوقين وإعالة الأسرة عند فقدان الرجل- المعيل، وما رافق ذلك من عمليات الاستغلال والابتزاز، وستستمر هذه المعاناة لسنوات عديدة بعد انتهاء الحرب، وربما لعقود.

[٣١٦] لم يسامح النظام المتظاهرين والمتظاهرات، السلميين والسلميات، في حين عقد لاحقاً صفقات تصالحية مع المسلحين الذين حاربوه من دون أية تبعات.

[٣١٧] التعبير للصديقة لمى قنّوت التي راجعت هذا الفصل مشكورةً.

[٣١٨] قام الرئيس التونسي بورقيبة بإصلاحات كبيرة تتعلق بقانون الأحوال المدنية لعام ١٩٥٦، والذي ساوى المرأة بالرجل إلى حد بعيد على الصعيدين السياسي والمدني، بما في ذلك عدم جواز تعدد الزوجات، علاوة على إصلاحات أخرى في مجالي التعليم والصحة.

[٣١٩] في الواقع، على حدّ تعبير الصديقة لمى قنوت أيضاً: "لا توجد أية حقوق للمرأة في قوانين الأحوال الشخصية في سوريا، وتذخر هذه القوانين بعبارات وكلمات تعتبر في العصر الحالي مهينة لكرامة المرأة وإنسانيتها مثل: فسخ النكاح، موطوآته، الدخول، زوجة غيره أو معتدته، يملك عليها اللعان، النشوز، اللعان، متعة الطلاق، تربص، أجرة الرضاع، ملة، التخارج، يخشى عليها من الفتنة، ذمي، كتابية، أجرة الحضانة.. إلخ. وفي دستور ٢٠١٢، ورد في المادة رقم ٣ بأنّ الفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع، والأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية، وهذا يطلق العنان لرجال الدين للتحكم بحيوات النساء، أي أنّ ذلك ضربٌ من دسترة التمييز ضد النساء، ناهيك عن دسترة الاستبداد بالصلاحيات المطلقة لرئيس البلاد."

ويمكن القول بأن الحماقات التي يرتكبها الرجال في فترة وجيزة تدفع النساء ثمنها على المدى الطويل.

شاركت النساء السوريات على اختلاف توجهاتهنّ في فعاليات الانتفاضة/ الثورة، علمانيات ومتدينات، يساريات ويمينيات، سواء على صعيد الكلمة أو الفعل الثوري، كما في التنسيقيات، أو تقديم الدعم اللوجستي على الأرض. كانت تلك فرصة النساء للتحرر من شتّى المظالم الاجتماعية في مجمع ذكوري مستبدّ. تراجع دور النساء السوريات أيضاً بعد تحول الانتفاضة إلى صراع مسلح دون أن يختفي[٣٢٠]، وتقلصت من جديد فرصهنّ في التحرر من ربقة التقاليد الاجتماعية الظالمة.

إنّ أي انتقاص لحقوق المرأة هو شكل من أشكال العنف أيضاً، بما في ذلك حرمانها من الإرث واستغلالها في العمل. وحيث ينتشر الفقر والجهل تكون معاناة المرأة على أشدّها، خاصةً بغياب، أو ندرة، آليات فاعلة للمساعدة، سواء أكانت رسمية أم من قبل منظمات المجتمع المدني. لكنّ الظلم لا يقتصر على المرأة الفقيرة فقط، إنما يطال أيضاً المرأة في البيئات الميسورة، والتي يجري تقييد حريتها وخياراتها بحجة السمعة والتقاليد، ولتتحول أحياناً إلى مجرد دمية مستعبدة ومغلّفة بالترف. ويبدو أنّه كلّما صعدت المرأة درجة على سلَّم انعتاقها، كان الرجل يرمي إليها شبكة ثقافة المجتمع وتقاليده، التي هي ثقافته ورغباته هو!

كم قابلت من الفتيات الرائعات اللواتي عملن بصمتٍ وأمانة[٣٢١]! منهنَّ من خرجن من سجون النظام بمعنويات عالية، ولم يكن خوفهنّ لم يكن إلاّ على الثورة، ثورتهنّ، الثورة التي تُقاس مشروعيتها من خلال دور المرأة فيها والمكتسبات التي تحصل عليها من خلالها، ومنها المساواة الحقوقية والاجتماعية قبل أي شيء آخر.

كان اختطاف المحامية رزان زيتونة[٣٢٢] ورفاقها في دوما من أهم مؤشرات انتهاء الفعاليات السلمية المدنية الديمقراطية وابتلاعها من قبل أعداء الحرية، لِما للمحامية رزان من

---

[٣٢٠] في الواقع، كان الدور الأوضح في الحرب للمرأة الكردية، التي قاتلت ببسالة ضد القوى المتطرفة، بخاصة داعش، في شمال سوريا، في حين كان هذا الدور محدوداً ضمن إطار قوى الجيش النظامي، وأندر بكثير في صفوف المعارضة المسلحة.

[٣٢١] في خريف ٢٠١١ اجتمعت في البيت الذي كنا نقيم فيه بدمشق بناشطتين من مدينة دوما. كانت إحداهما فتاة نحيلة في مقتبل العمر، وقد أصيبت بطلقٍ ناري سطحي في بطنها في أثناء إسعافها لجريح من الجنود المنشقين في بساتين دوما. غطّت الفتاة بحقيبتها النسائية بقعة الدم التي انتشرت على المانطو، وذُهلت لمعنوياتها المرتفعة فيما كنت أقدم لها العلاج المناسب، إذ لم يكن بوسعها الذهاب إلى المستشفيات الحكومية خوفاً من الاعتقال. أذكر تلك الواقعة من بين عشرات الحالات في الأشهر الأولى التي تميزت بمنتهى التلاحم بين الشعب والمنشقين، وما آلت إليه الأمور لاحقاً، بخاصة فيما يتعلق بالتورُّم الإسلامي الجهادي، الذي فتك أيضاً بآمال النساء وحلمهنّ في الحرية. وكيف أنسى تلك المرأة التي جاءت من دمشق إلى اللاذقية لتشارك في التظاهرات الأولى، فأسعفت جريحاً بعد أن سحبته إلى مدخل إحدى البنايات.

[٣٢٢] بتاريخ ٩/ ١٢/ ٢٠١٣ اقتحم مسلحون مركز توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في دوما واعتقلوا المحامية رزان (تولد ١٩٧٧) والنشطاء: سميرة خليل وناظم حمادة ووائل حمادة.
http://cdf-sy.org/content/index.php?option=com_content&view=article&id=1829:2013-12-11-10-05-15&catid=29:-2012

رمزية في الثورة السلمية وتوثيق انتهاكات حقوق الإنسان والدفاع عن المعتقلين[٣٢٣]. كانت رزان قد توارت عن الأنظار هرباً من ملاحقة النظام، ثم استقرت في مدينة دوما قبل اختطافها، وبعد أن تمّ تهديدها أكثر من مرة. شكلت عملية الخطف هذه مؤشراً من مؤشرات وأد الانتفاضة الشعبية، بوصفها تغييراً ديمقراطياً، وتدشين لمرحلةٍ جديدة من الصراع الذي يحاول فيه المتأسلمون فرض شروطهم الاستبدادية المتخلِّفة. وكان الناشط مازن درويش[٣٢٤]، الذي يعمل في نفس المجال، قد اعتقل من قبل النظام، فضاقت الأرض السورية بكل عمل ديمقراطي سلمي، ووقع الناشطون بين فكيّ كماشة الاستبداد والتطرُّف الديني.

ومع أنّ سوريا تحولت إلى ساحة للدموع والأحزان، وتلفّعت النساء فيها بالسواد، فما زال ثمة أمل وضرورة لأن تعود النساء بعد الحرب إلى ساحات البناء النابضة بالحياة، وهنّ اللواتي يبدعن في تدبير الحياة وإنتاجها أيضاً. سيقود ذلك على الأرجح إلى حصول المرأة على مكاسب مهمة، بقدر أهمية الدور الذي يمكن أن تؤديه في إعادة الحياة إلى ما دمرته الحرب، بيد أن ذلك مشروط أيضا بالتشريعات التي تضمن حقوق النساء، وبمقدرة المرأة على النضال من أجل هذه الحقوق في سوريا المستقبل، المفترض أن تكون دولة القانون والمواطنة.

بعد الحرب العالمية الثانية، تحمّلت المرأة في بعض البلدان الأوربية، بخاصة في البلدان التي طالها الكثير من التدمير كألمانيا وروسيا، العبء الأكبر في إعادة بناء ما دمرته الحرب، وبالتوازي مع ذلك، تحققت لها المزيد من المكاسب والحقوق الاجتماعية. إنّ مقارنة ما سيكون عليه دور المرأة السورية، مقارنة بالمرأة الأوروبية، يحمل الكثير من المجازفة؛ بسبب المعوقات الاجتماعية، ولكنّ تشابه الظروف يدفعنا لتخمين أهمية الدور الذي ستؤديه النساء السوريات في المستقبل، وانعكاسه على وضعها الاجتماعي وحياتها الشخصية.

في نهاية المطاف، لن تبقى سوريا، ولا باقي بلدان المنطقة، بعيدةً عن أوجه التقدم الاجتماعي المحمول على سكّة التطور التقني المُتسارع، والذي ستأخذ فيه المرأة الكثير من الحقوق، وتتخلّص من مظالم شتّى كبّلتها على امتداد تاريخ طويل.

---

[٣٢٣] كانت رزان تزور المعتقلين في السجون قبل الثورة وتدافع عنهم أمام المحاكم. مرّةً، سمعت أحدهم يناديها: "أمي"، مع أنه كان يكبرها بعشر سنوات على الأقل.

[٣٢٤] بتاريخ ٢٠١٢ /٢/١٦ اعتقل الصحفي مازن درويش (تولد ١٩٧٤) مع مجموعة من الناشطين في مكتبه بدمشق. فاز مازن بجائزة حرية الصحافة لعام ٢٠١٢، وهو مؤسس المركز السوري للإعلام وحرية التعبير. تم إطلاق سراحه في أوائل شهر آب/ أغسطس ٢٠١٥.

اليسار وعلمانيته على هامش "الربيع العربي"

ارتبط مفهوم اليسار الستاليني المبتسر في القرن العشرين بصعود الأنظمة الدكتاتورية وصورة الحزب القائد وزعيمه، ما شوّه صورة قوى اليسار باعتبارها قوىً دافعة باتجاه التقدم والتطور. كما تثبّت الوعي اليساري التقليدي العربي في النصف الثاني من القرن العشرين على العداء للغرب كشرٍّ مطلق امبريالي، مشكلاً ركيزة الاستبداد الذي ادّعى العلمانية، وتحوَّل العداء المشروع في السياسة إلى سياسة عداء جوفاء، هدفها الأساس توجيه أنظار الجماهير– الرعايا بعيداً عمّا يحدث في الداخل، حيث يجري تثبيت أركان الحكم من خلال كمّ الأفواه وإحكام الرقابة الأمنية مطلقة الصلاحيات على مختلف مؤسسات المجتمع وأفراده.

لم يختلف اليسار الذي وصل إلى الحكم (حزب البعث بشقيه في سوريا والعراق، على سبيل المثال) عن اليسار الشيوعي والقومي الذي بقي خارج "نِعَم السلطة" من حيث الجوهر، فكلاهما ينهلان من المنبع ذاته. لكنّ مَن وصلوا إلى السلطة لم يتوقّفوا يوماً عن قمع معارضيهم من أخوة العقيدة، إن تطلَّب الأمر، وبكل قسوة. وبقي التلويح بالفزّاعة الإسلامية السلاح الأمضى لتخويف الجماهير من خطر فقدان مكتسباتها التنموية، على محدوديتها، أو، بالأصح، خطر الإسلاميين على بقاء الأنظمة السرمدية ذاتها. لكن، من بمقدوره الضحك على التاريخ، أو منع تحول الفزاعة إلى حقيقة مدمِّرة حين تنغلق أبواب السياسة؟

ليست القوى اليسارية وحدها مَن تفاجأ بالتحولات التاريخية التي حدثت وتحدث في بلداننا، بعد عقودٍ من الركود. ولئن وُجِد تباين إلى هذه الدرجة أو تلك، ومن بلد لآخر، فإنّ القواسم المشتركة تمثَّلت بغياب الحريات، وضعف أو انعدام المشاركة السياسية، وهجرة الكفاءات، والمؤشرات المنخفضة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، والميل للتقوقع في إطار التجمعات الأهلية ما قبل الوطنية؛ وهي العوامل الأساسية في إشعال فتيل الثورات في البلدان العربية.

في ذات الوقت، تخبَّطت معظم القوى الشيوعية، التي تكيَّفت مع النموذج السوفييتي الإشكالي وصدمها انهياره عام ١٩٩١، في حيرتها التاريخية، بعد أن كانت تنام في عسل

الحتمية التاريخية، فاتّجه بعضها صوب الليبرالية[٣٢٥] السياسية أو التيارات الدينية، كتعبير عن خيبة أملٍ عميقة، فيما بقي فريق محدود على حاله عصيّاً على التغيير وقد تحكَّمت بتلابيبه الأيديولوجيا كدين، وأي دين!

لم يكن واقع القوى اليسارية القومية أفضل حالاً، إذ التحق بعض رموزها بأنظمة الاستبداد لينظِّروا لها ويشاركونها ديماغوجيا الصراع ضد القوى الخارجية، الحقيقي وغالباً المفترض، في الوقت الذي عاثت فيه هذه الأنظمة فساداً وتنكيلاً في بلدانها لدرجة يخجل منها أي استعمار!

وهكذا تحول مفهوم اليسار من رافعة للتقدم الاجتماعي إلى تيارات معزولة عن مجتمعاتها بدرجة كبيرة، تلك المجتمعات التي التجأت إلى ملاذاتها الدينية الجاهزة، فراراً من سطوة الاستبداد. لا بل إن بعض القوى اليسارية لعبت أدواراً رجعيةً حين دافعت عن الأنظمة المستبدة، أو سكتت عنها لتخوفها من المدّ الديني، الذي كان، في حقيقة الأمر، وليد اليأس وانسداد الآفاق. لكنّ القوى الإسلامية استفادت من هذه الحالة للاستحواذ على الأصوات التائهة بين الإيمان الصامت والتمرد على الظلم، واستثمرتها في الثورة السورية خير استثمار.

أما اليسار الذي ظلَّ يناهض السلطات فكان فاقداً لنفوذه في الأوساط الشعبية، وهدفاً لكلٍ من الأنظمة الحاكمة والقوى الإسلامية، ما يفسر ضعف تأثير القوى اليسارية في الحراك الشعبي، مقارنةً بالقوى الدينية. نشير هنا إلى أنّ واقع الثورات أفرز في البدايات قوى إسلامية "معتدلة" وذات طابع وطني[٣٢٦]، بخلاف النظرة الإخوانية التقليدية المتمثلة بالعمل في إطار الأمة الإسلامية، لكنّ التطرّف الذي استُقدم من الخارج أطاح بها ومنع تطورها. هذا إلى جانب قوى "الكهنوت الديني" التي أدمنت ممالأة السلطات والعيش على موائدها عبر التاريخ.

وهكذا، حين فتحت الثورات الآفاق نحو الحرية وتقدمت الشعوب للتعبير عن نفسها، فشلت قوى اليسار والديمقراطية في التقاط هذه اللحظة التاريخية الفريدة من أجل استعادة مفهوم اليسار الملازم للتقدم، بكل ما يعنيه في مجالات الاقتصاد والسياسة والحريات، والقطع نهائياً مع الأنظمة الشمولية وسياساتها، ذلك على الرغم من المشاركة الخجولة لآلاف اليساريين في الفترة

---

[٣٢٥] حول مفهوم الليبرالية وعلاقتها بالديمقراطية، يمكن الاطلاع على الحوار الالكتروني على الرابط التالي:
file:///E:/أبحاث/خاصة%٢٠مقالات/منير%٢٠شحود%٢٠و%٢٠حسان%٢٠الجمالي%٢٠%٢٠ندوة%٢٠حوارية%٢٠حول%٢٠الليبرالية%٢٠السياسية%٢٠وآفاق%٢٠الثورة%٢٠السورية%٢٠_%٢٠التجمع%٢٠السوري%٢٠من%٢٠أجل%٢٠الديموقراطية%٢٠-%٢٠

[٣٢٦] كنت قد صادفت مثل هؤلاء في زياراتي لأماكن التظاهرات بريف دمشق، واعتبرتهم امتداد لقوى الإسلام "المعتدل" الذي ساد في خمسينات القرن العشرين على وجه التحديد.

السلمية. وأصبحت الاحتجاجات، لأنها شعبية وغير منظمة، مطيّة لقوى متطرفة وانتهازية تتحرك في فوضى "خلاقة[٣٢٧] ومدمرة" ساهمت في خلط الأوراق وإرجاء عملية التغيير التاريخية.

مع ذلك، بوسع الأحزاب اليسارية الاستفادة من الدرس لاستعادة نشاطاتها الاجتماعية والعمل على تحقيق مصالح الفئات التي تمثلها ومصالح المجتمع ككل أيضاً. هذا مرهون باعتمادها ديناميكية جديدة تبتعد كل البعد عن طريقة التنظيم الكلاسيكية المركزية الديمقراطية، وتستند إلى العمل الحر والتفاعل المتنوع والسياسة الاجتماعية المرنة، التي تأخذ بالحسبان التداخلات والتحولات الطبقية في ظروف التقدم التكنولوجي.

يساعد تجدُّد الدور اليساري لناحية لبرلته اجتماعياً على استعادة التوازن المطلوب في المجتمع، والوقوف في وجه قوى الاستغلال على اختلافها، والتعبير عن مصالح أوسع الفئات الشعبية، ومنافسة القوى الدينية في هذا المضمار. كما تعدّ البرامج الاجتماعية الطموحة التي تشارك فيها القوى اليسارية باقي القوى الديمقراطية، كالنقابات والجمعيات وحركات المجتمع المدني، تعدّ مجالات رحبة للعمل الخدمي الذي يقود النجاح فيها إلى تحقيق انجازات سياسية وانتخابية تعزز من دور اليسار وتعيد الثقة شبه المفقودة بسياساته.

يمكن أن يتم ذلك من خلال دعم المبادرات الفردية والعمل على مواقع وشبكات التواصل الاجتماعية التي تؤمن سرعة تبادل المعلومات والخبرات، ما يجعل الحزب، أي حزب، تحشيداً لمجموعة من الطاقات الحرة المتجددة، بعيداً عن المركزية والأوامرية.

***

من جهة ثانية، أساء ربط الكثير من الأنظمة الدكتاتورية العربية بالعَلمانية[٣٢٨] إلى مفهوم العلمانية ذاته بصورة خطيرة. لم تكن هذه الأنظمة عَلمانية بالمعنى العميق للكلمة، ولم تبن دولاً محايدة تجاه المجتمع، لا بل أنها سوّغت حكمها بالدين أيضاً، دون أن ننسى الرغبة الأكيدة لقوى الإسلام السياسي في تشويه فكرة العَلَمانية باعتبارها نقيضاً لمشاريعها الاستبدادية النكوصية.

إن إعادة الاعتبار للعَلمانية والتصدي للتشويه الذي تلاقيه على أيدي الاستبداديين، من إسلاميين و"علمانيين" مزيَّفين وغيرهم، يعدُّ أيضاً مهمة ملحّة. فالعَلمانية هي الحاضنة الاجتماعية الحديثة لكل الأديان والمذاهب والإثنيات في مجتمع يقوم على حيادية مؤسسات

---

[٣٢٧] الفوضى الخلاقة Creative Chaos: طغى هذا المصطلح على السطح بعد تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية كوندليزا رايس لصحيفة الواشنطن بوست، إبان الاحتلال الأمريكي للعراق عام ١٩٩٥، حول نشر الديمقراطية في المنطقة. يعني هذا المصطلح خلق حالة فوضى معينة قد تكون مقدمة لحالة سياسية أرقى في المجتمعات التي وصلت إلى حالة استعصاء.

[٣٢٨] العَلَمانية LAICITE تعني فصل الدين عن الدولة مع المحافظة على حرية الاعتقاد أو عدمه وممارسة الجميع لهذا الحق والدفاع عن حرية اختيار الدين والمعتقد. لا تتدخل السلطات في معتقدات المواطنين مهما تكن، ولا تتبنى ديناً رسمياً للدولة، فالدولة ليس لها دين وإنما الدين للأفراد. كما تعني العلمانية الفصلَ بين العلم والدين لاختلاف مسارهما وتطورهما ومجالي عملهما.

الدولة ومساواة المواطنين أمام القانون، فضلاً عن التوجهات الليبرالية الإنسانية المتعلقة بحماية الحريات والإبداع وتحرير الطاقات الاجتماعية الإيجابية، والمساواة بين الرجال والنساء.

مَن يعارض العَلمانية، كمشروع جامع وحيادي، فإنه يريد تمرير مشروعه الاستبدادي الخاص به، وهذه هي حال الإسلاميين الذين يتحججون بـ: "ثقافة مجتمعنا" و"تعاليم ديننا" و"طبيعة شعبنا"، لتمرير مشروعهم، مستفيدين من انغلاق ثقافي وتجهيل اجتماعي مديد، والخلط، بمكر، بين فصل الدين عن مؤسسات الدولة وفصل الدين عن المجتمع!

خاتمة

إذا كان التطرُّف يجلب التطرُّف، فإنّ التحوُّل في سلوك الإخوان المسلمين نحو العنف الطائفي أواخر السبعينات لا ينفصم عن الممارسات الطائفية لسرايا الدفاع في ذلك الحين. فقد اختلطت الأفعال الدموية والردود عليها[٣٢٩].

على العموم، كان الإخوان الطرف المعارض الوحيد المستعدّ لرفع راية "المظلومية السنية" مقابل فكرة "المظلومية العلوية" التاريخية التي سوّقها الطرف الآخر بنعومة ليستقوي بالطائفة العلوية، مغطِّياً إياها بقشرةٍ من الشعارات "القومية والتقدمية".

لم يكن سلوك سرايا الدفاع والإخوان آنذاك سوى (بروفة) لما سيجري في عام ٢٠١١، حيث لم يلبث أن تقابل القمع السلطوي مع ثنائية الأسلمة– العسكرة في خضم الفوضى التي استشرت بعد عقود من "الضبط الأمني" للمجتمع، وما نجم عن ذلك من وأدٍ لمطالب السوريين المشروعة في التخلص من الاستبداد والانتقال إلى حالة أرقى سياسياً واجتماعياً.

***

بدأت الانتفاضة السورية ٢٠١١ وطنية الهوى بقلب إسلامي شعبي سوري، محاطةً بقوى مختلفة يميناً ويساراً، واستيقظت على هامشها قوى برجوازية وطنية كان قد تم تهميشها منذ الخمسينات، وهي التي طالما اعتُبرت وريثة للتقاليد السورية العريقة في التجارة والصناعة، وتصنف في صف الإسلام الليبرالي المعتدل. إنَّ عودة السياسة إلى هذه البرجوازية وطبقتها الوسطى كان يمكن أن يساهم في تصحيح وضع تاريخي ويعيد التوازن إلى المجتمع السوري، وإن إسلاماً معتدلاً، في ظل دستور علماني، يمكن أن يشارك بالحكم بفعالية، طالما أنه يحترم الحريات الفردية ولا يكفِّر معارضيه، ويتقيّد بدستور وطني منيع، وربما مبادئ فوق دستورية أيضاً.

لكن، بسبب القمع والطابع الشعبي للاحتجاجات وعدم وجود تمثيل معارض وطني فعال، اتجه معظم الثوار تدريجياً، خلال ٦ أشهر، لتأكيد ذواتهم من خلال الردّ على النظام بمشروع

---

[٣٢٩] في ١٦ حزيران ١٩٧٩، قام الضابط المناوب ابراهيم اليوسف بجمع طلاب الضباط في قاعة الطعام على أساس طائفي، وإطلاق النار عليهم بمساعدة عناصر من "الإخوان المسلمين" تم الاتفاق معهم مسبقاً. وستقوم سرايا الدفاع (بخاصة بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس حافظ الأسد في ٢٦ حزيران ١٩٨٠) بالانتقام بأساليب من الطبيعة ذاتها، بما في ذلك مجزرة تدمر بتاريخ ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٠، حيث تمت تصفية المئات من معتقلي الإخوان داخل حجرات السجن.

http://www.shrc.org/?p=6788 http://www.shrc.org/?p=21413

https://ar.wikipedia.org/wiki/مجزرة_سجن_تدمر

معاكس يتبنى فكرة "الإسلام هو الحل" بأشكال مختلفة، في الوقت الذي كانت فيه شرر الصراع المذهبي السني– الشيعي تتطاير من عمق الرماد لتشعل جزر النار هنا أو هناك. ساهم ذلك في رسم خط نارٍ يحتشد على جانبيه طرفان مستعدان للذهاب بالحرب إلى نهايتها، فتمّ استبعاد النشاطات السلمية، ومعها أهداف الثورة أيضاً، وذلك لتعارض هذه النشاطات الديمقراطية مع أهداف الطرفين المتحاربين اللذين يتوسّلان العنف لتحقيق مآربهما.

بدأ ذلك بإطلاق تسميات إسلامية لأيام الجُمع، ومن ثم انسحبت مثل هذه التسميات على كتائب "الجيش الحر" كإشارة إلى المنحى الذي سيتّخذه سير الأحداث، بخاصة فيما يتعلق باستبدال مؤسسات الدولة الحديثة بهيئاتٍ ومحاكم شرعية، كأساليب في الحكم والإدارة لم تعد تصلح لهذا العصر. حدث مثل ذلك إبّان الثورة الإيرانية (١٩٧٩)، حيث استفرد الإسلاميون بمنجزات ثورة شعبية، بعد سلسلة من عمليات إقصاء للخصوم المشاركين في الثورة، إلى أنْ نصَّبوا خليفة لله على الأرض– الوليّ الفقيه! لكنّ الواقع السوري المعقد لم ولن يسمح بتحقيق طموحات الإسلاميين، اللهم إلاّ على حساب بقاء سوريا ذاتها.

هكذا، على نحو تدريجي، بدأت شعارات الثورة السورية بالانزياح من الوطنية إلى الدينية. يمكن تفسير ذلك، جزئياً، باليأس والحصار والتردُّد العربي والدولي في إبداء الدعم المطلوب، إنما، وبدرجةٍ أكبر، بمصادر التمويل واشتراطاتها التي لا تتقاطع مع أهداف الثورة السورية، وتهدف إلى ودفع التطرُّف بعيداً عن أنظمة الخليج، ولو مؤقتاً، فكان الشَّحن الطائفي التقسيمي من لزوميات المعركة الجديدة، التي تفرغ مجتمعات الخليج من أخطر العقائديين المتطرفين. ساهم في ذلك أيضاً إطلاق النظام للكثير من السجناء السلفيين الذين قاتلوا في العراق[٣٣٠]، علاوة على بروز القوى الإسلامية بعد انتفاضتي تونس ومصر، ما أعطى دفعاً لهذا الاتجاه في الثورة السورية.

لم تقم الثورة السورية في الأساس كمشروع حرب أهلية؛ إنها كانت ثورة الحرية والكرامة واستعادة الحقوق المسلوبة، وما أكثرها، وإن أية ردود أفعال طائفية واستبدال الحرية بالجهاد هي طعنة في ظهر الثورة، وثورة مضادة بكل ما يعنيه هذا المصطلح.

***

---

[٣٣٠] تم إطلاق صراح العديد من الجهاديين بموجب العفو الرئاسي بتاريخ ٢٠١١/٥/٣١ وما تلاه. حارب هؤلاء الأمريكان في العراق بالتنسيق مع مخابرات النظام السوري وشيوخه، مثل الشيخ أبو القعقاع (اسمه الحقيقي محمود قول آغاسي، سوري الجنسية كردي القومية ومن سكان حلب)، ولكنهم صاروا عبءاً على النظام بعد عودتهم، فوضعهم في سجن صيدنايا. ثم تم اغتيال الشيخ القعقاع بعد خروجه من أحد مساجد حلب في ٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٠.
http://www.alarabiya.net/articles/2007/09/30/39768.html

هدف الحل الأمني منذ البداية إلى عزل المتظاهرين والدفع بهم إلى التسلُّح والتشكيك بوطنيتهم، انطلاقاً من مفهوم مبتسر للوطنية سوَّقه الاستبداد خلال عدة عقود، والذي جعل من أفراد الشعب عبيداً لمشاريع قومية هوامية[٣٣١]. كما حشدت السلطة مؤيديها وغيرهم منذ البداية مستغلة هيمنتها على مؤسسات الدولة، فساهمت في تقسيم المجتمع وفقدت دور الحَكَم.

لم يكن الحل الأمني ناجعاً في مواجهة التحركات الشعبية الكبيرة، مثلما أثبت نجاعته في قمع الأفراد والأحزاب، كما لم يستطع الموالون للنظام بلورة موقف أخلاقي ضد الحلّ الأمني، وصاروا يرون الاستثناء عوضاً عن القاعدة؛ أي يرون جريمة صغيرة إن حدثت من الطرف الآخر ولا يرون جريمة كبيرة يرتكبها موالون للنظام، ربما انطلاقاً من وعي أنّ السلطة يحق لها ممارسة العنف، ولكنْ؟

السلطة هي التي تحتكر العنف عند تطبيقها للقوانين في الظروف العادية، وحين لا يكون ثمة خلاف على شرعيتها، فكيف بسلطة لم تحاكم حتى مسؤولَين اثنين تعاملا بصورة تفتقر للحكمة والمسؤولية في أحداث درعا ومقدماتها منذ البداية[٣٣٢]، وتعمل مؤسستها الأمنية كحكومة ظلّ مستخفة بكل قانون، ما أفضى لخروج الناس عليها في الشوارع؟ كانت تلك نهاية أسطورة "الاستقرار الأمني."

***

مثلما أنكر النظام وجود تحرك شعبي احتجاجي ضدّه، أنكر بعض المعارضين الكثير من الوقائع على الأرض، أو اعترفوا بها بعد أن شاعت، لكن من باب تبريرها. فعندما تقول لهم يوجد مجرمون يتلطَّون وراء الثورة يكون ردّهم: "الشبيحة هم المجرمون"، وحين تحذّرهم من خطورة التجييش الطائفي يردّون بأنّ النظام طائفي!

كما لم تقم قوى المعارضة الفاعلة و/ أو المتسلِّقة في/ على الثورة بتوضيح ما يجري على الأرض وفك لغز "الجيش السوري الحر" وتوضيح بنيته وتوجهاته وارتباطاته، وكيف تم استغلاله لتمرير حملة تسليح إسلامية، ليتحوَّل، بقصد أو بدونه، إلى طرف في ما يشبه الحرب الأهلية، وليصبح الشعب بين براثن استبدادين؛ دنيوي وديني.

أغمض النظام عينيه عن استحقاق ضرورة تجاوز حالة الاستبداد، وأغمضت المعارضة المتسلقة على الثورة عينيها عن التطرُّف القادم من الخارج ليطيح بما تمثله هذه الثورة. نجم عن ذلك، فضلاً عن عوامل أخرى، نتائج مأسوية ساهمت في الوصول إلى أقصى حالات التطرُّف، وما استتبعه ذلك من التدخلات الخارجية!

---

[٣٣١] خيالية أو حالمة.

[٣٣٢] المقصود المحافظ ف. ك. ورئيس فرع الأمن السياسي في درعا ع. ن.، اللذان اعتُبرا مسؤولين عن تفاقم الاحتجاجات.

كان على السياسيين المعارضين الارتقاء إلى مستوى التضحيات في مواقفهم، والعمل على سلمية الثورة، كخطٍّ مركزي، ووضع العمل المسلح في إطار هذا الهدف، وإدانة العسكرة الفوضوية، لا الصمت عن تجاوزاتها. وحتى لو لم تجرِ الأمور في هذا الاتجاه، لكثير من الأسباب، فإنّ ذلك لا يبرر لهؤلاء السياسيين سقطاتهم الوطنية، ولا الاستمرار في التأكيد على ذلك، ضماناً لتحقيق الأهداف المعلنة.

بالنتيجة، تكامل عمل النظام مع ممارسات معظم معارضيه للدفع باتجاه رسم خطوط الصراع، بحيث تبدو، أو تكون بالفعل، حرباً أهلية يضيع فيها الاتجاه الذي تتحقق فيه التطلعات المشروعة للشعب السوري في الحرية والكرامة، بالمعنى السياسي والقانوني والحضاري. في هذه الأثناء، انزاح جوهر القضية، المتمثِّل بالتخلص من نظامٍ مستبدّ، إلى استحضار صراعات مذهبية، على رأسها الصراع السني– الشيعي، وليصبح السوريون ضحايا تصارع مصالح خارجية يُراد لها أن تتحقَّق على حساب دمائهم. وتشظَّت الحقيقة في هذه الحرب، كما في كل حرب!

بعد أن اتَّخذ الصراع منحىً أهلياً بصبغةٍ طائفية، وتقلّصت نشاطات الثورة المدنية؛ بسبب اشتراطات الفصائل الإسلامية، اقتنع العالم بأنْ لا حلَّ للمشكلة السورية إلاّ بالتوافق السياسي، وخرج اتفاق جنيف١ المتضمن تشكيل هيئة سلطة انتقالية في أواسط ٢٠١٢.

***

حملت الانتفاضات التي حصلت في منطقتنا قوى الإسلام السياسي والجهادي إلى الواجهة؛ بسبب فشل المشاريع القومية واليسارية التي تسلقت على محاولات التنوير منذ بداية القرن العشرين، من دون أن تتبناها في العمق. لكن، ونظراً لرفضها العمل بأساليب الحكم المعاصرة ونزوعها للاستبداد، بدأت القوى الإسلامية هذه بالانكشاف كقوى معادية للديمقراطية وآمال الشعوب في العيش الكريم. كما ساهمت العديد من التطورات في تحطيم آمال الإسلام السياسي في التنعُّم بالسلطة والاستفراد بها؛ فقد حدثت ثورة مصر الثانية في ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٣ وعاد العسكر إلى الواجهة بعد سنة من حكم الإخوان المسلمين[٣٣٣]، وتراجعت حركة النهضة[٣٣٤] إلى المرتبة الثانية في تونس بعد فوز مرشح حزب نداء تونس العلماني في الانتخابات الرئاسية[٣٣٥]. كما بدأت الصدامات بين الجيش الليبي والمتطرفين الإسلاميين منذ

---

[٣٣٣] استغل/ استجاب الجيش المصري لموجة الاحتجاجات ضد حكم الإخوان المسلمين الإقصائي في ٢٠١٣/٦/٣٠، وعاد إلى الساحة السياسية.

[٣٣٤] لاحقاً، بتاريخ ١٩ أيار ٢٠١٦، أعلن راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة عن أنّ الحركة ستخرج من الإسلام السياسي ، مدشناً بداية تحول مثير ومأمول في حركات الإسلام السياسي، ولا ينفصم ذلك عن واقع بذور التنوير التي نمت في عهد الرئيس بورقيبة منذ خمسينات القرن العشرين. www.dw.com/ar/الغنوشي-حركة...من/a-19269137...

[٣٣٥] أعلن فوز القائد السبسي في الانتخابات الرئاسية التونسية بتاريخ ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٤.

أواسط شهر أيار/ مايو ٢٠١٤، ودخلت الحرب على الإرهاب في سوريا والعراق حيّز التنفيذ في النصف الثاني من عام ٢٠١٤.

ليس من الحكمة في شيء أن نفرح بعودة العسكر إلى الحكم، الذين سيعيدون تثبيت مفاصل المجتمع إلى حين، لكنه حكم الضرورة للحيلولة دون تمكّن أولئك الذين لا يمكنهم التماشي مع روح العصر والعمل من خلال آلياته أو الانتقال إلى مستقبل تسوده دولة القانون والمواطنة والحريات، وهو الحلم الأساس لمَن انتفض في وجه الأنظمة العربية المستبدة.

وطالما لم تحدث تطورات عميقة في الوعي للانعتاق من "سحر" الماضي وأوهامه، ستبقى مجتمعاتنا بين فكي كماشة العسكر والإسلاميين، وستعمل الجيوش العربية على احتكار السلطة لتأمين الاستقرار بالقوة، أو لحماية التحولات الديمقراطية، إن وجدت، وكأن التاريخ يعيد نفسه فيما يتعلق بالتجربة التركية[٣٣٦]، مع أنّ الفرق الجوهري هنا يتمثّل بأنّ تركيا كانت قد وضعت دستورها العلماني وسارت على هداه، الدستور الذي هو ما منح الجيش، كمؤسسة، حقّ التدخل للحفاظ على النظام العلماني.

بعد تونس، وخاصة مصر، ومؤخراً ليبيا، ربما سيأتي دور الجيش السوري الجديد المُعادة هيكلته بعد تحقّق الحل السياسي المزعوم، ليساهم في المعركة ضد قوى التطرُّف الدينية، التي لم تستطع، من فرط ما تحمل من أثقالٍ تاريخية، تجاوز الفهم الضيق للتراث إلى الفضاء التاريخي والإنساني المفتوح، نظراً لحاجتها لكمٍّ كبير من العنف، في محاولاتها العدمية للعودة إلى صورة متخيلة لحقبة تاريخية مضت ولن تعود.

تُعَدُّ القدرة على التلاؤم مع متطلبات العصر من أهم عناصر تفوُّق القوى الطامحة إلى التغيير، وهذا ما لا يمكن أن يفعله الإسلاميون الطامحون للتسلُّط بقوّة السلاح، حيث تشكل الفوضى واستغلال العواطف الدينية للبسطاء ميدانهم الرئيس، وذلك قبل أن يستيقظ الناس على هول ممارساتهم ونفاقهم.

غنيٌّ عن القول أيضاً أنّ الأنظمة الاستبدادية غير قابلة للإصلاح، ومن أسباب استمرارها عدم القناعة بالبدائل التي تطفَّلت وتتطفَّل بالقوة على عملية التغيير، بخاصة قوى الإسلام المتطرف. وفي لعبة الصراع بين الاستبدادين الدنيوي والديني، يتبين مدى تلازمهما وحاجة كلٍّ منهما للآخر، إذ يستحيل الوصول إلى حكم مدني ديمقراطي من دون تجاوزهما معاً،

---

[٣٣٦] اعتبر الجيش التركي نفسه حامياً للقيم العلمانية التي أسسها زعيمه التاريخي أتاتورك، والتي تعتبر جوهر الديمقراطية في تركيا. يعتبر الفشل المدوي للانقلاب الأخير الذي قام به جزء من الجيش في ١٥ تموز ٢٠١٦ (وليس كمؤسسة كاملة، كما كان يحدث في الانقلابات السابقة) إيذاناً بانتهاء دور هذا الجيش كحامي للعلمانية، بعد أن نزل الكثير من الأتراك إلى الساحات لحماية الديمقراطية والعلمانية التركيتين تحت راية العلم التركي، وليس لخدمة أجندات حزب العدالة والتنمية الحاكم.

ولحين تحقُّق ذلك، من خلال عوامل مختلفة قد تكون الحرب على الإرهاب إحداها، ستبقى منطقتنا أرضاً جاذبة للعنف ومصدِّرة له إلى بلدان بعيدةٍ أيضاً.

تبقى لبعض البلدان خصوصياتها في التطور، الذي قد يأخذ أشكالاً تدريجية من التنازلات السلطوية، في محاولة للتكيُّف مع التحولات الاجتماعية البطيئة وامتصاص الأزمات التي تحدث في قاع المجتمع. رأينا بعضاً من هذه المعالم الإصلاحية في المغرب[٣٣٧]، كمثالٍ واقعي لما يمكن أن يحصل في الممالك والإمارات العربية.

***

تتطلَّب مناشدة الآخرين تقديم المساعدة للشعب السوري في التخلص من نظام الاستبداد وتفكيكه، تتطلب تقديم تصوّر واضح لمستقبل سوريا لكل أبنائها، تحضيراً لمرحلةٍ انتقاليةٍ وسيطة يبدأ فيها التئام الجراح وإعادة بناء بلدنا المنكوب، وبمساعدة دولية فاعلة قد يتمثّل حدها الأدنى بكبح الصراع الإقليمي على سوريا، كما حدث بعد التوافق الروسي- الأمريكي وفرض وقف الأعمال العدائية في ٢٧ شباط/ فبراير ٢٠١٦. وطالما لم يتوقف القتل والعنف، لن يكون بوسع السوريين التعبير عما يريدون، وقد حولتهم المعارك إلى نازحين ولاجئين ومحاصرين وعاجزين، وبصورة تدمي أقسى القلوب.

كما لن يكون أيّ حوار ذا معنى ما لم يكن من أجل الانتقال بسوريا إلى مرحلة تجري فيها كتابة مبادئ فوق دستورية ودستور[٣٣٨] يتفق عليها/ عليه السوريون ويطمئنون إليها/ إليه، ويعيشون تحت مظلة القوانين والأنظمة التي تنبثق عنها/ عنه، وقد أخذوا أبلغ الدروس مما تسبب به هذا التدخل في السنوات الأخيرة.

وسيساهم توازن السلطات وتوزيعها في ضبط كل منها ومراقبتها لإبقائها تحت راية الدستور والقضاء، إلى جانب تحفيز مختلف منظمات المجتمع المدني، بما في ذلك المشاركة الفعالة للشباب للنساء، من أجل أن يعبر الناس عن مصالحهم في إطار لا مركزي يأخذ كل الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لمختلف المكونات السورية بالاعتبار، بحيث يتناسب التطور مع حاجات الناس ولا يُفرض عليهم فرضاً، مع أنّ احتمال تشظّي سوريا ما زال قائماً؛ بسبب كثرة التداخلات الدولية وتضارب المصالح المرتبط بها.

لا يمكن للانفجار السوري أن يكون عكوساً، وستحمل الأيام القادمة معها مصاعب كبيرة بسبب إهمال الحلول الاجتماعية والاقتصادية لعقود، والدمار الهائل المادي والروحي في السنوات

[٣٣٧] مع اندلاع الاحتجاجات في المنطقة العربية في ٢٠١١ أعلن الملك المغربي عن تعديلات دستورية وإصلاحات.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/4E3698A4-F299-4896-A91B-D34F3A1AABA9.htm

[٣٣٨] الدستور الذي تكون مرجعيته أساساً هي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كخلاصة للقيم الدينية والإنسانية على مر العصور.

الأخيرة. لعل الخطوة الأولى تتمثل في اقتناع السوريين بمشروع المواطنة المتساوية أمام القانون، وذلك من أجل أن نضمن لأجيال سوريا القادمة العيش والاستقرار والتطور من دون اهتزازاتٍ مدمرة، حينئذٍ، قد يتحول التنوُّع الديني والقومي والثقافي إلى مصدر غنىً لسوريا المستقبل.

فهل سيتقبل السوريون عملية التغيير الديمقراطي؟ يستند هذا التساؤل إلى استنفاذ شبه تام لطاقة الصراع في سوريا وتحوّله إلى لعبة دولية وإقليمية، مع تزايد قناعة الكثير من السوريين الواقعين في تقاطع النيران بضرورة وقف الحرب ونبذ المواقف المتطرفة لصالح حالة انتقالية تمهّد لتغيرات مستمرة، ولو بطيئة، في الواقع السوري المنهك، إذ أنّ ذلك أفضل بكثير من استمرار القتل والدمار، على أن يبدأ الأمر من حيث انتهى؛ أي من الحلقة الدولية المؤثرة والضامنة لخروج كل الميليشيات الطائفية من سوريا، فلا بديل عن التوافق الدولي في المدى المنظور، والذي يأخذ الآن طابع احتلال مباشر أو نفوذ على الأرض، كمرحلة مؤقتة وكافية لانتعاش المجتمع السوري المنهك.

في غضون ذلك، يتزايد إدراك الناس لمخاطر الاستبدادين السياسي والديني معاً، أو كلّ على حدة، بعد أن ذاقوا الويلات من حربهما المدمرة التي اعتاشت على دمهم وحريتهم وكرامتهم، ما قد يساهم في تعبيد مسار التطورات المنتظرة.

يشكل الاستبداد الديني حالة كامنة وأرضية مناسبة لنشوء الاستبداد السياسي بسبب امتزاجه بثقافة الناس العاديين، وقد ارتبط الدين في أذهانهم بممارساتٍ طقوسية في مذاهب متعايشة في أفضل الحالات. لم تتغير هذه الحالة جوهرياً منذ العهد الأموي، وحان الوقت للتفكير بنظام سياسي جديد ينبثق من عدمية الصراع الحالي، ويحقق حلم السوريين بحياة حرة كريمة.

أواخر تسعينات القرن المنصرم، في نهاية إحدى محاضراتي بجامعة تشرين في اللاذقية، اقترب منّي أحد الطلاب، ودعاني بلطفٍ، لكن بثقة، لتطبيق أركان الإسلام، وقال بأنّ تفانيَّ في العمل ومعاملتي الحسنة لطلابي مرهونةٌ بالتزامي الديني، الذي سيكتمل من خلاله إيماني كمسلم؛ فالدين عند الله الإسلام!

استناداً إلى هذه النظرة التبسيطية المتوارثة، ومهما أتقن عمله وصَلُح سلوكه، يبقى الفرد بحاجة إلى "صك غفران" ديني من هذا المذهب أو ذاك، بخلاف مبرر وجود الأديان ذاتها، وهو العمل الصالح على قاعدة "خير الأعمال ما ينفع الناس"، وأنّ الطقوس التي يمارسها المؤمنون ليست سوى تعبيرات شكلية وعلاقات خاصة مع مَن يعبدون. وعلى الرغم مما تبدو عليه دعوة الطالب هذه من براءة، فقد يُشتقُّ منها طيفٌ من الممارسات التي تصل إلى حدّ التكفير في ظروفٍ تستيقظ فيها الفتن والصراعات المذهبية والدينية، كما يحدث في بلدنا منذ عدة سنوات بغية تأجيل تحرُّر السوريين وانعتاقهم.

ثمة الكثير من الشعوب التي عرفت قيماً اجتماعية مهمة من دون أن ترتبط بدين سماوي (الشعب الياباني على سبيل المثال لا الحصر)، وإن منبع القيم ليس محصوراً بعقيدة محددة، سماوية أم أرضية، إنما يتعلق بتراكم التجارب الإنسانية وتطور النظم الأخلاقية والسياسية، لا بل إنّ تمثُّل هذه القيم بذاتها؛ أي من دون ربطها بالمقدّس، قد يكون ترياقاً يقي من الممارسات التي تحدث باسم الدين، وتبرِّر حتى القتل براحة ضمير منقطعة النظير.

أما فيما يتعلق بحالة الاستبداد السياسي في سوريا، فقد أثبتت الوقائع، سواء ما كان منها قبل اندلاع الاحتجاجات أو بعدها، استحالة حدوث التغيير بآلياتٍ من داخل السلطة ذاتها. على سبيل المثال، لم يفضِ رفع المادة الثامنة من الدستور السابق قبل عام ٢٠١٢، التي تقول بأن حزب البعث هو قائد الدولة والمجتمع، إلى أي تغيير في مفاصل بنية الإدارات المتكلسة، والأنكى من ذلك أنّ التلاميذ ما زالوا يرددون هذه الشعارات في باحات المدارس!

واتّضح الآن أكثر من أي وقت مضى أنه من شبه المستحيل حدوث تتغير في القوانين والأساليب التي تعمل بوساطتها أجهزة الدولة من دون تغيير البنية السياسية ذاتها، وإن تراخي القبضة الأمنية في المناطق التي يسيطر عليها النظام لا يعود إلى تغييرٍ في السياسات، إنما تفرضه فداحة الخسائر التي تتكبّدها المجتمعات المحلية، وخطورة العبث في واقعٍ أضحى مفرطَ الحساسية.

لقد عانت مجتمعاتنا الويلات من تحالف الدين والسياسة على مر التاريخ، وكان الدين عباءةً تستظلّ بها المصالح السياسية والمادية. وعلى الرغم من تضافر جهود طرفي الاستبداد للسيطرة على المجتمع، لم يخلُ الأمر من شقاق بينهما أحياناً، ومن وقتٍ لآخر، دون أن يخلَّ ذلك بالتوازن القائم، مثلما لم تؤثر الخلافات ضمن هذا الطرف أو ذاك على ثبات التحالف المذكور أيضاً، والذي لا يلبث أن يعود إلى حالة الاستتباب، ويعيق أية محاولات إصلاحية.

في التحالف السياسي- الديني، يتمّ تقاسم المهامّ بين طرفي المعادلة على نحوٍ غريزي، إذ يعمل الاستبداد الديني، وبالذات تبرعماته المتطرفة، على إخضاع الحريات الفردية إلى منظومته شبه المغلقة ما يحدّ من الإبداع في مختلف المجالات، بخاصة في العلوم الإنسانية والاتجاهات الفنية التي تؤنسن الفرد أكثر وتربطه بمنظومة القيم الإنسانية. في المقابل، يركز الاستبداد السياسي على إخضاع الفرد لمنظومة الرأي الواحد عبر أيديولوجية ما أو شخصية "القائد الرمز"، تاركاً له ممارسة غرائزه بحريةٍ نسبية، ما يفضي، في نهاية المطاف، إلى مسخ شخصيته، فضلاً عن التعامل معه كخصم سياسي عليه أن يثبت موالاته وخضوعه على الدوام.

استمر هذا "النموذج" في الحكم حتى ارتجّ الواقع السوري عام ٢٠١١، ومن ثم دخوله في متاهاتٍ غيّبت البديل الديمقراطي المُنتظر كإطارٍ للحلّ، والذي كان من المرجّح أن يقطع تدريجياً

مع طريقة الحكم السابقة، ويضع أسس دولة دستورية تُخضع الفرد لحاجات المجتمع بوساطة سلطة الدستور والقانون.

مع ذلك، تشير معطيات اللحظة الراهنة، ومن خلال الحوارات الحيّة التي تحدث في الداخل على الأقل، إلى حدوث تحوُّلات في وعي الكثير من السوريين، تبعاً للظروف السائدة في كل منطقة، وتتلخّص برفض استمرار الحرب، وضرورة وجود الرأي الآخر كحالة طبيعية للبحث عن الحل الوطني المنشود بمشاركة الجميع، ما يساعد في تقبُّل فكرة التغيير باتجاه دولة القانون والمواطنة، بما في ذلك استبعاد هيمنة الفعاليات الدينية و"الأمنية" عن منظومة الدولة الإدارية.

ومع أن العامل الدولي كان، وما يزال، أحد العوامل الرئيسة في تفاقم الوضع، فقد يفضي اتفاق الدول المؤثرة على وقف الحرب واعتماد السياسة إطاراً للحل إلى تجلّي ملامح الوعي المذكورة أعلاه في حراكٍ اجتماعي متزايد تلتقي روافده وتتبلور في مشتركات وطنية، وعبر مرحلة وسيطة تشكل العدالة الانتقالية ركناً أساسياً منها، ما يمهد لنشر أفكار التسامح وتركيز الجهود باتجاه البناء والتنمية.

مهما بدا الوضع قاتماً، فثمة ضوء في آخر النفق إنْ تمكَّنا من إدارة مواردنا المتعدّدة، والقطع مع تاريخنا الاستبدادي، واعتماد اللامركزية في إدارة معظم شؤوننا. إنّها مهمة هائلة تتطلّب تشكيل وعي وطني سوري جديد، ولنا في تجارب البلدان الأخرى، التي تجاوزت حالات الدمار المادي والبشري، خير مثال.

ملاحق

[i] إعلان بيروت- دمشق هو بيان موقع من قبل مثقفين سوريين ولبنانيين تم فيه انتقاد السياسات السورية واللبنانية، واقتراحات للخروج من حالة التوتر التي سادت بعد الانسحاب السوري من لبنان. ردت السلطات السورية باعتقال بعض موقعي البيان وفصل الموظفين الحكوميين منهم. تم توقيع البيان في بيروت بتاريخ ٦-٤-٢٠٠٦.

النقاط الأساسية كما جاءت في البيان

...تأسيساً عليه، وفي زمن تتكاثر فيه العوامل الضاغطة من أجل المباعدة بين السوريين واللبنانيين، نعلن إصرارنا على الحوار والتضامن والعمل المشترك من أجل التصحيح الجذري للعلاقات بين البلدين والشعبين وفقاً لرؤية وطنية مستقبلية مشتركة هذه بعض مكوناتها:

- أولاً: احترام وتمتين سيادة واستقلال كل من سوريا ولبنان في إطار علاقات ممأسسة وشفافة تخدم مصالح الشعبين وتعزز مواجهتهما المشتركة للعدوانية الإسرائيلية ومحاولات الهيمنة الأميركية. وإننا ندعو في هذا المجال إلى إرساء تلك العلاقات على أسس نابذة لمشاريع الإلحاق والاستتباع من جهة والاستعلاء والتقوقع والقطيعة من جهة أخرى. في هذا الصدد، يطالب المشاركون السوريون بضرورة الاعتراف السوري النهائي باستقلال لبنان ومغادرة كل تحفظ ومواربة في هذا المجال. ويعلن المشاركون السوريون واللبنانيون معاً تمسُّكهم الحازم بالحيلولة دون أن يكون لبنان أو سوريا مقراً أو ممراً للتآمر على البلد الجار والشقيق أو على أي بلد عربي آخر. وإننا معاً نرى أن الخطوات الأولى في هذا الاتجاه تتمثَّل بترسيم الحدود نهائياً والتبادل الدبلوماسي بين البلدين.
- ثانياً: نعلن تمسكنا بحق سوريا في استعادة كامل أراضيها المحتلة في الجولان واستعادة لبنان أرضه التي لا تزال محتلَّة في مزارع شبعا وتلال كفرشوبا بكافة الوسائل المتاحة بعد الإعلان الرسمي السوري عن لبنانيتها تحت مظلة الشرعية الدولية، كما نؤكِّد تمسكنا بحق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس وبما يضمن لفلسطينيي الشتات حق العودة إلى وطنهم التزاماً بالمواثيق وتنفيذاً للقرارات الدولية.
- ثالثاً: نؤكِّد أنَّ الاختلاف في الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين بلدينا قابل لأن يكون مصدر غنى وتنوّع وتكامل لا يحول إطلاقاً دون التعاون والتنسيق والتكامل بينهما. على أن هذا يشترط إجراء تصحيح لتلك الأنظمة بناءً على مراجعة نقدية شاملة للتجارب الماضية في البلدين معاً. وإننا نعلن في هذا الصدد عن اقتناعنا العميق بأنَّ البلدين قادران على ابتكار رؤية للتنسيق والتكامل بينهما بما يحقِّق تزخيم الطاقات والإمكانات والمزايا التفاضلية التي يزخران بها خصوصاً في مواجهة التحديات المتعددة التي تطرحها العولمة وفي الآفاق الواسعة التي تفتحها.
- رابعاً: نطالب بضرورة احترام وتنمية الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان وبناء دولة القانون والمؤسسات والانتخابات الحرة والنزيهة وتداول السلطة ووحدة الدولة وبسط سلطتها على كامل ترابها الوطني. ونؤكِّد على الأهمية الاستثنائية التي تكتسبها مسارات التحوُّل الديموقراطي في حماية الاستقلال وتعزيز قدرات شعبينا في معاركه الوطنية والقومية. بل نصرُّ على أنَّ سيادة نظم ديموقراطية في البلدين تشكل أفضل ضمانة لقيام ورسوخ علاقات متكافئة وسليمة بينهما. لكننا نتمسَّك، في الآن ذاته، بحق الشعبين في أن يختارا، بكامل الحرية، النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يتلاءم وتطلعاتهما من دون أي إكراه.
- خامساً: ندعو إلى إرساء العلاقات الاقتصادية بين البلدين على الشفافية والعلانية والتكامل بما يراعي المصالح الشعبية لا جشع حفنة من المتحكِّمين بالاقتصاد والسلطة. على أن هذا يستلزم، أول ما يستلزم، تحرير اقتصادي البلدين من النهب المنظَّم لثروة البلدين ومواردهما الذي كانت تمارسه، ولا تزال، مافيات مشتركة مستفيدة من مواقع حماية وانتفاع في سلطتي البلدين.
- سادساً: نُدين الاغتيال السياسي بما هو وسيلة جرمية للتعامل مع المعارضين وحل النزاعات السياسية، ونشدِّد على ضرورة تسهيل مهمة لجنة التحقيق الدولية من أجل كشف المحرّضين والمنظِّمين والمنفِّذين في جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري ورفاقه وفي الجرائم الأخرى وتحميلهم المسؤولية الجزائية والسياسية على جرائمهم وإنزال العقوبات التي يستحقونها أمام القضاء الدولي والرأي العام. ونرفض، في مطلق الأحوال، أي محاولة لفرض العقوبات الاقتصادية وسواها على الشعب السوري.
- سابعاً: نستنكر أشكال التمييز والعنف التي تمارس ضد العمال السوريين في لبنان. ونطالب السلطات اللبنانية بتعقُّب المتَّهمين بجرائم الاعتداء على هؤلاء العمال وصولاً إلى القتل وكشفهم واعتقالهم وتقديمهم إلى المحاكمة ليلقوا الجزاء الذي يستحقون.
- ثامناً: لسنا بغافلين عن المشكلات التي يثيرها وجود العمالة المتبادلة بين البلدين وخاصة العمالة السورية في لبنان وما تتركه من آثار على أوضاع الفئات العاملة ولا سيما في موضوع الأجور والضمانات الاجتماعية، ما يتطلب ضرورة سن قوانين تنظم انتقال العمالة واستخدامها بين البلدي

http://xn--mgbahc7a2k.com/wiki/index.php?title=%D8%A5%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%86_%D8%AF%D9%85%D8%B4%D9%82-%D8%A8%D9%8A%D8%B1%D9%88%D8%AA-%D8%AF%D9%85%D8%B4%D9%82

http://tatwir.net/?p=1336

[ii] "نشرت مقالاً على موقعي الشخصي في موقع "الحوار المتمدن" بعد حوالي شهر (تموز ٢٠٠٣) بعنوان: "آخر أباطرة العنترية". يبدو أن المقالة قد تم حذفها من الموقع، ولكنني وجدتها في موقع آخر:
https://groups.yahoo.com/neo/groups/levantnews/conversations/messages/216

آخر أباطرة العنترية
بقلم: د. منير شحود*
أخبار الشرق - ٢٥ تموز ٢٠٠٣
قادني الفضول لحضور محاضرة السيد ناصر قنديل في جامعة تشرين باللاذقية في جولة كُلِّف بها لإتحاف المواطنين

السوريين بمحاضرات مناسباتية "تثقيفية تنويرية." كان الحضور "المميز" فيها يختلف عن حضور حاشد جاء لسماع محاضرة الدكتور طيب تيزيني منذ أربع سنوات والتي تمحورت وقتئذ حول توصيف الدولة القطرية وقد تحولت إلى دولة أمنية يتلخص شعارها بأن على الجميع أن يفسد الجميع حتى يصبح الجميع مدانين أمام أجهزتها (..). كان ذلك تحليلا جريئا لجمهور متلفع بالثقافة "القومية الاشتراكية" ومؤشرا لحياة بدأت تدب. وقتئذ تنفسنا الصعداء علّها إشارة إلى تحوُّل منتظر يتعطش الجميع إليه. امتلأ المدرج الذي ألقيت فيه محاضرة الدكتور طيب تيزيني عن آخره الحضور، جلوسا ووقوفا، وبقي العشرات ممن لم يحالفهم الحظ في العثور على موطئ قدم فتجمعوا عند الباب.

نعود لمحاضرة السيد ناصر قنديل المؤرخة بعد شهرين على سقوط بغداد. فقد أتحفنا، كعادته، بخطاب حماسي إنشائي متفائل حفَّز فيه مواهب الجمهور "المميز" الذي لم يبخل عليه بالتصفيق والدعم مما يذكر بأحداث الاجتماعات الحاشدة في رواية "مزرعة الحيوانات" لجورج أورويل (كتبت الرواية عام ١٩٤٩م للتنويه بالعبرة التاريخية.(! وبعد انتهاء المحاضرة، وجدت نفسي أسأل السيد قنديل عن فائدة مثل هذه المحاضرات الإنشائية، وأنه من الأجدى التعاون بيننا بصيغ أخرى كأن نستفيد من الخبرات المصرفية للبنان في وقت يعتبر فيه القطاع المصرفي السوري متخلفا بجدارة. في الواقع، كنت أمدحه كلبناني بعد أن قرأت أن لبنان جاء في المرتبة الثانية عالميا في هذا المضمار، ولم أعلم لحظتها أن ذلك سينقلب وبالاً عليَّ. وقلت للسيد قنديل إننا مللنا مثل هذه المحاضرات وبتنا لا نسمع مثلها حتى في بلدنا نفسه. وعقَّب بعضٌ من الحضور "المميز" على كلامي مستهجناً طرح مثل هذه الأفكار الغريبة في هذه الظروف، وفي هذه المحاضرة "المعصومة" بالذات. عندها، أخذ السيد ناصر قنديل نَفَساً وقد امتقع وجهه واستعد لمواجهة من نمط أم المعارك التي أصبحت مع بطلها في ذمة التاريخ، وأسرع في تدوين ملاحظاته بحَمِيَّة عظيمة.

بدأ السيد قنديل تعقيبه على كلامي بنعتي "معارضاً"، وقال إن كلامي تُشتم منه رائحة العنصرية (!)، ويذكره بمواقف القوى الانعزالية في الحرب الأهلية اللبنانية، ليلفت نظر لحضور إلى مدى عدم الاحترام الذي تكنُّه هذه القوى للمواطن السوري. وأنني، والكلام للسيد نفسه، لا أقدِّر تضحيات حزب الله كإنجاز لبناني عظيم (لا أعرف كيف توصَّلت عبقريته الفذة إلى إقحام حزب الله في معركته هذه). وبنبرة ارتفعت حدتها شيئاً فشيئاً، وصلت عنترية السيد قنديل إلى أبهى تجلياتها عندما بدأ يدافع عن نفسه ضد تُهم لم توجَّه إليه: فهو ليس كذا وكذا (..)ولا يملي عليه أحد ما يقوله (شكراً لفلتات اللسان اللاشعورية الفرويدية على عملها الرائع). وعبر السيد القنديل عن أسفه لوجود أستاذ جامعي سوري بهذا المستوى (لا يقصد بالطبع المستوى المادي!). وعندما طلبت الرد عليه من الممثل النقابي لم أتلق أية إجابة، ولم أُفاجأ بذلك في الواقع، وهذا ما دفعني لتأجيل ردي إلى حين توفر الفرصة النادرة.

خرجت من المدرج وقد شعرت أنني وقعت في مأزق. إذ يبدو الأمر غريباً وخاصة بعد أن وضعتنا الأحداث الأخيرة أمام تساؤلات قلقة لا يمكن تجاهلها بهذه البساطة. فقد ألَّب المحاضر الجميع ضدي بأسلوب غير معهود وبإنشائية لغوية يحسده عليها كل من لا يستطيع التعبير عن وجهة نظره بهذه البلاغة التي يطرب لها الملوك والسلاطين. ويبدو أن السيد قنديل لم يتوقع أن يجرؤ أحد على معاتبته وذلك لتمتعه، كما يبدو، بحصانة الضيف. ويبدو أن قناعته بكوني معارضاً أعطته الحق في أن يسرح ويمرح في بلده الثاني - ورية (أهلا وسهلا!). قامت بعدها القيامة وشعرت أنني ريشة في مهب الريح، والآن فقط يمكنني القول إنني، ربما، نجوت.

أولاً، ينبغي لي أن أشكر السيد قنديل على وصفي كمعارض في هذا الوقت بالذات حيث يُعترف عندنا بوجود المعارضة دون أن توصف بالخيانة والتآمر، ولعل ذلك منحني شعوراً انطولوجيا بالثقة، فأن أكون معارضا، بالرأي طبعاً، خير لي من أن أكون مواطنا مجرَّداً إلا من واجباتي (ويستثنى منها الواجب الانتخابي حتى إشعار آخر). وعن الانعزالية فقد مضى زمن تغيرت فيه المواقف والمعطيات وليس من الحكمة ولا من مصلحة الشعبين السوري واللبناني العودة إلى مثل هذه المصطلحات، لا سيما وأننا نبحث عن علاقة جديدة يتحقق فيها الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وبعيدة كل البعد عن أي هيمنة أو استحواذ من أي جهة كانت. ولن تتحقق مثل هذه العلاقة، برأيي، إلا عندما يتأسس احترام المواطن في بلده على أساس قوانين عصرية تحترم إنسانيته وكفاءته. وعن عدم احترام بعض اللبنانيين للمواطنين السوريين، كما يتفضل السيد قنديل، فثمة أسباب لا يتحمل هؤلاء البعض المسئولية وحدهم عنها. وأترك ما خلا ذلك من اتهامات السيد قنديل لحكم التاريخ.

ثانياً، وددت لو يتكرم قاضي التحقيق الأول في لبنان السيد المحترم عدنان عضوم بنصحي، كمواطن سوري، حول إمكانية مقاضاة السيد قنديل على اتهامه لي بالعنصرية، وما حكم ذلك عندما يوجَّه الاتهام من لبناني إلى سوري في بلده، مع تفهمي للروابط المميزة بين شعبينا!

---

*أستاذ في كلية الطب بجامعة تشرين – اللاذقية

[iii] تشكلت الهيئة من عدة أحزاب يسارية معارضة، مثل حزب العمل الشيوعي وحزب الاتحاد الاشتراكي وأربعة أحزاب كردية، علاوة على شخصيات مستقلة من داخل سوريا وخارجها، وهدفت إلى التغيير الوطني الديمقراطي. اشتهرت هيئة التنسيق بلاآتها الثلاث: لا للعنف، لا للتدخل العسكري، لا للطائفية، ولم تدعُ صراحة إلى إسقاط النظام، وهو ما يفرّقها عن منظمات معارضة تأسست خارج سوريا ودعت لتوفير حماية دولية للشعب السوري، ولم تقبل بأي حل سياسي لا يتضمن رحيل النظام الحالي في دمشق.

طالبت الهيئة في بيانها التأسيسي بإطلاق حوار جاد مع النظام بعد توفير شروطه اللازمة، ومن أهمها وقف العمل بالحل الأمني العسكري، والإفراج عن جميع الموقوفين والمعتقلين السياسيين، وتشكيل لجنة تحقيق مستقلة لمحاسبة المسؤولين عن القتل وإطلاق النار على المتظاهرين، ورفع حالة الطوارئ والأحكام العرفية، والاعتراف بحق التظاهر السلمي.

وأكدت الهيئة على البقاء على تكامل وتفاعل مع انتفاضة الشعب السوري السلمية في سبيل الحرية والكرامة وإقامة الدولة الوطنية الديمقراطية المدنية الحديثة، ووضع مصلحة الوطن والشعب فوق كل مصلحة، وإدانة أي خطاب أو سلوك من شأنه إثارة الفرقة بين السوريين على أساس ديني أو طائفي أو مذهبي أو عرقي. **syrian**ncb.org

[iv] عبّرت حركة "معاً" عن دعم النضال السلمي للشعب من أجل الحرية والديمقراطية وبناء الدولة المدنية، والوقوف بوجه العنف، وتعزيز الوحدة الوطنية، ومقاومة كل أشكال التحريض الطائفي والتفرقة بين السوريين، وتعزيز القيم الوطنية ومناهضة التدخل الخارجي، وتعزيز ثقافة الاختلاف وقبول الآخر، ونشر وتعزيز ثقافة حقوق الإنسان، وتعزيز مفهوم المواطنة، وبناء سورية مدنية ديمقراطية يتمتع فيها المواطنون جميعاً بالحقوق والواجبات على قدم المساواة. انضمت الحركة إلى هيئة التنسيق الوطنية فور تشكلها، ثم انسحبت منها في ٢٠١٢/٩/١٤.

[v] إعلان دمشق هو تحالف سوري معارض تأسس عام ٢٠٠٥، وهذا هو بيانه التأسيسي:

تتعرض سوريا اليوم لأخطار لم تشهدها من قبل، نتيجة السياسات التي سلكها النظام، وأوصلت البلاد إلى وضع يدعو للقلق على سلامتها الوطنية ومصير شعبها. وهي اليوم على مفترق طرق بحاجة إلى مراجعة ذاتها والإفادة من تجربتها التاريخية أكثر من أي وقت مضى. فاحتكار السلطة لكل شيء، خلال أكثر من ثلاثين عاما، أسس نظاما تسلطيا شموليا فئويا، أدى إلى انعدام السياسة في المجتمع، وخروج الناس من دائرة الاهتمام بالشأن العام، مما أورث البلاد هذا الحجم من الدمار المتمثل بتهتك النسيج الاجتماعي الوطني للشعب السوري، والانهيار الاقتصادي الذي يهدد البلاد، والأزمات المتفاقمة من كل نوع. إلى جانب العزلة الخانقة التي وضع النظام البلاد فيها، نتيجة سياساته المدمرة والمغامرة وقصيرة النظر على المستوى العربي والإقليمي وخاصة في لبنان، التي بنيت على أسس استنسابية وليس على هدى المصالح الوطنية العليا.

كل ذلك وغيره كثير، يتطلب تعبئة جميع طاقات سوريا الوطن والشعب، في مهمة تغيير إنقاذية، تخرج البلاد من صيغة الدولة الأمنية إلى صيغة الدولة السياسية، لتتمكن من تعزيز استقلالها ووحدتها، ويتمكن شعبها من الإمساك بمقاليد الأمور في بلاده والمشاركة في إدارة شؤونها بحرية. إن التحولات المطلوبة تطال مختلف جوانب الحياة، وتشمل الدولة والسلطة والمجتمع، وتؤدي إلى تغيير السياسات السورية في الداخل والخارج. وشعورا من الموقعين بأن اللحظة الراهنة تتطلب موقفا وطنيا شجاعا و مسئولا، يخرج البلاد من حالة الضعف والانتظار التي تسم الحياة السياسية الراهنة، ويجنبها مخاطر تلوح بوضوح في الأفق. وإيمانا منهم بأن خطا واضحا ومتماسكا تجمع عليه قوى المجتمع المختلفة، ويبرز أهداف التغيير الديمقراطي في هذه المرحلة، **يكتسب أهمية خاصة في إنجاز هذا التغيير على يد الشعب السوري ووفق إرادته ومصالحه، ويساعد على تجنب الانتهازية والتطرف في العمل العام فقد اجتمعت إرادتهم بالتوافق على الأسس التالية:**

- إقامة النظام الوطني الديمقراطي هو المدخل الأساس في مشروع التغيير والإصلاح السياسي. ويجب أن يكون سلميا ومتدرجا ومبنيا على التوافق، وقائما على الحوار والاعتراف بالآخر.

- نبذ الفكر الشمولي والقطع مع جميع المشاريع الإقصائية والوصائية والاستئصالية، تحت أي ذريعة كانت تاريخية أو واقعية، ونبذ العنف في ممارسة العمل السياسي، والعمل على منعه وتجنبه بأي شكل ومن أي طرف كان.

- الإسلام الذي هو دين الأكثرية وعقيدتها بمقاصده السامية وقيمه العليا وشريعته السمحاء يعتبر المكون الثقافي الأبرز في حياة الأمة والشعب. تشكلت حضارتنا العربية في إطار أفكاره وقيمه وأخلاقه، وبالتفاعل مع الثقافات التاريخية الوطنية الأخرى في مجتمعنا، ومن خلال الاعتدال والتسامح والتفاعل المشترك، بعيدا عن التعصب والعنف والإقصاء. مع الحرص الشديد على احترام عقائد الآخرين وثقافتهم وخصوصيتهم أيا كانت انتماءاتهم الدينية والمذهبية والفكرية، والانفتاح على الثقافات الجديدة والمعاصرة.

- ليس لأي حزب أو تيار حق الادعاء بدور استثنائي. وليس لأحد الحق في نبذ الآخر واضطهاده وسلبه حقه في الوجود والتعبير الحر والمشاركة في الوطن.

- اعتماد الديمقراطية كنظام حديث عالمي القيم والأسس، يقوم على مبادئ الحرية وسيادة الشعب ودولة المؤسسات وتداول السلطة، من خلال انتخابات حرة ودورية، تمكن الشعب من محاسبة السلطة وتغييرها.

- بناء دولة حديثة، يقوم نظامها السياسي على عقد اجتماعي جديد. ينتج عنه دستور ديمقراطي عصري يجعل المواطنة معيارا للانتماء، ويعتمد التعددية وتداول السلطة سلميا وسيادة القانون في دولة يتمتع جميع مواطنيها بذات الحقوق والواجبات، بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو الإثنية أو الطائفة أو العشيرة، ويمنع عودة الاستبداد بأشكال جديدة.

- التوجه إلى جميع مكونات الشعب السوري، إلى جميع تياراته الفكرية وطبقاته الاجتماعية وأحزابه السياسية وفعالياته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإفساح المجال أمامها للتعبير عن رؤاها ومصالحها وتطلعاتها، وتمكينها من المشاركة بحرية في عملية التغيير.

- ضمان حرية الأفراد والجماعات والأقليات القومية في التعبير عن نفسها، والمحافظة على دورها وحقوقها الثقافية واللغوية، واحترام الدولة لتلك الحقوق ورعايتها، في إطار الدستور وتحت سقف القانون.

- إيجاد حل ديمقراطي عادل للقضية الكردية في سوريا، بما يضمن المساواة التامة للمواطنين الأكراد السوريين مع بقية المواطنين من حيث حقوق الجنسية والثقافة وتعلم اللغة القومية وبقية الحقوق الدستورية والسياسية والاجتماعية والقانونية، على قاعدة وحدة سوريا أرضا وشعبا. ولا بد من إعادة الجنسية وحقوق المواطنة للذين حرموا منها، وتسوية هذا الملف كليا.

- الالتزام بسلامة المتحد الوطني السوري الراهن وأمنه ووحدته، ومعالجة مشكلاته من خلال الحوار، والحفاظ على وحدة الوطن والشعب في كل الظروف. والالتزام بتحرير الأراضي المحتلة واستعادة الجولان إلى الوطن. وتمكين سوريا من أداء دور عربي وإقليمي إيجابي فعال.

- إلغاء كل أشكال الاستثناء من الحياة العامة، بوقف العمل بقانون الطوارئ، وإلغاء الأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية، وجميع القوانين ذات العلاقة، ومنها القانون / ٤٩ / لعام ١٩٨٠، وإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، وعودة جميع الملاحقين والمنفيين قسرا وطوعا عودة كريمة آمنة بضمانات قانونية، وإنهاء كل أشكال الاضطهاد السياسي، برد المظالم إلى أهلها وفتح صفحة جديدة في تاريخ البلاد.

- تعزيز قوة الجيش الوطني والحفاظ على روحه المهنية، وإبقائه خارج إطار الصراع السياسي واللعبة الديمقراطية، وحصر مهمته في صيانة استقلال البلاد و الحفاظ على النظام الدستوري والدفاع عن الوطن والشعب.

- تحرير المنظمات الشعبية والاتحادات والنقابات وغرف التجارة والصناعة والزراعة من وصاية الدولة والهيمنة الحزبية والأمنية. وتوفير شروط العمل الحر لها كمنظمات مجتمع مدني.

- إطلاق الحريات العامة، وتنظيم الحياة السياسية عبر قانون عصري للأحزاب، وتنظيم الإعلام والانتخابات وفق قوانين عصرية توفر الحرية والعدالة والفرص المتساوية أمام الجميع.

- ضمان حق العمل السياسي لجميع مكونات الشعب السوري على اختلاف الانتماءات الدينية والقومية والاجتماعية.

- التأكيد على انتماء سوريا إلى المنظومة العربية، وإقامة أوسع علاقات التعاون معها، وتوثيق الروابط الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية التي تؤدي بالأمة إلى طريق التوحد. وتصحيح العلاقة مع لبنان؛ لتقوم على أسس الحرية والاستقلال والسيادة والمصالح المشتركة بين الشعبين والدولتين.

- الالتزام بجميع المعاهدات والمواثيق الدولية وشرعية حقوق الإنسان، والعمل ضمن إطار الأمم المتحدة وبالتعاون مع المجموعة الدولية على بناء نظام عالمي أكثر عدلا، قائم على مبادئ السلام وتبادل المصالح، وعلى درء العدوان وحق الشعوب في مقاومة الاحتلال، والوقوف ضد جميع أشكال الإرهاب والعنف الموجه ضد المدنيين.

ويرى الموقعون على هذا الإعلان أن عملية التغيير قد بدأت بما هي فعل ضرورة لا تقبل التأجيل نظرا لحاجة البلاد إليها، وهي ليست موجهة ضد أحد، بل تتطلب جهود الجميع. وهنا ندعو أبناء وطننا البعثيين وإخوتنا من أبناء مختلف الفئات السياسية والثقافية والدينية والمذهبية إلى المشاركة معنا وعدم التردد والحذر؛ **لأن التغيير المنشود لصالح الجميع ولا يخشاه إلا المتورطون بالجرائم والفساد. ويمكن أن يتم تنظيمها وفق ما يلي:**

١ - فتح القنوات لحوار وطني شامل ومتكافئ بين جميع مكونات الشعب السوري وفئاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفي كل المناطق وفق منطلقات قاعدية تتمثل في:

- ضرورة التغيير الجذري في البلاد، ورفض كل أشكال الإصلاحات الترقيعية أو الجزئية أو الالتفافية.

- العمل على وقف حالة التدهور واحتمالات الانهيار والفوضى، التي قد تجرها على البلاد عقلية التعصب والثأر والتطرف وممانعة التغيير الديمقراطي.

- رفض التغيير الذي يأتي محمولا من الخارج، مع إدراكنا التام لحقيقة وموضوعية الارتباط بين الداخلي والخارجي في مختلف التطورات السياسية التي يشهدها عالمنا المعاصر، دون دفع البلاد إلى العزلة والمغامرة والمواقف غير المسئولة. والحرص على استقلالها ووحدة أراضيها.

٢ - تشجيع المبادرات للعودة بالمجتمع إلى السياسة، وإعادة اهتمام الناس بالشأن العام، وتنشيط المجتمع المدني.

٣ - تشكيل اللجان والمجالس والمنتديات والهيئات المختلفة، محليا وعلى مستوى البلاد، لتنظيم الحراك العام الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ومساعدتها على لعب دور هام في إنهاض الوعي الوطني وتنفيس الاحتقانات، وتوحيد الشعب وراء أهداف التغيير.

٤ - التوافق الوطني الشامل على برنامج مشترك ومستقل لقوى المعارضة يرسم خطوات مرحلة التحول، ومعالم سوريا الديمقراطية في المستقبل.

٥ - تمهيد الطريق لعقد مؤتمر وطني، يمكن أن تشارك فيه جميع القوى الطامحة إلى التغيير، بما فيها من يقبل بذلك من أهل النظام، لإقامة النظام الوطني الديمقراطي بالاستناد إلى التوافقات الواردة في هذا الإعلان، وعلى قاعدة ائتلاف وطني ديمقراطي واسع.

٦ - الدعوة إلى انتخاب جمعية تأسيسية، تضع دستورا جديدا للبلاد، يقطع الطريق على المغامرين والمتطرفين. يكفل الفصل بين السلطات، ويضمن استقلال القضاء، ويحقق الاندماج الوطني بترسيخ مبدأ المواطنة.

٧ - إجراء انتخابات تشريعية حرة ونزيهة، تنتج نظاما وطنيا كامل الشرعية، يحكم البلاد وفق الدستور والقوانين النافذة، وبدلالة رأي الأكثرية السياسية وبرامجها.

وبعد.. هذه خطوات عريضة لمشروع التغيير الديمقراطي كما نراه، والذي تحتاجه سوريا، وينشده شعبها، يبقى مفتوحا لمشاركة جميع القوى الوطنية من أحزاب سياسية وهيئات مدنية وأهلية وشخصيات سياسية وثقافية ومهنية، يتقبل التزاماتهم وإسهاماتهم، ويظل عرضة لإعادة النظر من خلال ازدياد جماعية العمل السياسي وطاقاته المجتمعية الفاعلة.

إننا نتعاهد على العمل من أجل إنهاء مرحلة الاستبداد، ونعلن استعدادنا لتقديم التضحيات الضرورية من أجل ذلك، وبذل كل ما يلزم لإقلاع عملية التغيير الديمقراطي، وبناء سوريا الحديثة وطنا حرا لكل أبنائها، والحفاظ على حرية شعبها، وحماية استقلالها الوطني.

دمشق في ١٦-١٠-٢٠٠٥

[vi] جاء في رسالة الطبيبة ذات المرجعية الثقافية الدينية والإنسانية**:**

".. ياريتني كنت مستوعبة الشي اللي عبصير.. ما عدت فهمت شي.. ولا حتى مرتاحة لشي.. ولا حاسة إنو الله مع أي حدا.. ياريتني أكون غلطانة..

ما بعرف منين أبدأ.. بتمنى ما أظلم حدا بكلامي اللي معظمه مشاهدات شخصية وجزء منه رواية من ناس ثقة.. سامحني إذا طوّلت عليك..

شعب حلب أساساً غالبية مؤيدة مو لشي بس شعب بحب الراحة و البسط .. فجأة صارو جوا المعركة.. ظلموا الجيش الحر كتير.. وظلمهون كتير.. أول فترة من أحداث حلب بلشت تجي لمشفى الجامعة شاحنات محملة بجثث شباب.. منها جثث متفسخة ومنها لأ.. ومعظمها شباب أيديهم مقيدة للخلف ومقتولين.. تتكوم الجثث فوق بعضها والبراد ما يستوعب.. فيتركوها عند باب الإسعاف.. وتعبق رائحة الموت القذرة في المشفى لدرجة الناس تستفرغ.. والذباب يعبي الدنيا.. بعدين صاروا يصوروهم ويدفنوهم.. لو تشوف شلون تنسحب الجثث.. تنركل بالأرجل.. أو تنسحب عارية.. عند قسم الإسعاف دماء تملأ الأرض.. ناس شايلة أيديها وأرجلها.. وناس عبتبكي من الألم.. أو لموت شي حدا.. وأمهات وآباء عبيتعرفو ع جثث أولادهم..

بتطلع من المشفى.. ع بعد كم متر.. للموغامبو والمقاهي جنب البولمان بتلاقي العالم سهرانة.. والأراكيل منصوبة كأنو المشفى بلد تاني وعالم ضحكاتها معبية وجوهها بالتزامن مع أصوات القصف..

المدارس تغص بالنازحين.. حتى الأقبية.. والنازحين قصة مستقلة.. ناس مو عرفانة إش صاير أو ما بدا تعرف.. أولاد كتير.. وأنانية لا تخفى على المشاهد.. ناس مستعدة تاخد كل شي أكل أو منظفات أو دواء مجاناً و تخزنها أو تبيعها و لو ع حساب غيرها.. ناس عبتاكل بعضا فعلاً.. يمكن عمبظلمهم.. ما بعرف.. بس طلعنا شعب كتير أناني.. نسبة أكبر من اللي متوقعتها مستعدة تذل نفسها لأبسط شي.. وتكذب.. وتشحد وتترجى وتشكي مقابل أي شي.. أي شي.. ونسبة قليلة ما بتطلب حتى لو ماتت من الجوع.. ورجال من جيل أجدادنا بتبكي من الهوان لو تقدمتلهم مساعدة.. وشباب من قاع المجتمع نظراتهم تملؤها القذارة.. وبنات طالعين جديد عالحياة.. مجتمعين بمكان واحد.. بتخيل بعد فترة رح نسمع كوارث إذا ضل الوضع هيك.. والناس بالخيم.

معظم العائلات صارت متخانقة مع بعضها شي مشان مؤيد ومعارض وشي من كتر الاحتكاك لأنو صار كل بيت يحوي كذا عائلة.. مافي أسهل من إنك تسمع صوت خناقة طالع كل لحظة من شي بيت..

ونحن اللي عايشين بحي سليم لحد الآن.. وبيتنا كبير.. وأهلي كنت أشوفهم رائعين.. ماعنا استعداد نجيب عيلة من شي خيمة ونسكنهم معنا.. ولا عنا استعداد نقسم طعامنا وشرابنا مع حدا.. بالعكس كملنا حياتنا، وعملنا مونة الأكل بالفريزر للشتوية عأساس رح نعيش لناكل هالأكل..

الجيش الحر بيجيك شعور أحياناً إنو مو عارف إش عبيعمل و لا مخطط لشي.. كلمة (الله أكبر) شو انحط من مقامها!!.. أستغفر الله.. بتنقال وقت القتل.. ووقت النهب.. كتير ناس فاسدة انضمت للجيش الحر وصارت تنهب وتقتل باسمه.. بس تقول عند القتل (الله أكبر).. رغم هيك الجيش الحر أغلبية نظيفة الكف.. جاي مشان قضية بس لسا ما نقيت قلوبهم ولا عقيدتهم تماماً.. وبكّير عليهم يشيلو سلاح. ووقت حدا بينقد الجيش الحر بيقولوا يا شباب نحن لازمنا عناصر.. تعالوا إنتو معنا ولا تخلوا مكان للسيئين.. ما بعرف يمكن معهم حق.. الجيش الحر صار عبارة عن مجموعات متنافرة يخوّن بعضها بعضاً.. وتتصارع على الغنائم..

أما جبهة النصرة ما سمعت عنها سيء.. هيي الوحيدة اللي بيحتاج الشخص حتى ينضم لها تزكية من عدد محدد من الثقات.. ويُعاقب فيها المخطئ.. ولا تنهب ولا تستحل البيوت.. حتى يُقال إنو لا أحد فيها يتكلّم بالسوء عن الأطراف الأخرى وهي الطرف الوحيد الذي يتم فيه توزيع الغنائم بمنتهى العدل على كل الأطراف، أما الجيش الحر حين يغنم فلا يعطي شيء لجبهة النصرة (على ذمة الراوي الذي أثق به)، ويقال إن كل من فيها أتى لينال الشهادة وأن أعضاءها هم دائماً في الصفوف الأولى وكثيراً ما نصرت الجيش الحر في مآزق لكنه خذلها.. ويقال إنها مسؤولة عن تفجير ساحة سعد الله الذي قُتل فيه الكثير من الأبرياء.. لما بتسأل بيقولوا إنهم رجعانين لفتاوى (متل إنو التتار كانو ياخدو أولاد البلد دروع بشرية ويحطوهم في المقدمة واستطاعوا بهالطريقة اقتحام معظم المدن فأصدر العلماء حينها فتوى بجواز قتل الدروع البشرية لدرء خطر استباحة التتار للمدن الآمنة) وبيقولوا إنهم كمان صرلون فترة عمبحذرو السكان من الاقتراب من أماكن تواجد الأمن والجيش اللي أهمها ساحة سعد الله.. ما بعرف إش ممكن يقول اللي مات ابنه لما يسمع هالحكي.. أو اللي انبترت أطرافه.. ما بعرف إشو الصح..
ما بعرف ليش دخلوا الجامع الأموي رغم إنه بيعرفو إنه رح ينقصف.. الجامع الأموي صار ببكي.. وسوق المدينة الأثري المحروق ببكي أكتر. ما بعرف ليش دخلوا الأحياء قبل ما يهاجموا فروع الأمن وإذا كانوا بيقدروا أساساً يعملو هيك..
يالله شقد صار القتل سهل.. من الطرفين.. والموت سهل..
كلياتنا بين معدننا الأسود بهالأزمة.. الأطباء هربوا.. المقيمين جزء كبير منهم ما عاد يقدر يوصل عالمشفى بس في جزء مهم بيقدر يوصل.. أو حتى التجأ وسكن بالمشفى بس ما بيطلع بشوف المرضى ولا بناوب.. صار في نقص حاد بالأطباء ونوعية المرضى ساءت كتير.. صاروا يجو كتيير تعبانين وكتيير بدهم عناية وغالباً ما في غير سنة أولى ما عنده خبرة بشي.. ونفسهم هدول اللي ما عاد شفناهم بالمشفى هنن هون أبطال ثورة عالفيس.. بتقرا إش بيكتبوا بتفكر إنو الوطن ساكن بقلبهم.. بيطلع بس ع راس لسانهم.. وأول يوم بالشهر الكل بيقدر يوصل ويقبض راتبه (الحرام) اللي ما اشتغل شي لحتى يقبضه..
صرت أفكر ليش قامت الثورة.. مشان الفساد؟ طيب كل هدول الأشراف كمان فاسدين.. عبيقبضوا مال حرام.. ولو صارو مسؤولين رح يعملو متلهم وأسوأ.. وفي شباب بمنتهى الروعة.. والبراءة.. انضموا للجيش الحر.. وصارت قلوبنا تنفطر عليهم.. مو خوف من الشهادة.. معاذ الله.. بس صرت خايفة ما تكون شهادة. أو يستسهلو القتل ويقتلو حدا ما بيعرفو ليش قتلوه..
مرة كنت مناوبة برمضان.. بعد الإفطار جابو حوال ٩ جثث محروقة ومتفحمة من جنب المخابرات الجوية.. الحرق أمر رهيب.. بتحسه بيطعن فيك شي.. بتحسه تعدي على الإله.. أسوأ من أي شي تاني.. بصير شكل الإنسان متل العنكبوت الأسود.. بخليك تحقد أكتر من أي شي تاني..
بعد منتصف الليل تقريباً جابوا جثة ضابط يبدو إنو من الطائفة العلوية.. ومعه رفقاته.. رفيقه وقف عند قدمه الشاحبة (من كتر النزف) و صار يبوسها و يبكي.. ويقول لرفيقه الله يرحمك يا شهيد.. رفعت راسنا والله.. ياريتني موت متل موتتك.. بلهجته العلوية كلماته لسا بترن بأذني.. يوما صرت أقول يالله معقول في فتنة لهالدرجة.. معقول إنو مآمن لهالدرجة بصحة الشي اللي عبيعمله متل مو مآمنة.. شقد تمنيت وقتا أروح لعنده وأحكي معه.. بس ما رحت..
موقف تاني ما بروح من بالي هو جندي على حاجز للجيش النظامي مادد سجادته وعمبصلي.. رغم ندرة هالمشهد فهو موجود.. تخيلت إنو هاد ممكن يقتله حدا جاي يجاهد.. هاد اللي عمبصللي بمنتهى الخشوع.. وبنفس الوقت فكرت إنو متل هالحاجز انمسكو عنده (حازم وباسل ومصعب) وتسلموا لأهاليهم جثث محروقة..
يقال وقت دخول صلاح الدين الأيوبي لمدينة حلب عرض على أمير حلب جزء كبير من ملكه مقابل تسليم ابن نور الدين زنكي مشان ما تنهدر دماء المسلمين.. ووقت رفض أمير حلب رفع إيديه للسما وصار يبكي ويقول (يارب.. هل أعذرت في دماء الأبرياء)..
مدري أنا عايشة بالأوهام أو بالأساس ما في نظافة تامة بالحياة.. مدري القذارة تملؤنا وهاد اللي عبصير عقاب إلنا.. أنا ضيعت البوصلة.. وما بعرف إش ممكن أعمل ويرضي الله.. حاسة إنو الله غاضب كتيير.. كتيير.. ونحن عمنغرق.. سقطنا من عين نفسنا.. وعيون الناس.. وعين الله.. وماضل في مثُل عليا.. طولت عليك كتيير.. بعتذر.. ادعيلنا الله يهدينا ويغفرلنا.. ويحقن دماء الأبرياء.. إن شاء الله ما أكون ظلمت حدا"

[vii] "ممكن أتفهم .. تبرير البعض لعسكرة الثورة .. ودفاعهم عن حمل السلاح بسبب قسوة و وحشية وعنف النظام في قمع المتظاهرين السلميين (يمكن كان البعض منهم متصور أن النظام سيأخذهم بالأحضان أو سيرميهم بالياسمين الدمشقي، أو يقلهم يا حبيبي و يا عيني (وذلك دون الإنتباه و النظر بدقة إلى خلفيات و دوافع حملة السلاح وهل هم قولا و فعلا يهدفون إلى حماية المتظاهرين في المناطق المختلفة من سوريا والعمل على إسقاط النظام لتحقيق الحرية والكرامة للشعب السوري!).و دفاعهم وتبريرهم لكثير من تصرفات وخطاب المجموعات المسلحة ومنها طريقتهم في إدارة المعارك وعلاقتهم مع المدنيين في المناطق التي لا سلطة للنظام عليها وذلك مع السكوت والتغاضي عن مصادر التمويل والدعم للفصائل المسلحة / وخاصة من لهم أجندات وأهداف أبعد ما تكون عن مطالب ثورة الحرية و الكرامة ... / . المرفوض من وجهة نظري والمستهجن هو الخطاب الطائفي العنصري في التحريض ضد النظام ممن يفترض أن يكونوا ثوار حرية و كرامة .. وعدم رفض البعض لهكذا خطاب بل تبريره.. على أنه ردة فعل نتيجة سلوك النظام وإجرامه .. و كأني بهم .. عندما انتفض هؤلاء السوريون كان في تقديرهم أن النظام و خاصة رأسه سيسارع إلى تلبية مطالبهم .. أو تصوراتهم بأن النظام سيسقط في غضون أيام وعلى أبعد تقدير أشهر معدودات .. كل هذا بسبب غياب الوعي السياسي وخاصة عدم فهم طبيعة النظام / بنيته ، آليات عمله وعلاقاته .. / والمعيب هو استمرار غياب هذا الوعي ... والتخبط في الخطاب

والممارسة والانجرار إلى ردات الفعل والتبرير المقيت .. غياب خطاب المواطنة مؤشر إلى أن الحرب ستمتد لسنوات ... الطريق إلى الحرية .. على ما يبدو أمامنا ليل طويل .. و لكن لا مفر من الأمل."

وجاء في رسالة أخرى منه:

"ما هو مطلوب مني .. ؟ شو المفروض أتصرف ؟ ..شو لازم أعمل لتخفيف الألم و الدفع باتجاه وقف القتل و تهجير الناس .. الخطاب المقبول ..الحرب ، عبثية ما يحصل في سوريا .. الإجرام الذي يرتكبه النظام ، ردات فعل الناس و المقاتلين .. الأعمال العسكرية و المواجهات مع قوات النظام لن تؤدي إلى هزيمته و بالتالي إزاحته عن مقاليد السلطة ، لأن المجموعات المسلحة ونتيجة لخطابها وسلوكها تطيل أمد الحرب و بقاء النظام .. هل هذه الأعمال العسكرية هي الثورة . هل هذا ما كنا نحلم به .. من أن ينتفض السوريون يوما ما بوجه الاستبداد و التسلط و السلطة المعتدية .. هل ما يحصل اليوم هو الثورة على الظلم والاستبداد .. هل حملة السلاح بوجه النظام وعصاباته هم ثوار حرية ..هل هم ناس يريدون الإنتقام و الثأر والقصاص ممن اعتدى عليهم !!!. .. أليس الثائر من يخرج طالبا العدالة و المحاسبة ورد المظالم .. ما هو موقفنا مما يحصل من ردات فعل من قبل المسلحين .. هل هم ثوار .. هل النزف الحاصل هو تضحيات مطلوبة للخلاص من الطاغية وزمرته وعصاباته ، أم هو نزيف و بس .. ؟ نعم الخلاص من الطغيان والتسلط يتطلب بذل الكثير من الجهد وتقديم التضحيات ، فهل ما يحصل اليوم هو في اتجاه التخلص من الاستبداد وإسقاط النظام المتسلط الغاشم ... ؟ أخاطب السوريين الذين حلموا و عملوا من أجل الحرية والكرامة .. ما هو موقفنا مما يحصل اليوم فوق الجغرافيا السورية .. هل أعمال وتصرفات الفصائل المسلحة هي الثورة .. هل مواجهاتهم مع النظام هي الثورة ... هل خطابهم و أفعالهم هي ثورة الحرية والكرامة .. هل شعاراتهم ورموزهم هي ثورة العدالة؟"